روايات د. نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي



الذين يحترقون

People who are burning



Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا







Design by Abdul Rahman Magdy







« رواية »

د. نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ١١٣٧/٢٠١٣

الترقيم الدولي:

978-977-255-398-3



الفصل الأول

تطلعت «كاميليا» من نافذة مسكنها وقت الأصيل، كانت السماء الزرقاء جميلة والأرض الخضراء تمتد إلى بعيد، ومبانى القرية ترقد فى الجهة البحرية فى تواضع جم، وأشجار الصفصاف والنخيل التى تحيط بها تتمايل فى كسل وكأنها تتمطى بعد غفوة قصيرة، وفتحت «كاميليا» صدرها لهواء الصيف الشحيح لعلها تخفف من الضيق الذى كثيرًا ما يلم بها، وما أجمل الجو هنا! لكن الغربة والقلق الغامض رجوعها إلى أشياء كثيرة، تشوب هذا الجمال، وتحيله إلى نغم حزين يثير الشجن أكثر مما يبعث على النشوة والرضا.

وتوقفت كاميليا عن الاستطراد فى أفكارها، وهى ترى شابًا أنيقًا يحيط به بعض التومرجية والأهالى، وهتفت:

– «إنه هو».

ثم التفتت إلى زميلاتها النائمات وصرخت فيهن:

– «استيقظن يا خاملات.. لقد جاء الطبيب الجديد».

وفى دقيقة اجتمعت الرفيقات- هيئة التمريض- وتزاحمن لدى النافذة الصغيرة، وعيونهن التى لم يزايلها النعاس بعد: تبحث عن الرجل الجديد، وكل جديد لديهن مثير، ويوقظ فيهن حب الاستطلاع، وعادت «كاميليا» تقول:

- «دمه خفيف.. عيناه وادعتان.. وشعره المنسق والأسمر الغزير يوحى بالوقار، لكنه مرتبك.. يبدو أنه رجل عاطفى..».

كان الطبيب ومن معه قرب النافذة، وكانت التعليقات الهامسة تتحدث عن شكله وهندامه وحركاته، وعندما شمل المكان بنظراته الفاحصة، ثم صعد ببصره صوب النافذة، اختفت الرءوس المتزاحمة وتوارت عن الأنظار، وهمست «كاميليا»:

- «أقسم أنه روميو كبير..»، وجاءها صوت زميلة لها قائلاً:

- «يا فاجرة.. ألم تسمعى أنه على مستوى خلقى ممتاز..»، وقالت أخرى:

- «إن ما يضايق كاميليا هو الأخلاق الفاضلة..»، وضجت الحجرة بالضحك والضجيج.

واستقر به المقام فى القرية التى تقرر أن يعمل بها، لم يكن فى استطاعته أن يلم شتات نفسه أو يستسيغ مذاق الحياة الجديدة، لقد ترك شيئين اثنين وراءه وهو ييمم وجهه وحيداً شطر الأرياف: الأول زوجه والثانى القاهرة، وكلاهما حبيب إلى نفسه، وثيق الصلة بهواه ومزاجه، لكن الأخطر من هذا كله هو غرابة التجربة،

وطرافتها أيضًا، فالقرية التى سيعمل بها كطبيب هى قريته فيها ولد ونشأ، بل إن أسرته- أباه وأمه وإخوته وأقرباءه- يعيشون تحت سماء القرية ويشقون أرضها بالفئوس والمحاريث، شأنهم شأن باقى سكانها، ثم إن بمستشفى القرية طبيبًا آخر، طبيبًا له سلوكه الخاص ونظرته الشخصية إلى الحياة والعمل والمجتمع الذى يعيش فيه منذ سنوات، والشىء الأكيد هو أن الطبيب الجديد يختلف تمامًا فى الغاية والوسيلة مع الطبيب القديم الذى لا تربطه بأهل القرية سوى رابطة العمل، ونستطيع أن نقول «وصلة المنفعة» أيضًا، ولا بد أن اختلاف المنهجين سوف يثير عديدًا من المشاكل والقلق. . أشياء كثيرة غامضة لا شك تخفيها طيات المستقبل.

ولماذا يذهب الطبيب الجديد بعيدًا فى التخيل والتخمينات؟؟ . . قد تسير الأمور سيرًا هادئًا رزينًا كتلك الترعة التى تمشى الهوينا لدى أقدام مستشفى الوحدة المجمعة، وكل شىء فى القرية يبدو وادعًا لا ثورة فيه ولا انتفاضات، والجميع على استعداد تام لأن يفتحوا أذرعهم للحب والسلام.

●●●

لم يكن الدكتور «محمد صادق» بقادر على أن يتمادى فى تكهناته بشأن المستقبل، فعن يمينه يجلس أبوه الذى لم يره من مدة طويلة، ومن عينى عم صادق تنبع فرحة اللقاء، وعلى ملامحه ترتسم أطياف الرضا، وعن يساره أمه التى لا تفتأ تربت براحتها

على رأسه وظهره وتقبله من وجنتيه، ويلهج لسانها بالدعاء المتصل، والسعادة تشرق من عينيها، وتتراقص على ملامحها الشقراء التى لوحتها الشمس. . الحجرة ممتلئة بالأطفال وبعض النسوة والرجال من الأقرباء، وأقداح الشاى تمتلئ وتفرغ، وضربات من آن لآخر على الباب الكبير للبيت، تتبعها أصوات: «يا ساتر. . يا أهل الله. .» كتلك، ولا تكاد الحجرة تفرغ إلا لتمتلئ من جديد. . أهل الشارع. . ثم أهل الشوارع المجاورة. . ثم سكان الأطراف النائية بالقرية. . ويبدا أن الجميع فى يوم مشهود. . قد يكون من الأمور العادية أن تنجب القرية طبيبًا، ولكن الأمر الذى أطربهم هو أن ابنهم سيكون طبيب مستشفاهم، وسرى النبأ بسرعة البرق، وكان أبوه طوال الوقت يجرع أقداح الشاى ويشعل سجائره الرفيعة ويعتصم بالصمت.

ولم يستطع الدكتور محمد أن يؤوب إلى نفسه إلا بعد فترة طويلة من الزمن، حينما انتصف الليل، وساد السكون، ولم يعد يسمع غير نباح كلاب بعيدة، وعاد بذهنه إلى القاهرة، زوجه هناك وحدها وطفلان صغيران. . وقلبه أيضًا. . هناك معهم، وتذكر زوجه وقد تبللت أهدابها بالدموع وهى تودعه لدى باب الشقة، وتذكر ذراع طفله الأكبر وهى تلوح له، والطفلة الوليدة التى لم يكد يمر على مولدها سوى شهر كانت هى الأخرى فى «اللفة» مستسلمة نائمة ترضع الوهم، وتاه فى دنيا عشه الجميل بالقاهرة، فخفق قلبه وأوشك أن ينسى مكانه ومن حوله، وتنهمر دموعه لكن

صـوت أبيه أعـاده على التـوالى حيث يجلسـون، نقله فى لمحـة من القاهرة إلى القرية، وقال عم صادق:

- «ما كنت أود أن تُعيَّن فى مستشفى قريتنا . . .»

فاعترت الدكتور محمد دهشة طارئة، والتفت إلى أبيه قائلاً:

- «ولماذا . . ؟؟» .

- «لا كرامة للعبد فى وطنه . . » .

- «إنى أؤدى واجبى وكفى . . » .

فابتسم أبوه فى سخرية مُرة، وقال:

- «ستكون العيون مفتوحة عليك، وكل مليم تأخده سيكون نارًا، والحسد والحقد سيتبعانك كظلك، فلا تخدعنك الابتسامات والاستقبالات الكاذبة، هذا بالإضافة إلى أن معك طبيبًا آخر وسينعكس هذا على دخلك، وأخيرًا أهل «العشم» كثيرون جدًا . . هذه خالتك، وهذا ابن بنت عمتك، وآخر يمت إلى جدتك بصلة موغلة فى القدم. بالاختصار . . أهل قريتنا ناس لا يحتملون والطيبون قلة جدًا . . » .

وأدار كلام أبيه رأسه، أول يوم يقول له هذا الكلام، وهو الذى كان يظن أن الجميع سيبشون لمقدمه، وسيشكرون الأقدار على أن بعثت به إليهم، ثم إن أباه يحكم على الأمور من ناحية مادية صرفة، ومن ثم التفت الدكتور محمد إلى أبيه قائلاً:

- «لكن يا أبى ليست هذه مشاكل على الإطلاق».

فسدد إليه عم صادق نظرات تتعطش إلى الإجابة:

- «كيف؟؟ إن ما أقوله عين الصواب . .».

- «الحقيقة يا أبى أنى لن آخذ مليمًا واحدًا . . وبهذا تنتهى كل المشاكل . . لكن يكون هناك حاسدون، ولا دخل، ولا منافسة بينى وبين زميلى . . وسأخدم الجميع بلا مقابل . . سواء أكانوا يمتون إلىّ بصلة القربى أم لا . .».

كان «عم صادق» يمسك بمسبحة بين أصابعه يعبث بها، توقف تمامًا عن الحركة، وأخذ يستعيد ما قاله ابنه، وخيِّل إليه بعد لحظات تفكير أن ابنه متعب لا شك من السفر، وأنه على وشك أن ينام، والمقبلون على النوم قد يهذون، وينطقون بكلمات لا معنى لها، ولكنه حملق فى ابنه، وهتف:

- «أتعنى حقًا ما تقول؟؟».

- «وهل هذا يغضبك؟؟».

- «من قال ذلك . . لا . . لا . . أبدًا . . لكن . .».

- «لكن ماذا؟؟».

فابتسم عم صادق، وسعل دون حاجة إلى ذلك، ثم أردف:

- «هل تؤمن حقًا بما تقول؟؟ هذه مثالية مغرقة لم أسمع بها من

قبل، وفى قرى المحافظة ومدنها كثير من الأطباء لا يفعلون ما تنوى أن تفعله . . ».

قال الدكتور محمد وهو يطأطئ رأسه:

- «هذه ليست مثالية، ولكنه القانون . . ».

- «ماذا تعنى؟؟».

- «أعنى أنى طبيب متفرغ . . آخذ خمسة عشر جنيهًا «بدل عيادة» وبالتالى لا يحق لى مزاولة العمل بأجر . . ».

وضحك أبوه وهو يقول:

- «والدكتور موريس . . زميلك . . أليس هو الآخر متفرغًا؟؟».

- «أجل . . ».

- «يبدو أنه لا يعرف القانون . . فهو يزاول العمل الحر، ويتناول أجرًا برغم مرتبه، وبرغم بدل العيادة . . ».

فقال الدكتور محمد فى شىء من الضيق:

- «الدكتور موريس يعرف القانون، ولكنكم أنتم الذين تجهلونه» . . وقبل أن يتمادى فى حدته، قطع عليه أبوه الحديث فى رقة، وقال:

- «يجب أن تنام أولاً . . فالتعب مرتسم على وجهك . . تصبح على خير . . ».

وكانت رغبته فى النوم جارفة، وبين أحضان النوم قد ينسى من فارقهم فى القاهرة، وقد ينسى أيضًا نذر العواصف الكامنة فى سماء المستقبل، والمناقشات الحارة التى أثارها أبوه، ولكنه على الرغم مما به من إنهاك ورغبة فى النوم كان الأرق يأبى إلا مضايقته...



الفصل الثانى

ليس من الضروى أن يكون كل نادر غريبًا، هذا ما كان يعتقده الدكتور محمد، لكنه وجد أن التصرفات الطبيعية، أو المفروض أن تكون طبيعية، هى الشىء الغريب حقًا فى العالم الذى يعيش فيه، منذ أن زاول العمل بالمستشفى والجميع من حوله فى حيرة، الممرضات التومرجية وكاتب المستشفى ومعاون الصحة، بل والمرضى أيضًا، فى بداية الأول جاءه التومرجى «حامد» وهمس فى أذنه:

- «كشف خصوصى يا بك».

- «ماذا تقصد؟».

- «بالعربى.. أحد المرضى الموسرين يريد أن يدفع أجرًا للكشف الدقيق عليه..».

- «لكنى أفحص الجميع بدقة وبدون أجر، هذا واجبى..».

- «يا سعادة البك دعك من هذا الكلام.. ليس من المعقول أن توقع الكشف الطبى الدقيق على مائتى مريض..».

فقال الطبيب باستغراب :

- «المرضى سواء، وأنا لا أتناول أجراً؛ لأن لى مرتبًا من الحكومة . . ».

قال حامد وهو يهز كتفيه فى سخرية :

- «الأمر بسيط . . سآخذه إلى الدكتور موريس . . أردت الخير لابن بلدى، لكنك رفضته، غير أنى أحب أن أقول إنه لا يمكن أن تحظى بالاحترام، أو تكتسب السمعة الطيبة إلا إذا أخذت ثمن الفحص . . ».

- «عجب . . ».

- «غداً ترى . . ».

وخرج حامد التومرجى، ودخلت «كاميليا» الممرضة، ويبدو أنها كانت تسترق السمع إلى حديثه مع حامد، فقد لمح الطبيب ابتسامة ذات معنى على ثغرها، وكانت واسعة العينين تطل منهما صراحة وجرأة، وفى وجهها المستدير، وخطواتها المعجبة سمات جمال مثير واستعداد للمعابثة، وتأكد لدى الطبيب ما ظنه من قبل حينما سمعها تقول :

- «ماذا يقول لك هذا اللئيم؟؟».

- «لا شىء . . كنا نتحدث عن العمل . . ».

- «آه . . أجل . . أعرف ذلك . . لكن خذ حذرك منه . . . ».

وسرعان ما انسحبت عندما دخل الدكتور «موريس» الطبيب القديم وقد سبق أن تعرف بالطبيب الجديد من قبل، كان موريس يبتسم ابتسامة شبه ثابتة لا تنقص أو تزيد، وكأنها أكلشيه لا يتغير، ابتسامة ذات طابع بارد ميت لا تقبلها النفس ولا تتغلغل إلى الأعماق كفقاعة من رغوة الصابون الرخيص، وتبادلا عبارات المجاملة والتحية المألوفة، وبعد فترة تنهد موريس وغمغم فى ضجر مصطنع:

- «لشد ما أرهقتنى قريتكم هذه..».

- فقال الدكتور محمد:

- «عملنا كأطباء متعب. وقليلون أولئك الذين يرضون بما نبذله من جهد، والمرضى دائمًا ضيقو النفوس، أليس كذلك..؟».

- «صدقت لكن قريتكم بالذات متعبة...».

فرد محمد وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

- «ومع ذلك فقد آثرت أنت البقاء فيها ولم توافق على أى نقل، وهذا يعطى فكرة أنها برغم متاعبها لا تدفع مَنْ فيها للهروب منها..».

فقال موريس وهو يهز رأسه فى إصرار:

- «لا.. لا.. إنى باقٍ هنا رغم أنفى.. وأنتظر يوم النقل بفارغ الصبر، إن الريف عذاب وغربة قاتلة..».

وعندئذٍ دق جرس التليفون، فأسرع موريس إلى الحجرة

المجاورة للرد عليه، فانتهزها محمد فرصة للتفكير فيما سمعه ومناقشته بينه وبين نفسه، لكن تومرجيًا آخر قطع عليه حبال تفكيره واقترب منه وهمس:

- «أنت ابن بلدى، وعار علىّ أن أغشك.. الدكتور موريس كاذب فى كل ما يقول..».

- «لعلك سمعت ما دار بيننا..».

- «بالطبع. هذا الإنسان له رصيد فى البنك خمسة الآف جنيه.. لقد جاءنا نحيفًا عاريًا، وهو الآن متزوج.. ربى كرشًا.. وأصبح صاحب رصيد.. إنه لا يرحم أحدًا..».

وعند سماع وقع أقدام موريس، توارى التومرجى فى لمح البصر..

وعادت «كاميليا» مرة ثانية وهى تتثنى فى مشيتها، وقالت:

- «العيادة جاهزة يا دكتور موريس..».

فقال وهو يحملق فى بعض الأوراق الملقاة أمامه على المكتب:

- «الدكتور محمد سيشتغل اليوم..».

كان الجو حارًا، والعشرات متكدسون أمام باب العيادة، وصراخ الأطفال يطغى على همهمات الرجال والنساء، ومبنى الوحدة المجمعة كخلية النحل، وكثيرون- غير المرضى- جاءوا ليروا التجربة المثيرة التى يخوضها ابن قريتهم، بعد أن ترامى إلى

سمعهم أنه يرفض تناول أى أجر، ويعد بمعاملة المرضى جميعًا على قدم المساواة.

ولاحظت «كاميليا» وهى تجلس قبالة الدكتور محمد لصرف العقاقير أنه يفحص كل حالة بدقة، فقالت:

- «معنى هذا أننا لن نغادر العيادة قبل الرابعة بعد الظهر».

- «كيف؟».

- «لو أخذ كل مريض دقيقتين فى فحصه لاحتجنا إلى ست ساعات كاملة».

- «وماذا ترين أن أفعل؟».

- الشغل هنا يا دكتور تسديد خانات.. لا داعى لاستعمال السماعة فى كل حالة: إن وراءنا عملاً آخر.. تضميد الجروح، العمليات الصغيرة، علاج القسم الداخلى، مكتب الصحة، الكشف على الحوامل، كل هذا يحتاج إلى وقت طويل.

وأصر الدكتور محمد على خطته فى العمل، إنه لا يستطيع أن يكذب على الناس، ويخدع ضميره، الواجب يقتضى أن يفحص المريض كما يجب، والواجب أيضًا يحتم عليه أن يعاملهم على قدم المساواة حتى لا يدع فرصة للتفرقة.. فيكون هناك طائفتان: طائفة تدفع المال وتأخذ حقها، وطائفة أخرى فقيرة لا تستطيع أن تدفع شيئًا فتعامل بطريقة سريعة ولا تنال كفايتها من الفحص والعلاج،

ولعلها فى أمس الحاجة إلى مزيد من العناية، أكثر من الطائفة الأولى.

وعندما بلغت الساعة الثانية بعد الظهر قالت «كاميليا»:

- «أعتقد أن هذا يكفى».

وقال التومرجى الواقف على الباب:

- «من العدل أن نذهب لتناول الغذاء».

وقال مريض يقف على الباب:

- «ونحن لن نترك أماكننا قبل أن نفحص ونأخذ علاجنا».

وشعر الدكتور محمد بشىء من الارتباك، الوقت قد تأخر والمرضى لم يتم فحصهم. والشغالة يعتذرون عن العمل؛ لأن لهم مواعيدهم الرسمية، ويسيل العرق على وجهه ويشعل سيجارة جديدة، ويقول فى حزم لبق:

- «بعد قليل سوف ننهى عملنا.. انتظرى يا كاميليا.. والواقف بالباب لا يصح أن يغادره».

ومن باب جانبى أطل موريس بوجهه المحتقن الذى بان فيه الامتعاض والضيق:

- «لقد تأخرنا كثيراً».

ومن خلفه انبعث صوت خافت:

- «الغربال الجديد له شَدة» .

وعلم الجميع من أهل القرية ، أن الطبيب الجديد ظل يعمل حتى الرابعة ، وأنه تعفف عن الأجر فى الفحص الخاص ، وأنه أمين فى فحصه ، بارع فى فنه ، وأنه أحدث بالمستشفى تغيراً كبيراً .

وأنه أثار فيها جدالاً طويلاً ومناقشات حادة ، منهم من رماه بالسذاجة وعدم الخبرة فى أمور الناس والحياة ، ومنهم من أثنى على مثاليته ، وكال له المديح والدعاء ، وطائفة ثالثة رأت أنه ليس من اليسير الحكم عليه من خلال أيام قليلة . أما الدكتور موريس فقد لعب «الفأر فى عبه» وتململ فى حنق ، بعد أن تبين له أن إيراده اليومى قد انخفض إلى السدس أو أقل ، فقد تحول عدد ممن يؤثرون دفع المال ليشتروا العناية الطبية إلى الطبيب الجديد ثقة فيه ، وتوفيراً لمالهم أيضًا .

وكان عم صادق يلحظ تجربة ابنه من بعيد بقلب واجف ونفس مضطربة ، إنه لا ينكر - بينه وبين نفسه - أنه دفع بابنه إلى كلية الطب لأن خريجها لامع المستقبل ، كثير الموارد ، ولا ينكر أنه حلم الليالى الطوال بالمال الكثير الذى سوف يحصل عليه ابنه بل أنه فكر فى الأفدنة الكثيرة التى سوف يشتريها ، فتتسع رقعة أرضه ، ويصبح من الأثرياء ، يصبح صاحب «عزبة» ، والحق أن عم صادق قد وجد صعوبة كبرى فى الإيمان بما ينوى ابنه أن يفعله . إنه لا يكاد يصدق أن محمد سيقنع بمرتب ثلاثين جنيهًا فى الشهر . إن موريس يحصل على مثل هذا المبلغ فى أسبوع واحد من عمله الخارجى ، أما كان

الأسهل عليه أن يدفع به إلى كلية الحقوق أو الآداب مثلاً؟؟ وطوال الطريق من المستشفى إلى البيت كان عم صادق يمشى مطأطئ الرأس، غارقًا فى التفكير حتى أذنيه ولكن شيئًا رائعًا قد أسعده وكلمات بسيطة قد أدخلت السكينة إلى قلبه، ونفت عنه نوازع الطمع، وأحلام الضيعة الواسعة والثراء الفاحش. كانت الدعوات تتصاعد على جانبى الطريق لابنه البار العفيف الذى يضحى بالكثير من أجل خدمة أهالى قريته. النسوة يدعون له بطول العمر، والرجال يرفعون أكف الضراعة بأن يسترها معه دنيا وآخرة، ويثيبه خير الجزاء، شىء رائع أن تطلق ألسنة الخلق هاتفة باسم إنسان، داعين له بالتوفيق والسداد، وجاء شيخ واقترب من الدكتور محمد، وكان يتوكأ على عصاه ويسير فى بطء لاهث الأنفاس:

- «بارك الله فيك يا بنى، لكنك ستقاسى الأهوال...».

- «ربنا هو المعين».

- «أجل.. هذا حق.. لكن أهل القرية لا يرحمون».

غير أن محمد يشعر بمذاق حلو لحياته الجديدة. كان متعبًا مكدودًا. لكن ينابيع فياضة من الثقة والإيمان كانت تنفجر فى نفسه وروحه المعنوية أقوى ما تكون. أحس بما يشبه الدوار. غير أنه استند إلى حائط جواره وابتسم، ابتسم ابتسامة صافية نابعة من أعماقه، كان عملاً مرهقًا حقًا، لكنه انتهى على وجه مرض رائع. فارتاح ضميره، وهذا أعظم مكافأة.

ooo

الفصل الثالث

أصلحت «كاميليا» من هندامها، وأعادت خصلة شعر نافرة إلى مكانها من رأسها، وتلفتت يمينًا وشمالاً، ثم دلفت مسرعة إلى حجرة كاتب المستشفى وهو شاب فى العشرين، فوجدته منحنيًا على بعض الاستمارات يحررها فى انهماك، فوقفت أمامه وضربت الأرض بأحد قدميها، وهتفت:

- «انتباه..».

ورفع إليها سعيد سلطان عينين باسمتين، وغمغم وهو يتمطى فى كسل ويتثاءب:

- «أفندم».

قالت «كاميليا» وهى تسحب كرسيًا وتجلس عليه:

- «ما الذى أبقاك حتى هذا الوقت؟».

- «خفت أن أنصرف قبل أن تنتهى من عملك فأرتكب مخالفة».

فقالت «كاميليا» وهى تضحك:

- «حسبتك أصبت بنوبة إخلاص مثل طبيبنا الجديد».

- «لن أصاب إلا بنوبة حب. . ».

فقالت متصنعة الوقار:

- «احتشم وإلا. . .»

- «أنا لا أخاف. . لو كنت أخاف لسمعت كلام الدكتور موريس عندما أصدر إليّ أمراً بعدم استقبالك في مكتبي. . .».

- «أعرفك. . . شهم من يومك. . ومع ذلك فإن أعصابك تنهار عندما يكتب تقاريرك السرية. . . أنسيت. . . . ؟؟».

وقاسها سعيد بنظراته، كان غريبًا عن القرية مثلها، وكان يشعر أنها ملأت غربته، لشد ما كانت لياليه مقفرة قبل مجيئها، إن مجرد رؤيتها ينعش قلبه، وينسيه البعد الذي يفصل بينه وبين أهله وجلوسها إلى جواره ممتع للغاية، لم يعد يفكر في الفرار يومي الخميس والجمعة منذ أن جاءت، شبابه الظامئ يشعر إلى جوارها بالري والهدوء المشتعل وأفاق لنفسه على التو، وتذكر عبارتها الأخيرة، فتمتم:

- «أعرف أن بنات إسكندرية مشاغبات».

- «ولا يكترثن للجزاءات ولا التقارير السرية. . ثم إن الدكتور موريس لا يخافه أحد، إنه رجل يشعر بنقائصه ويعيش على المخالفات والحرام، وإذا كان بيتك من زجاج. . .»

فأردف سعيد سلطان قائلاً:

- «فلا تقذف الناس بالأحجار. . .».

وسادت فترة صمت قالت «كاميليا» بعدها:

- «موريس أمره سهل، أما الدكتور الجديد. . .».

- «ماله؟».

- «سيورثنى الجنون. . .».

- «لكنه رجل. . .».

- «وهذا ما يعذبنى. . إنه يحترق يا سعيد. . . أسبوع كامل وهو مُصرٌّ على خطته. . . إنه يحترق ونحن نحترق معه، فكرت أن أثور فى وجهه وأقذف بالدواء، وأترك العيادة، لكنى لا أستطيع، إنه يكلفنا فوق ما نطيق، ومع ذلك أجدنى مستسلمة. . أتدرى لماذا؟».

- «لماذا؟؟».

- «إنه لا يريد شيئًا لنفسه. . يذوب من أجل الآخرين. . إخلاص لم أكن أتصوره، أسبوع كامل وأنا أحصى حركاته، وسكناته، لم آخذ عليه إلا تفانيه الجنونى. . إنى مجبرة على احترامه وحبه، لكنى متعبة. . متعبة جداً وهذا ما يحيرنى. . تصور. . لو مدّ يده ووافق على أن يكون الفحص مقابل أجر لغرق فى المال. . الدنيا يا ما فيها. . موريس هو الآخر سيجن لقد أخذ

عطلة أسبوعين وسيسافر غداً . . إنه على أتون ملتهب ولا يعرف كيف يتصرف . . . » .

قال سعيد وهو يجمع أوراقه مزمعًا الذهاب لتناول غدائه :

- «وأنت؟ ألا تفكرين فى عطلة يومين؟؟» .

- «لماذا؟» .

- «لأنى سأفعل ذلك . . » .

- «وما شأنى بك»؟

- «حينما أقضى عطلتى وحدى أشعر بألا طعم لها . . . »

- «اخرس يا لئيم . . . » .

- «والنبى . . . . » .

- «نبى يسخطك . . . » .

قالت «كاميليا» وهى تهم بالوقوف هى الأخرى :

- «ألم يأتِ مرتبنا؟» .

- «لماذا تهربين؟» .

- «أنا فلّست . . . » .

- «فلوسى تحت أمرك . . . » .

- «يا جربوع . . . . » .

- «يا روحى. . . والنبى أعد. . .».

فامتدت يدها واختطفت ورقة كربون مستعملة وحكتها فى وجهه الأسمر ذى البثرات وهو يكتم ضحكاته، مستقبلاً عبثها فى استسلام تام، ثم قذفته بالورقة وخرجت مسرعة، وقد سمعت وقع أقدام فهتف:

- «إلى أين؟».

- «إلى النوم؟».

- «وأنا؟».

- «سأتركك على نار. . .». . ثم التفتت إليه فجأة، وقالت:

- «هات ربع جنيه بسرعة. . .».

تناولت «كاميليا» منه القروش ثم دستها فى جيبها على الفور والخجل يخالط حركاتها، وكانت وهى تخطو إلى السلم قاصدة مسكن الحكيمات، غائبة عما حولها، لم تستطع أن تنسى أسرتها الفقيرة، وأمها التى تربو على الخمسين، وأخاها الشيال بالميناء، وأخويها الصغيرين والمسكن المتهالك المتواضع فى حى «بحرى»، وضيق ذات اليد الذى يلازمها منذ فجر نشأتها حتى الآن، لطالما حلمت بحياة أفضل، لكن مرتبها الضئيل لم يلبس أحلامها ثوب الحقيقة، وأملت يومًا أن تتزوج رجلاً ثريًا تعطيه الشباب والجمال والمتعة وتأخذ منه المال، لكن هذا الرجل لم يأتِ بعد، لم يحم

حولها غير فقراء مثلها، ابن خالها ترزى صغير، ابن الجيران عامل بسيط بشركة «سباهى»، سعيد سلطان كاتب المستشفى، كلهم بلا رصيد، وإن كان سعيد شابًا ظريفًا مقبولاً وذا مستقبل وقلبها يميل إليه، لكنها مع ذلك لا تفهمه، كما تشتهى، فى نظراته حنان، تستشفُ من كلماته الميل إليها، وتلحظ فى تحركاته الاهتمام بها، لكن هل هذا معناه الرغبة فى الارتباط الدائم أم أنه مجرد تسلية، وإشباع رغبات كامنة فى قلبه؟؟ لقد أقسمت ألا تعطى قلبها إلا لمن يتوسل ويؤكد حبه بيقين لا شك فيه، بعد أن يئست من مجىء الزوج الثرى، وهى الآن تتلفت حولها، لا جديد فى حياتها. . . هى كما هى منذ سنوات، وأتعس كثيراً عن ذى قبل، كلمات الإعجاب والثناء تطاردها، وعبارات الغزل تطرب أذنيها، وأطياف الحب تداعب أحلامها وخيالها، وليال سوداء فى الماضى تورثها الرعب، وأسرار مجهولة تطويها فى قلبها وتؤرقها، أما الزواج فإنه لم يزل بعيداً والمسئوليات المعيشية تأخذ بخناقها، ومع هذا الأسى والضيق تشعر أن كيانها يلتهب، إن فى قلبها أشواقًا عارمة، تشتهى الرجل والمتعة والانطلاق دائمًا، وهى بالاختصار تشعر بالحرمان من كل شىء رغم أن كل شىء بين يديها.

وعندما بلغت المسكن، وأدارت نظراتها فيه، وجدت الأسرة الخمسة متراصة، يكاد كل سرير يلاصق الآخر، وقليل من العتمة يوشحها بظلال مكتئبة، وزميلاتها الأربع -الحكيمة ومساعدات المولدات الثلاث- كل واحدة على سريرها، كانت واحدة منهن -

زكية- ضخمة الجثة ينبعث غطيطها مزعجًا لا يدع فرصة لإحداهن كى تنام، وكانت زميلتها الثانية المطلقة منذ سنوات «هدى» تستلقى مفجعة على سريرها نصف مضجعة، تسند مؤخرة رأسها على كفيها، وعيناها تحملقان فى لا شىء، وكأنها تجوب ماضيها الذاهب فى خطوات تعسة، والحكيمة تتصفح مجلة «حواء» وعلامات التبرم ترتسم على وجهها، والرابعة تقضى وقتها فى أشغال التريكو، ثم حانت منها التفاتة إلى العبارة المكتوبة بالطباشير على أحد الجدران والتى تقول: «هنا سجن العانسات» فابتسمت على الرغم منها، وتمتمت «ترى متى يتم الإفراج عنا؟». . فأردفت الزميلة المطلقة قائلة:

- «فى العنب. . . ».

- «قريبًا يا روحى. . . غصبًا عن بذرة عينك. . . ».

- «سجننا مؤبد. . . ».

- «أما أنا فسجنى مع إيقاف التنفيذ. . . ».

- «يخدعونك يا مسكينة. . . ».

- «أنا واثقة. . ».

- «وتكذبين على نفسك. . . بعيد عن شنبك. . . ».

وهنا هبت الزميلة الضخمة الجثة «زكية» من سريرها والشرر يتطاير من عينيها، وصرخت فى حنق:

- «أتحسبوننى نائمة يا أوباش. . . . لا داعى لقلة الأدب وإلا . . . وأدركت «كاميليا» ما تورطت فيه من خطأ . . إن زميلتهن «زكية» مصابة باضطراب هرمونى يسبب لها نمو شاربها وبعض الشعيرات فى ذقنها . وقد تعبت فى البحث عن علاج حاسم دون جدوى لم تجد مفراً سوى أن تتخلص من الشعر من آن لآخر بطريقة ما ، وكان هذا الأمر يؤلم نفسها ، ويرهق أعصابها وتتصور أن كل الناس يعرفون مأساتها ويحملقون فى شاربها وذقنها كلما سارت فى ردهات المستشفى ، وعندما سمعت زميلتها تقول «بعيد عن شنبك» ظنت أنها تعرض بها ، فانفجرت غاضبة ، فسارعت «كاميليا» قائلة :

- «اللهم اكفنا شرك . . » .

- «اخرسى . . . » .

- «أبلغت بك الوقاحة إلىّ . . . » .

ثم انقضت على «زكية» وأمسكت بشعرها بينما قبضت «زكية» على عنقها وتبودلت اللكمات والصفعات فى لحظات وسرعان ما هرولت هدى المطلقة وتلك التى كانت . دائبة فى أشغال التريكو والحكيمة هى الأخرى ، أسرعت لتخليصهما ، وقبل أن تبلغ ما تريد كانت «زكية» قد أهوت على كتف «كاميليا» وعضتها ، فصرخت بأعلى صوتها ، وساد اللغط والضجيج ، وفى دقيقة واحدة كان سكن الحكيمات غاصًا بالمرضى والتومرجية ، وما إن استطاع

المتجمهرون تخلصيهما حتى خرّت «كاميليا» فى نوبة تشنجية تعاودها من آن لآخر ، فتصلب جسدها وسال الزبد من فمها ، وصدرت عنها أصوات مميزة ، وبين أسف الموجودين وذهولهم كان سعيد سلطان يشق الطريق إليها ، فأدرك على الفور ما حدث ، فتقدم صوب «زكية» وصفعها فعادت الضجة من جديد ، حتى أتى الدكتور موريس .

وفى مكتب الطبيب قال الدكتور موريس للدكتور محمد :

- «أرجو ألا تتضايق بما حدث . . هذا شيء مألوف . . .» .

- «لكن . . . لماذا يفعلن هذا . . . ؟» .

- «سنة الحياة يا صديقى . . .» .

فقال الدكتور محمد :

- «أعتقد أنهن لا يفعلن ذلك إلا لتعاستهن . . .» فانفجر موريس ضاحكًا ، ثم قال :

- «على النقيض تمامًا مما تقول . . . أنهن هكذا . . . لا يفعلن ذلك إلا لفراغهن وتفاهة عقولهن . . إنهن أسعد منا يا صديقى . . يعشن بلا مسئوليات . . بلا أولاد . . . . الشغب طبيعة النساء . .» .

- «أتعتقد أنهن يسعين لفضيحتهن؟» .

- «عقول قذرة . . . .» .

- «معذورات . . .» .

- «لا يهم. . كل ما أريد هو أن أجرى معهن تحقيقًا رسميًا وأقترح لهن الجزاء المناسب لدى المنطقة الطبية».

- «ولماذا لا تعقد بينهن صلحًا»؟

- «ستتكرر المأساة. . ويفلت الزمام. . ويضطرب نظام العمل. . .».

- «ولكن ماذا. . . .».

- «أعنى. . . .».

- «دكتور محمد. . . دعنى أتصرف، هؤلاء الفاجرات يستحققن قطع رقابهن. . . صنف الحكيمات والممرضات صنف أقل ما يوصف به الفجور».

وأطرق محمد صامتًا فى أسى، هذا الجفاف فى المعاملة، وتلك النفوس الثائرة، والأجواء المكفهرة المتضارعة، شىء يؤسف له، وبان الضيق والألم فى عينيه، و كان موريس يلحظ كل ذلك من خلف نظارته فاستطرد يقول:

- «لا تتضايق. . سترى من هذا الكثير، ليس المرضى وحدهم. . هم المشكلة. . بل هيئة العمل وصلاتها مشكلة أخرى معقدة، ولكى أطمئنك أحيطك علمًا بأنى سأجرى التحقيق ولن أبلغه للمنطقة، ولكنى سأحتفظ به فى جيبى كسلاح للتهديد مستقبلاً. سأذلهن به. . هل هذا يرضيك»؟. .

- «هذا أرحم من اقتراح العقاب المادى. . . ».

- «أرحم. . . أقسى. . . هذا لا يهم. . . ».

وفى المساء كانت كل فتاة على سريرها منطوية على نفسها، وجو الكآبة والصمت يسود المكان، ودموع قلقة تأبى أن تجف، وقلوب واجفة تخفق فى أسى، وأشواق حائرة مرتجفة تتصارع كسيوف المتحاربين فى ميدان قتال.

●●●

الفصل الرابع

لم يكن لدى موريس رغبة حقيقية لتناول طعام العشاء الخفيف، كان الطعام على المائدة لا يثير أدنى شهية، كل شيء بارد برغم حرارة الجو، الجبن والزيتون والفاكهة، فقد أخرجتها زوجته لتوها من الثلاجة، وأمسك موريس بسكين أنيقة لامعة، وأخذ يجعل من قطعة الجبن الكبيرة قطعًا صغيرة، إن يده تتحرك دون هدف أو رغبة، وغضون جبهته وانطباق فمه يعبران تمام التعبير عن عمق تفكيره، وشدة قلقه، كان يعيش في «الفيلا» التي يسكنها كقيصر صغير، ما يقرب من أهالي عشرين قرية كانوا يشدون إليه الرحال حاملين مرضاهم، وليس لهم هدف سوى أن يتخلصوا من آلامهم، وموريس دائمًا كان يستغل حاجة المعذبين إلى الراحة، فلا يقدم خدماته الطبية إلا بمقابل، لم يتعود الإحسان، ولم يفكر يومًا في القانون وفي أنه طبيب متفرغ يعالج الناس بالمجان، في تلك المنطقة النائية البعيدة عن العمران.. العسرة المواصلات، المزدحمة بالسكان.

ثم مرت السنون وهو على هذه الحال، قيصر صغير، ورصيده في البنك يربو دائمًا وإمعانه في خطته لا يتردد، لا يفرق في معاملته

بين الصديق وغير الصديق، القاعدة الوحيدة التى يسير عليها «من يدفع يكرم وينال الرعاية» ولطول عهده بهذا السلوك أصبح أمرًا مشروعًا، أصبح حقًا له من يحاول أن يعترضه كان مجترءًا ظالمًا، ثم جاءه «الدكتور محمد صادق». . يا للمفاجأة المحزنة. . جاء يحمل فى جعبته التبشير برسالة جديدة. . هذا المأفون يريد أن يكون عالمًا وسط هؤلاء الجهلاء، ويريد أن يحطم العرف السائد طول الدهر، أيعتقد هذا المجنون أن ثلاثين جنيهًا تكفى كمرتب؟ ثم أيظن نفسه قادرًا عل المضى فى سياسته تلك حتى النهاية؟؟ أم أنها خدعة يستميل بها قلوب الناس ويجمعهم من حوله حتى يستولى على مشاعرهم ويحوز ثقتهم التامة ويبعدنى من هنا، ويبقى هو وحده السيد الآمر ويسكن فى الفيلا كقيصر صغير، وينسى أنه نبى مزعوم وأنه صاحب مبدأ ورسالة. . . وينسى الناس رسالته ثم يأتى المتألمون والمعذبون ولا يفكرون فى شيء سوى أن يتخففوا من آلامهم، ويدفعوا كل ما يطلب منهم. . تمامًا كما يفعلون معى وكما يفعل جميع المرضى مع مختلف الأطباء فى آلاف القرى؟؟

وأفاق الدكتور موريس من أحلامه الهادرة على خطوات زوجه التى قدمت وهى تهدهد طفلتها الصغيرة الوحيدة، وانتفض عندما تناهى إلى سمعه وقع خطواتها. . . لماذا انتفض؟ لا يدرى. . كل ما شعر به هو أنه يرتكب شيئًا. . يأتى شيئًا محرمًا. . وقطعة الجبن تفتت فى الطبق وجاءه صوتها من خلفه. .

- «ألم تبدأ فى تناول الطعام بعد؟».

- قال موريس فى شرود :

- «إنى أنتظرك» .

- «تنتظرنى أنا؟ غريب؟ إنك تأتى من المستشفى دائمًا جائعًا نهمًا، وتخطف الطعام من الفرن، وتسرقه من الثلاجة لا تستطيع الانتظار، فماذا حدث لك الليلة ؟ رقة تحسد عليها . . .» .

لم يجب موريس، كانت كلماتها تتساقط دبر أذنيه، وتيار خفى يسرى فى جسده فترتعش أنامله، ودققت «أم لولا» النظر فى وجهه وكان ممتقعًا مكفهرًا، وهتفت فى قلق :

- «ما بك يا موريس؟ . .» .

- «هذا الصعلوك ابن الـ . . . . .» .

- «مَنْ؟؟» .

فقال مستطردًا :

- «أجلس معه وشعور لا يفارقنى بأنى لص . . .» .

- «مَنْ؟؟» .

فلم يلتفت إليها بل تمادى :

- «وأسير إلى جواره وكأنه رئيس المجلس وأنا لا شىء . .» .

- «قلت لك مَنْ؟؟» .

ولم يتوقف ولكنه تدفق فى انفعالاته :

- «والناس لا يعتبرونه مجرد طبيب.. هو فى نظرهم طبيب وولى من أولياء الله الصالحين... دخل عليه أحد المرضى اليوم وهو يردد: الله أكبر.. الله أكبر.. رأيتك فى منامى على جواد أبيض وحولك النور والبركات ووجهك مشرق والدنيا كلها تغنى... وصحوت من نومى وأنا مبهور فجئت إليك.. هذا ما يزعمون...».

وأطرقت أم «لولا» هنيهة بعد أن فهمت ما يرمى إليه زوجها، وقالت فى حنق آلمها ما يكرب زوجها:

- جواد أبيض!!

- أجل.. جواد أبيض، وأبوه «عم صادق» يركب «حمارة» عرجاء... ولا يركب السيارة إلا فى المناسبات... هكذا دائمًا كل محدث نعمة... يحاول أن يشذ ويأتى من التصرفات ما يثير الضحك ويثير الضيق.. أما كان من الأوفق لمثل هذا المأفون أن يكون فلاحًا كأبيه.. أو درويشًا ضمن المجاذيب؟؟ لقد أحال المستشفى إلى سوق... والكارثة أنه ملأ أسرة القسم الداخلى كلها...».

فقالت زوجه فى قلق:

- «دون أن يأخذ جنيهًا من كل واحد...».

- «دون أن يأخذ مليمًا...».

- «أنت تكذب يا موريس . . لا بد أن له يدًا خفية تقبض الثمن سرًا . . لو أقسمت لى بالمسيح مليون مرة فلن أصدق ولا يمكن أن أتصور هذا . . . » .

قال موريس وهو يضحك فى يأس :

- «لا . . . . تصورى كل ما يخطر على بالك . . . ؟

ودس فى فمه لقمة صغيرة من الخبز ثم أتبعها جبن حملها على طرف السكين وغمغم وهو يلوكها :

- «ليت الأمر وقف عند هذا الحد . . إنه لا يأخذ من المرضى فحسب ، بل يعطيهم من جيبه . . » .

- «العجيب أن مرتبه محدود . . وصاحب أسرة ومسئوليات . . أبوه كما نعلم فقير . . ودخله بهذا لا يكفى . . » .

- «له بعض المؤلفات التى تدر عليه قدرًا من المال . . إنه يمارس الكتابة كهواية ويزعم أنه دائمًا صاحب وجهة نظر . . ويكثر من الحديث فى أشياء كثيرة عن الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والفن . . طبيب لا أدرى! كاتب لا أدرى! درويش لا أدرى! المهم أن الله قذف إلينا بمصيبة والسلام . . ولهذا أفكر . . أعنى أفكر فى الانتقال من هذا المستشفى إلى مكان آخر ، فإن دخلى هذا الأسبوع قد هبط إلى الصفر» .

فضربت «أم لولا» على المنضدة بقبضة يدها ، وبرقت عيناها كعينى «قطة» شرسة ، وقالت محتدة :

- «الانتقال؟ كيف؟».

- «حتى لا نفقد كل شيء. . .».

- «أنت جبان. .».

- «أم لولا. .».

- «لا يرضى الهزيمة إلا رعديد، أنت تترك كنزًا ثمينًا وتفر. . إن محمدًا دخيل علينا. . طبيب جديد. . ساذج. . من السهل ضربه فى الصميم. . يجب أن تكون لئيمًا».

- «لكنه بين أهله. .».

- «لا يهم. . .».

- «ولم يخطئ فى حقنا يا أم لولا».

- «بل خرّب بيتنا. .».

- «ثم إنه رجل فاضل».

- «ليكن. .».

فقال موريس وهو يرشف الماء من كوب أمامه:

- «ليس بى أدنى رغبة للصراع هنا. . .».

- «مرة ثالثة أرميك بالجبن. . .».

- «أنت تفكرين بعاطفتك».

فقالت وقد هبت واقفة وأخذت تربت على ظهر ابنتها التى تبكى:

- «وماذا يقول الناس عنا..؟ يقولون الدكتور محمد «زفت» قهر موريس، وزوجة محمد بقيت على عرش الوحدة المجمعة.. أم لولا.. أم لولا.. فرت مخذولة؟؟ وهيبتنا هنا ستلتصق بالتراب ويصبح تومرجية الوحدة وموظفوها والإخصائى الاجتماعى وزوجه والناظر والست حرمه، يصبح الجميع شامتين ساخرين...».

ثم وضعت الصغيرة على المنضدة وهدرت قائلة:

- «أقسم بشرفى ألا أترك هذا المكان قبل أن أزحزح الدكتور محمد عنه، أو أدعه ينهار فوق رأسه..»، وتطلع موريس إلى زوجته الثائرة ووجهها الأشقر المحتقن.. وعينيها الجميلتين القاهرتين برغم الغضب، وشعر بأنه يذوب.. يذوب فى شخصيتها الآمرة المسيطرة، ويتلاشى أمام بريق عينيها وعزيمتها الصلبة التى لا تلين.. فاستسلم تمامًا، وتمتم:

- «وكيف ذلك يا حبيبتى...؟».

- «لنسحب مبلغًا من رصيدنا فى البنك..».

- «لماذا؟».

- «لكن.. لا.. جاءتنى فكرة رائعة.. لن ندفع رشوة لكى ننقله من هنا.. بل يكفى أن نقطع «المدد» عن المفتش (س) بالمنطقة

الطبية . . أنت تعطيه خمسة عشر جنيهًا فى الشهر كى يحميك منه . . أليس كذلك؟؟ لا تدفع له شيئًا قل له : إن الدكتور محمد قضى على مكاسبى . . ثم لا مانع من أن تقدم له هدية ثمينة بمناسبة . . ؟ أية مناسبة . . المهم أن ندير المعركة من بعيد . . قواعدنا الحربية فى المدينة والضحايا هنا، ولن يشعر أحد فى القرية بشىء، وحتى لو شعروا بأننا استطعنا نقله، فلن يضرنا ذلك . . بل ستزداد هيبتنا، وسيؤمن الجميع بأننا قوة لا يزعزعها أى شىء . . وعند ذلك يقهر محمد، وتندحر زوجه، وتبقى مملكتنا الصغيرة هادئة وادعة لا يزعجنا فيها علماء ولا حملة رسالات، وقطعًا ستهدأ العاصفة تمامًا وينسى الناس الدكتور محمد، ولن يذكرا سوى اليد التى تمسح عن جراحهم، وتخفف آلامهم . . يد موريس حبيبى . . . » .

ثم اقتربت منه وبشفتين ملتهبتين انحنت على فمه وقبلته وهو شارد، ثم اعتدلت من جديد وقد بان الغضب فى عينيها محتجة على أنه لم يستقبل قبلة زوجه بما تستحقه من انفعال واهتمام .

فابتسم موريس وعاود الكرة بانفعال أشد، كان كمن يحاول أن ينسى قلق حياته بالغوص فى أعماق النشوة . وبعد لحظة صمت . . غمغمت «أم لولا» :

- «أنت صاحب حق يا حبيبى ولا ينبغى أن تنام عنه» .

وطنت عبارة «صاحب حق» فى رأسه وأخذ صداها يجول بين أرجاء نفسه المضطربة، هل صحيح أنه هو صاحب حق أم الدكتور

محمد؟ أيهما حق -أن يخدم الناس ويأخذ ثمن خدمته بصرف النظر عن اللوائح، أم يخدم ويبذل جهده وعرقه بلا ثمن؟ . . إن من يأخذ بضاعته صاحب حق، ومن يقدمها صدقة صاحب حق، المبررات كثيرة، والتعليلات لا حصر لها، والحكومة لا تعطى مرتبًا كافيًا، وموريس كطبيب تحت الاستدعاء أربعًا وعشرين ساعة ليلاً ونهارًا، وثلاثون جنيهًا من الحكومة لا تكفى ثمنًا لهذا الجهد . . أوه . . أين الحق؟ ومن صاحب الحق؟ وتدور رأس موريس ويثور الضجيج فى رأسه ويوشك أن يوقعه النوم فى حبائله، وتقول زوجته وهو يسمعها وكأنه فى حلم:

- «أجل أنت صاحب حق، ولا يزعزع ثقتك بحقك أن غيرك - مثل الدكتور محمد- يتنازل عن حقه».

وغمغم وهو يتثاءب:

- «فعلاً . . أنا صاحب حق . . على الأقل فى أن أنام . . ».

●●●

الفصل الخامس

حينما عادت «كاميليا» من سفرها بعد عطلة الخميس والجمعة، كانت تبدو منهكة، لا بسبب الكيلومترين اللذين تقطعهما سيراً على الأقدام بعد نزولها من عربة الأجرة، بل من أجل أشياء أخرى.. تطويها فى صدرها ومع ذلك كانت تبتسم، لكى تنتصر على أساها، لا بد أن تسخر من كل شىء؛ ثم لماذا لا تبتسم وقد استطاعت أن ترسل لأخويها الطفلين مبلغًا من المال، صحيح أنها كانت فى حاجة إلى جورب جديد بعد أن بلى جوربها، وهذا شىء مهم بالنسبة لفتاة تمشى دائمًا عارية الساقين فى مجتمع يظل ينظر إليها وبين زميلات يلقين التعليقات الهامسة والعلنية بمناسبة وبغير مناسبة، ومع ذلك فهى تحمد الله أن استطاعت أن تؤدى واجبها نحو بيتها.

ودخلت الحجرة التى يشغلها سعيد سلطان، فوجدته خلف مكتبه، والأوراق متكدسة أمامه، وقلمه يجرى على الصفحات البيضاء، الحق أنها عندما رأته شعرت براحة من نوع خاص تلامس قلبها، لكأنما كانت تحمل عبئًا كبيراً تنوء تحت ثقله، وإذا به يرفع

عنها أكثره، أو لكأنها كانت وهى تسير فى الطريق المترب، تتلظى بلفح الشمس، ثم واتتها نسمة رطبة منعشة، فردت إليها الروح.

- «صباح الخير يا سعيد. .» ومدت يدها تصافحه، وتحامل على نفسه. . مد يده، وعندما انتهت المصافحة، لم تستشعر فيها حرارة اللقاء كالمعتاد، وكأنها كانت تقبض على يد من خشب، ولم يفتها ظلال الشحوب التى تضفى خطوطها على ملامحه، لا يمكن أن يكون سعيد سلطان بحالة طبيعة، هذا ما رجحته، وهى تسحب المقعد وتجلس لاهثة الأنفاس.

وقال سعيد دون أن يرفع عينيه عن الورق:

- «أين كنت؟».

قالها بصوت جريح، فيه رنة الهزيمة، وحنق الضياع، فبادرت قائلة دون أن تتنبه لمقصده:

- «فى الإسكندرية. .» وصمتت لحظة، ثم استطردت:

- «لم هذا السؤال؟ أنت تعلم أنى سافرت إلى أهلى. .».

وضغط سعيد على أسنانه مخافة أن يصدر عنه ما يشين، وهمس فى نبرات كالفحيح:

- «إما أنى مغفل أو أنك كاذبة، ووضعنا فى كلا الحالين يدعو إلى التعاسة والمرارة».

وضاق صدر «كاميليا» كل شىء مثير لحولها، تريد أن تفرح

وتنطلق وتتحرر من كل ما يحزن، لكنها كالأعمى المقعد، وثارت في داخلها نزعة تمرد، فقالت :

- «لست كاذبة . . » .

- «إذن فأنا مغفل . . » .

- «لم أقل ذلك . . » .

- «لكنك قلت إنك ذاهبة إلى الإسكندرية في الوقت الذي كنت فيه تمرحين في طنطا . . رآك أخي بعيني رأسه . . » .

وأدركت على التو أنها أمام ابن العشرين الذي يغار ويتصرف بحماقة أحيانًا، تلهبه الأشواق الغامضة، والانفعالات المتضاربة، ثم قالت :

- «أمرك عجيب !! وماذا في ذلك؟ طنطا . . إسكندرية، ماذا يهمك؟» .

قال سعيد وهو يضحك في هيستريا :

- «كلا . . لا شأن لي بالأمر إطلاقًا . . لكنه مجرد سؤال عابر، إن ما أزعجني هو أنك تكذبين . . » .

- «وأنت أيضًا تكذب . . » .

- «كيف؟» .

- «تزعم أن الأمر لا يعنيك، وأنه مجرد سؤال عابر . . كلانا كاذب، هل استرحت؟ . . » .

وتركته غاضبًا . . وبقى هو على مكتبه كغريق يصارع دوامة ، لماذا كذبت عليه؟ ولماذا لم تحاول تبرير موقفها؟ والغريب أنها تتكلم بثقة واطمئنان عجيب ، لو قالت له إننى كنت فى الإسكندرية لصدقها وكذب أخاه ، لكنها تركته هكذا ، بلا تحديد ولا تبرير ، الإسكندرية أو طنطا عندها سيان ، الكذب والصدق قد يكونان أيضًا سيان ، الكراهية والحب لا يفترقان ، لدى كاميليا يتشابه النقيضان .

- «لكن هذا جنون وفوضى ، لو كانت «كاميليا» مثل زكية ، ولو كان الدكتور محمد لا يختلف عن الدكتور موريس ، لكان كل شيء بلا معنى ، ولا ما كان هناك موجب للصراع والإنشاء ، ولكانت «كاميليا» وزكية وهدى لدىَّ سيان» . . وأخيرًا بعد طول شرود ، غمغم بينه وبين نفسه :

- «استطاعت اللئيمة أن تثبت أن اهتمامى بها ليس مبرأ . . اهتمام يشويه الرغبة والهوى ، أرادت أن تجعلنى أعترف بالحب . . فلتذهب إلى جهنم ، فأنا لا أحب كاذبة . . لا أحب امرأة أجهل ظاهرها وباطنها . . سألقاها بهدوء واستهتار ، ولن أسأل أين ذهبت ومتى جاءت ، وهل صدقت أو كذبت . . » .

وفى هذه اللحظة مرت «كاميليا» أمام باب المكتب ، وهى تدندن بأغنية شائعة ، فاسترق سعيد إليها النظر ، ثم عول على تجاهلها تمامًا ، ومع اعتصامه بالصمت إلا أن قلبه كان يدق . . يدق كقبضة حديدية داخل صندوق من ورق .

والتقت «كاميليا» بزكية وهى فى طريقها إلى العمل بعد أن ارتدت معطفها الأبيض، واستقبلتها «زكية» بالترحاب والشوق، لقد نسيت تمامًا معركة الأمس القريب، وذابت كل الأحقاد الصغيرة، وتتابعت استفسارات زكية عن سر تأخر «كاميليا» وأين قضت اليومين، وسألتها عن العشاق والمعجبين والأقارب والخطيب نمرة عشرة، وكانت ضحكاتها ترن فى الممشى، وتجذب إليها التفات المرضى المتراصين فى الاستراحة، ودخلت «كاميليا» بعدها حجرة تضميد الجراح . . كل شىء لم يتغير، الميكركروم الأحمر، والقطن الطبى والليزول والمحاقن والمبضع وصراخ الأطفال . . وتأوهات المرضى وزبائن الدكتور موريس، والباب الذى يغلق خلفه مع تومرجيه الخاص وعملائه . . لا جديد أبدًا . . لا جديد . . الحياة الراكدة المميتة ألم تزل كما هى؟ وسعيد سلطان ثائر حاقد، الغيرة تأكل قلبه، لو كان يغار حقيقة لتزوج . . وسمعت «كاميليا» صوت الدكتور محمد الهادئ الرقيق . . يقترب، فتذكرت على الفور عبارتها «لا جديد» لا . . بل الدكتور محمد هو الجديد . . لكن للأسف فرحتنا دائمًا طارئة . . أيظل جديدًا أم يتحول بمرور الأيام والليالى إلى قديم باهت؟؟

وتوقف سيل أفكارها عن التدفق دفعة واحدة، وجمدت فى مكانها لحظات، ثم عادت إلى سعيد سلطان فى مكتبه، وما إن وقفت قبالته حتى قالت:

- «لماذا تتهمنى بالكذب؟».

- «لم أقصد . . » .

- «كن شجاعًا . . » .

أثارته كلمتها، وأخرجته عن طوره، وجرحت كبرياءه، فهتف :

- «أنت كاذبة . . » .

- «وما شأنك؟؟» .

- «شأني . . شأني . . » .

فقطعت عليه الحديث قائلة :

- «لى مطلق الحرية، أن أفعل ما أشاء» .

- «حتى الكذب؟؟» .

- «حتى الكذب . . . » .

ودقت أرض الغرفة خطوات الدكتور موريس، لم يكن كالعهد به آمرًا عالى الصوت، بل كان يبتسم ابتسامة واسعة وإن بدا قليل من الشحوب على وجهه، ورجح سعيد وكاميليا أن الدكتور موريس سوف يحمل عليهما بلا رحمة، ويؤاخذهما على انفرادهما بحديث خاص وعتاب وشغب أثناء العمل، وخاصة أنه كان قد أنذر سعيد وأنذر كاميليا قبل ذلك، وأمرهما بعدم الانزلاق فى العلاقات العاطفية حفظًا لكرامة المستشفى، وضمانًا لسير

العمل . . ومع كل هذا فقد بشّ موريس فى وجهيهما وتجاهل ما لحظه عليهما من انفعال وارتباك وهمس فى هدوء وخبث :

- «هيا يا آنسة كاميليا» . . سوف يبدأ الدكتور محمد العمل أمرك لله . . نرجو أن ينتهى قبل أن تطلع روحك . . » .

ولم تستطع كاميليا أن تمنع لسانها من التهجم على الدكتور محمد ورميه بالحذلقة والحنبلية ، طريقة درجت عليها ، تلقت دروسها مع الأطباء السابقين ، وعلى يدى الدكتور موريس ، لكى تجامله يجب أن تقدح فى حق غريمه ولو كان غريمه ملكًا ، وتبصق بضع كلمات محفوظة بلا وعى ، وتطلق بعض الضحكات الخاوية دون انفعال ، ثم انصرف الدكتور موريس ، ويبقى سعيد على مكتبه وحيدًا مرتبكًا ، لكنه يدارى ارتباكه بأن يخفى وجهه بين الأوراق ، ويقول لنفسه : «أقسم إنها لمجنونة .٠ . مجنونة . . ورب العزة» .

ooo

الفصل السادس

خلع محمد حذاءه، ثم علق بدلته على المشجب، وشمر أكمام منامته واستراح قليلاً على كرسى من خيزران، مغمض العينين، مسترخى الجسد، وبعد دقائق توضأ ثم صلى الظهر، ثم جلست أمه قباله بعد أن وضعت أمامه الطعام، ولم يغب عنها مدى ما حل بابنها من تعب طوال الأيام القليلة الماضية، لقد رأت بعينها وأحست بقلبها- قلب الأم الحنون- أن ابنها يبذل الكثير من جهده وماله لإسعاد الآخرين، لكن ابنها لن يتبرم أو يسخط، إنه يستقبل المرضى بابتسامة عامرة تنسكب فى قلوبهم، ولا تقف عند النظر، بل تتغلغل فى أعماقهم فيتناولون العقاقير فى ثقة، ويستمعون إلى نصائحه فى اطمئنان ورضا، وتملت الأم تعبيرات وجهه المجهدة، وهمست:

- «لشد ما ترهق نفسك..».

- «لكنى سعيد يا أمى، إنى لأسعد الناس بقدر ما أسعد نفسى ثم إن هذا واجبى..».

- «لكنك تفعل أكثر مما يطلب منك بكثير..»

- «ربما . . ومع ذلك فإن ما يعذبنى هو ألا أجد كل ما يتطلبه المريض فى المستشفى، تأكدى أنه لا يأتى إلينا إلا المعذبون، القادرون لا يأتون، أموالهم تمكنهم من الذهاب إلى المدينة، وتمهد لهم الطريق للحصول على كل ما يتطلبه العلاج . . »، وتنهدت أمه وهى تقول:

- «لكن إلى متى تواصل هذا العمل المضنى؟ أخاف أن تنفد طاقتك . . ».

فقال وهو يبتسم:

- «الذين يؤمنون بالله وبحق هؤلاء المساكين يمدهم الله بقوة هائلة . . تصورى أنى أول أمس نزلت لعلاج مريض الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكانت حرارتى أربعين درجة!! لعله كان أحسن منى حالاً، لكنى كنت أسعد منه بالاً . . ».

وأخذ يمضغ الطعام بشهية ورغبة، وآلام طفيفة يشعر بها فى أذنيه لكثرة استعماله «السماعة» وضوضاء مشوشة يتردد صداها فى رأسه المتعب، وعشرات الوجوه الصفراء الشاحبة، تمر على ذاكرته، ومئات الدعوات التى يتردد لم تزل ترن فى مسمعيه، وألوان شتى من الأمراض والمرضى تتوارد على مخه، وكاميليا هى الأخرى بسمتها الجذاب تجلس قبالته تتململ، وتتنهد وفى نظراتها قلق وملل، وتعليق أحد التومرجية «سنبيت هنا الليلة» يتناهى إلى سمعه، فيبتسم وتبتسم كاميليا، التى يقولون عنها إنها متمردة ضيقة

الصدر، ولا تفتأ تثير المشاكل مع الدكتور موريس وتفر من العمل وتصرخ في وجوه المرضى بل وتضربهم أحيانًا، ترى ما الذى جعلها تجلس مسمرة مع الدكتور محمد، وتحتمل العنت والإرهاق وتخجل من أن تثور في وجهه؛ أو تتعلل بأية حجة لتهرب من جو «العيادة» الخانق الحار المزدحم بمن يتأوهون ويسعلون ويعرجون؟؟ إن كاميليا تنظر إليه طويلاً . . تبتسم تحاول أن تلفت نظره . . وتحدقه دون كلفة؛ وتخاطبه في بعض الأحيان كصديق لا كرئيس لها . . إن في عينيها رغبة غامضة يجهلها لكنها تؤرقه . .

وقالت الأم ورائحة الفخر تشع من كلماتها :

-« يقولون إنك لا تخطئ في تشخيص الداء أو علاجه . . » قال بعد أن ازدرد ملعقة من الأرز :

- «جل من لا يخطئ، ومع ثقتي الكبرى في العلم وأصوله، إلا أني أعتقد أن هناك ما يسمى بالإلهام، إنه نداء داخلي في أعماقي كثيراً ما يهديني إلى الحقيقة على ضوء ما أعرف من معلومات» .

ولم يدر الدكتور محمد كيف حولت أمه مجرى الحديث وتمتمت في شيء من الحرج :

- «يقال لو أنك تأخذ أجرًا عن الفحص الطبي كما يفعل موريس لبلغ إيرادك اليومي عشرة جنيهات . . . » .

فأفلتت من الدكتور محمد ضحكة عالية، وقال مداعبًا :

- «لو . . وكلمة «لو» تفتح عمل الشيطان . . » .

وأدركت الأم أن ما قالته لم يصادف هوى فى نفس فتاها، فقالت :

-«يا بنى أعانك الله . . أنا لا أتدخل فى عملك، ما دمت ترى فيما تفعل الصواب فسر فى طريقك، ونحن لا نطلب لك غير راحة البال ورضا الله . . » .

ومحمد لا يمكن أن ينسى أن قريته كأبيه فقيرة، وأيامها جافة شحيحة، وأهلها يقنعون بما دون القليل، وهل ينسى أن أحد أقاربه- رحمه الله- كان مريضًا منذ سنوات، وكان يبيع ما لديه من الأوانى النحاسية، وبعض أخشاب سقف البيت، ويرهن من أرضه بضعة قراريط ليشترى الدواء ويدفع «المقاولة»، كثيرون مثل قريبه هذا يأتون إليه اليوم، يرى فى وجه كل منهم وجهه، ويقيس حالهم بحاله، فيعز عليه أن يبيع أحدهم أثاث بيته، أو أخشاب السقف الذى يقيه زمهرير الشتاء ولفح الهجير، أو يرهن قراريطه القليلة التى تطعم عياله، ومحمد يذكر أن أباه ظل شهرًا كاملاً تحت وطأة حمى الملاريا . . يا لها من أيام قاسية، كان آنذاك بالمدرسة الابتدائية، والحرب دائرة الرحى، وأسواق القطن راكدة، والجيوب خاوية من أى مليم، والمليم فى قريته ذو قيمة، لم يكن محمد يعلم فى تلك الأيام أن علاج أبيه لا يخرج عن ثلاثة أقراص من الكاموكين لا تساوى أكثر من قروش ثلاثة؛ لأن الأطباء كدأبهم يملئون قائمة العلاج بعديد من العقاقير . . إنه اليوم يعالج عشرات الحالات المشابهة بالأقراص الثلاثة وبكمية تافهة الثمن من مزيج

الحديد ويصرفها للمرضى مجانًا . . أجل مجانًا ؛ لأنه يؤمن أن العلاج كالطعام . . كالماء . . وكالهواء أيضًا ضرورة وحق لكل مستحق .

•

وانتهى محمد من تناوله الطعام ، كان يحلم بساعة يقضيها نائمًا فى سريره ، لكن أخته أقبلت قائلة :

- «التومرجى حامد يريدك . . » .

فأسرعت أمه قائلة :

- «حتى لحظات الراحة القليلة محروم منها . . . لا بد وأنها حالة إسعاف ، وإلا لماذا أتى إليك فى هذا الوقت بالذات؟» .

قال محمد وهو يخفف يديه بعد أن غسلهما :

- «بسيطة . . » .

فأردفت أمه وعلامات الضيق على وجهها :

- «كل شىء عندك بسيط» .

عندما ولج محمد باب حجرة الاستقبال هبّ حامد بعوده القصيرة النحيل واقفًا فى شبه انحناءة لكن نظراته النفاذة الحادة كانت تشى بالمكر والدهاء ، ووجهه المستطيل وفمه شبه المتفرج يوهم بالسذاجة الكاذبة ، كان يلبس جلبابًا ريفيًا مخططًا ، وطاقية من الصوف الأبيض . لكن محمد كان يفترض الطيبة وحسن النية فى كل إنسان ، هو دائمًا يكذب فراسته فى الرجال ، وينفى نوازع

هواه حتى السيئين منهم يأمل فيهم الخير، ولا يسلم أبدًا بأنهم أفاعي وقال محمد والابتسامة الطيبة تشرق في وجهه:

- «خيراً. . . حالة جديدة؟؟».

- «أبدًا. . أتيت لزيارتك. .».

ثم ترك حامد مجلسه الأول واقترب من الدكتور بضع خطوات ثم جلس لصقه مباشرة، وتكلم وقد ارتسم الجد على ملامحه السمراء الحديدية:

- «هل معنا أحد؟؟».

- «ربنا يا حامد. .».

ليس إلا رجلاً أحمق يدوس النعمة بقدميه، ويهرب من الخير الذى. .

- «معلوم. .».

- «جئت من طرف الدكتور موريس. . سأتكلم بلسانه أنا وهو واحد. . فلتأخذ كلامى بمنتهى الثقة. .».

- «طبعًا. .».

- «تركتك بعد أن رأيت بنفسك. . هل يرضيك هذا الهجوم؟؟».

- «أى هجوم؟؟».

- «هجوم الناس عليك.. لو عرفوا أن جهودك لها ثمن لاستراحت المستشفى واسترحت أنت أيضًا.. و.. ولكسبت ثمن عرقك. الدكتور موريس على استعداد لأن يكون دخل المستشفى مناصفة بينك وبينه.. إذا كسبتما قرشين فلك قرش وله الباقى، إن أباك لم يعلمك بلا مصروفات حتى تبذر خدماتك بالمجان..».

فأطرق الدكتور محمد هنيهة ثم قال:

- «لكن ما الذى دفعك لهذا التحمس؟».

فقال حامد فى لهجة صدق وثقة:

- «الأصول..».

- «الأصول؟؟».

- «أجل..».

- «أمرك عجيب..».

وسدد حامد نظراته النفاذة إلى الدكتور، لولا ضعفه ووضاعة مركزه لهبَّ فى وجه الطبيب ككلب شرس، وتصور حامد أن محمدًا ليس إلا رجلاً أحمق يدوس النعمة بقدميه، ويهرب من الخير الذى تمطره به السماء وحامد له نسبة معينة على كل قرش يدخل جيب الدكتور موريس، فجنّ جنونه بعد أيام من مجىء الدكتور محمد، لم يفكر فى غير المدد الذى انقطع، ولهذا خرج عن طوره، وقال:

- «لقد خربت بيت الرجل . . » .

- «ماذا تقصد؟؟» .

- «الدكتور موريس . . » .

- «لكن مرتبه يكفيه . . » .

- «أتعتقد ذلك؟؟» .

وشعر محمد بضيق شديد من هذه المساومة ، وضايقه أكثر أن حامد من أهل القرية ، واحداً من آلاف الفقراء المتعبين وأبوه فلاح لم يزل يسحب جاموسته ، ويركب حماره قاصداً الغيط مع مشرق الشمس ، وزاد من ضيقه الصراحة الوقحة ، وتخيل نفسه أمام رجل من أكلة لحوم البشر ، ولم يجد بداً من أن يقول لحامد :

- «لكن الناس مساكين . . » .

- «أنت المسكين . . هؤلاء الفلاحون لا يلبسون البدل ، ولا يعرفون طريق الكواء ، ولا يدفعون إيجار المسكن ، أو ثمن النور ، ولا يسافرون . . بيوتهم مليئة بالخيرات ، ترى الرجل القذر المهلهل الثياب فترثى لحاله وهو فى الوقت نفسه يستطيع أن يشتريك بماله . . أنت المسكين يا دكتور . . » .

وحاول الطبيب أن يتماسك ويعالج الأمر بشيء من الحكمة واللطف ؛ ولهذا قال فى نبرات هادئة لا أثر للتحامل أو التجهم فيها :

- «قد يكون كلامك على جانب من الصواب، لكنى لن أغير موقفى، لو كان لى حق- كما تزعم- لدى أهل القرية فأنا متنازل عنه، ثم إنى لا أحارب موريس فى رزقه، لم أقف فى وجهه وأمنعه، فلأتصرف كما أشاء وليفعل ما يحلو به دون معارضة منى. . لن أقاسمه فى شيء وليس من المعقول أن يرغمنى على مشاركته فى فعله وإلا كنت حربًا عليه. . ».

ولم يشأ حامد أن يعترف بأن المرضى ينتظرون اليوم الذى يعمل فيه الدكتور محمد، وفى اليوم الآخر لا يتردد على المستشفى إلا عدد قليل، ولم يشأ أن يقذف فى وجهه بالحقيقة المرة وهو أن موريس لم يعد يحصل على شيء، برغم اعتراض محمد على مسلكه وخطته فى العمل، لكنه قال بعد فترة تفكير:

- «والحل يا دكتور؟».

- «ليست هناك مشكلة. . ».

- «ياه. . ».

وفى لهجة تهديد واضحة، قال حامد:

- «موريس مركزه متين، والمنطقة الطبية تحميه، ولم تعترض على مسلكه القديم. . أنت. . أنت. . الخاسر. . ».

- «ماذا تعنى؟».

- «لماذا تثور؟ مجرد نصيحة. . ».

- «نصيحة؟ ألأنى أتبع الطريق النظيف، وأنفذ السياسة التى تشرف عليها المنطقة أكون أنا الخاسر؟».

فأردف حامد وهو يهز رأسه فى يأس:

- «غداً تعرف.. يا بك.. الدنيا كلها هكذا.. كل شىء ثمن.. اتبع الأصول..».

- «الأصول فى ذهنى واضحة..».

-« الأصول هو ما يتبعه غالبية الأطباء فى كل مستشفى.».

وغربت الشمس أو كادت، وهبطت على القرية عتمة داكنة، ولم يكن القمر قد أسفر بعد، وطمست العتمة معالم وجه حامد، وران عليه صمت عاصف وتنهد محمد، ثم قال:

- «ألا تصلى المغرب؟».

- «لم أركعها طول يومى..».

- «لماذا؟؟».

- «لأنى فى دوامة.. رأسى يدور.. والجو مكفهر وأنت ولا على بالك..».

وكانت البهائم العائدة من الحقول تزحم الطريق المترب، وحامد يدب بينها باحثًا عن طريقه خلال العتمة والغبار المثار، ومن آن لآخر يصر على أسنانه فى حنق، وكلمات محمد يتردد صداها فى رأسه، فتملأ نفسه بمزيد من الضيق والغيظ، ماذا يفعل بابن بلده؟

أيقضى عليه برصاصة تعجل له بالموت، أم يهوى على رأسه بعصى غليظة ويخلص منه، أم يثير حوله جواً من الشبهات والأكاذيب ويفترى عليه ويبعث بالشكاوى المجهولة فى حقه ظلمًا، حتى يقلب حياته إلى جحيم؟؟

لكن حامد لم ييأس كلية، كان على يقين من أن موريس لن يسكن وزوجة موريس هى الأخرى لن تدع الأمور تمضى على هذا الوجه الشائن فلا بد أن يستطيع موريس بصلاته وبماله أن يصحح الأوضاع، وموريس الذى لم يستطع أحد أن يقهره طوال السنوت الفائتة، ولم تؤثر فيه شكاوى أو تحقيقات، ليس من المعقول أن يهزمه درويش أبله كالدكتور محمد.

وانتعش فؤاده لهذه الخواطر المفرحة، وتبدل يأسه أملاً، وتحول ضيقه إلى اطمئنان وثقه فى المستقبل، وفى خضم الفرحة الطارئة ينسى نفسه فيسرع الخطا، ويصطدم بحمار يتقدمه، فيفيق إلى نفسه ليرى زمرة من الفلاحين، فيلقى عليهم السلام، لكن المشهد الذى رأوه يضحكهم، فيتمادون فى ضحكهم ولا يحظى حامد برد السلام ومع ذلك فهو فى عالم آخر، إنه فى طريقه إلى الدكتور موريس ليحمل إليه نتيجة المباحثات وليحرضه على فعل أى شىء يبعد محمد عن طريقهم، ويغمغم حامد:

- «ربنا يسهل.. محنة وتزول..».

●●●

الفصل السابع

جلس الدكتور محمد فى حجرة الفحص الطبى انتظارًا لبدء العمل بالعيادة فى اليوم المخصص له وجلست قبالته كاميليا، كان الباب مغلقًا، وأبدى الدكتور محمد رغبته فى أن يفتح الباب لكن كاميليا اعترضت زاعمة أن فتح الباب معناه تدفق المرضى قبل بدء العمل، وكثرة الأسئلة ووجع الدماغ، ولم يكن محمد يميل إلى النقاش الكثير حول موضوعات تافهة كهذه، ولهذا آثر الصمت فما هى إلا دقائق ويبدأ العمل. . غير أن كاميليا حاولت أن تعابثه بقدميها تحت المنضدة، فظن أن ذلك مجرد مصادفة لا تحمل أى غرض خبيث، ولهذا نحى قدميه قليلاً دون أن يتمادى فى تفكيره، لكن الحركة نفسها تكررت، فرفع وجهه إليها بدون قصد، ووجدها تبتسم، وتعض على شفتها السفلى فيما يشبه الخجل، فعول على الصمت مرة أخرى، وحاول هذه المرة أن يبعد قدميه تمامًا وقد داخله بعض الشك. غير أنه كالعهد به أبعد عن ذهنه فكرة معابثتها له ملتمسًا لها بعض التبريرات البريئة، ولاحظ بعد فترة أنها تتألم ويصدر عنها أنات خفية، وفكر فى أن يتجاهل ما سمع،

لكنه تذكر أن نوبات الصرع تعاودها من آن لآخر، وقد تكون هذه التصرفات بداية لنوبة جديدة، فخفق قلبه اضطرابًا ورفع رأسه من جديد هامسًا. . «مالك يا كامليا؟» ودون أن يدرى اختطفت يده ووضعتها على صدرها فى الجانب الأيسر تحت الثدى، وهى تقول: «ألا تحس؟؟ إن دقات قلبى مسرعة جدًا وهذا ما يزعجنى. . أنا مريضة بالقلب أيضًا يا دكتور. . ».

لم يستطع محمد إزاء الاضطراب الذى سيطر عليه أن يحس نبضات قلبها المتلاحقة. وقبل أن يلم شتات نفسه وجدها تهب واقفة ثم تقترب منه وقد كشفت عن صدرها قائلة «ضع السماعة يا دكتور على قلبى. . لترى أنى فعلاً مريضة. . » لم يزل محمد على مقعده وكاميليا تكاد تلاصقه وجزء من صدرها مكشوف، وبيد مرتعشة وضع السماعة فى المكان المطلوب، وكانت هى تحاول أن تلهث حتى يستمع فى الوقت نفسه إلى الصوت المنبعث من تنفسها عند دخول الهواء وخروجه من رئتيها، وكانت أنفاسها اللاهثة الحارة تلامس جبينه الذى نداه العرق، غير أن الضوضاء التى كانت تفور فى رأسه منعته من أن يستمع إلى ما يريد تمامًا، ولهذا أنزل السماعة، وهو يقول: «نستطيع أن نؤجل هذا إلى ما بعد الانتهاء من الكشف على المرضى، فأصرت كاميليا على رأيها، ولم تتزحزح عن موقفها قيد أنملة، وهمست فى نبرة ألم واحتجاج تُشْعر بالحزن والعتاب: «أنا أيضًا مريضة. . ثم إنى أولى بالرعاية الطبيَة من هؤلاء المحتشدين فى الخارج؟» وفى عينيها لمح الضراعة

والضعف . . والخبث أيضًا، وجمد لحظات على وضعه ثم فكر فى الخروج من هذا المأزق الذى لم يرتح إليه بأى حال من الأحوال، وخاصة بعد أن شعر أن موقفها ليس سليمًا تمامًا، وأن إحساسه الداخلى يورطه فى إثم مبهم غامض، وأن كاميليا مثيرة وتدفع للخطأ، وأن لها رائحة وتاثيراً عميقين، وخاصة بالنسبة لرجل قد بعد عن زوجه وأطفاله لفترة ليست بالقصيرة، وأن أحاسيسه كرجل بدأت تتحرك . . تتخطى ما رسمه لنفسه من سلوك، فغالب هواه وقهر ضعفه، وحاول أن يصب على حرارته أفكاراً من جديد، فقال بابتسامة شاحبة مرتجفة:

- «تستطيعين أن تذهبى للدكتور موريس . . ».

- «لكنى أريدك أنت . . ».

قالتها فى نغمة لعوب، فقال فى دهشة:

- «أنا؟».

- «أجل . . أنت بالذات . . ستقول لماذا؟؟ السبب بسيط وهو أننى أثق فيك، والثقة فى الطبيب عليها المعول الكبير . . لو أعطيتنى ماء وشربته لشفيت من مرضى . . لماذا؟ . . لأن قلبى يحدثنى بذلك . . هيا استمع إلى دقات قلبى . . ستعرف مرضها، ستفهم ما تقول لك، لماذا تخاف هكذا؟؟ هل ستقع فى بحر؟ عجبًا!! أتخاف وأنت رجل؟؟ تحرك . . أوه . . يا لجمودك . . أقسم بشرفك أنى لن أتزحزح قبل أن توقع الكشف علىّ، ثم تصف لى الدواء، انظر . .

إن صــدرى يرتجف كله، وأخــاف أن تأتينى نوبة التــشنج إذا لم تعجل . . ».

وتضـرجت وجنتـاه بحمـرة الخجل والارتبـاك، وازداد انفعـاله بصورة ملحوظة وتسمر فى مقعده كغريق لا يقاوم بعد أن استنفد كل قواه فى الصراع، وتمتم فى صوت مبحوح:

- «كاميليا . . ».

- «حياة كاميليا . . ».

- «اعملى معروفًا . . ».

- «أمرك . . ».

- «اجلسى مكانك . . ».

- «أقسمت بشرفك . . هل نسيت؟؟».

- «دعى هذا الأمر . . ».

- «لكنى لا أتنازل . . شرفك عندى شىء كبير جدًا . . ».

- «فلتحافظى على شرفى . . ».

- «على عينى . . أنت غريب . . نمط فريد وحدك بين الناس هنا . . هدوؤك يثيرنى، وكبرياؤك يستعبدنى . . صمتك صاخب . . اتزانك يورث الجنون . . تحرك . . قلبى يدق سيتحطم . . ».

فقال محمد بابتسامة صامدة واثقة بعد أن استرد اتزانه:

- «اذهبي إلى حجرة الاستقبال وسأعطيك أمبول «لومينال» مسكن وبعدها ستكونين أسعد حالاً . . » .

وظللت وجهها سحابة من أسى ويأس، وتبللت عيناها بمقدمات من دموع توشك أن تنهمر، وبدا على ملامحها سمات طبيعية، وتبادر إلى ذهنه على التو أنه أمام امرأة مشرفة على الجنون، وطنت في رأسه كلمات صامتة «مريضة . . مسكينة، ليست طبيعية . . لا شك . . لا شك في ذلك . . ؟»، وأدرك حرج المأزق الذي تورط فيه- وهو الشاب الذي لم يخض مثل هذه التجارب العاصفة وتوقف عن تفكيره حينما جاءه صوتها :

- «موريس سمج . . أعيش معه من سنوات . . لكن منظره يثيرني، يبعث في نفسي التقزز والحنق، لا يفكر إلا في المال، ولا يحسب حساب أحد غير زوجه، وما عدا ذلك لا يحس بشيء والتقطت أذناه كلمة «الزوجة» وتذكر على الفور تلك التي تعيش في القاهرة بعيداً عنه مع طفليها، وتحيا على أمل لقائه . . تنتظره دائمًا وتحترق شوقًا إليه، هكذا تقول في خطاباتها التي ترد إليه مرتين في الأسبوع على الأقل، وتذكر الصغير وهو يلوح له عند سفره بيد صغير حلوة، والصغيرة وهي نائمة في مهادها تمثل البراءة والحب والإيمان، وعاد ذهنه مرة أخرى إلى الواقفة أمامه، فقرر أن يأمرها بالجلوس بل بالخروج من الحجرة دون إبطاء . لكن باب الحجرة الجانبي فتح فجأة، فانتفض من مكانه، وفي الوقت نفسه دقت على الباب الثاني قرعات، وفتح البابان في لحظة واحدة، كان

وجه الدكتور موريس الباسم الساخر يطل من الباب الجانبى، ووجه حامد المستطيل الأسمر تطل من عينيه النفاذتين نظرات ذات معنى فى الباب الثانى، وأسرعت كاميليا لتصلح من هندامها وحركاتها تُشْعِر بالشك، وتحول وجه الدكتور محمد إلى صفحة شاحبة كبشَرة الموتى، لم يكن الجو يحسس بالبراءة، وقال الدكتور موريس فى لهجة ذات معنى:

- «ألم تبدأ بعد؟؟ لقد تأخر موعد العيادة. . ».

وأردف حامد التومرجى:

- «المرضى متعبون. . والناس وراءها مصالح وعمل. . ».

وغمز موريس بإحدى عينيه فى وقاحة:

- «الظاهر أن محمد بك منسجم قليلاً. . ».

وأتبع ذلك بقهقهة عالية، وتلاه حامد بضحكة صارخة مبتذلة كضحكة عربيد، وحاول الدكتور محمد أن يشاركهم القهقهة لكن فمه اتسع وعجزت قدرته وطبيعته أن يملأ المكان بالضجيج مثلهم، فقد ماتت الضحكة على شفتيه المرتعشتين، فغمره عرق واستنجد بسيجارة أشعلها على الفور، ثم هبّ واقفًا، وهتف:

- «لنبدأ العيادة. . » ثم التفت إلى كاميليا:

- «أما زلت متعبة؟».

قالت باقتضاب وضيق:

- «الحمد لله . . أنا بخير . . ».

- «نستطيع أن نستدعى زميلتك زكية . . ».

- «لا داعى . . ».

وتوارى الدكتور موريس، فعاد الباب الجانبى مغلقًا كما كان وبقى الباب الرئيسى الواقف لديه حامد مفتوحًا وضوء الشمس الباهر يتدفق منه، وقبل أن يبدأ الدكتور محمد العمل دخل سعيد سلطان فى خطوات رسمية، ووضع أمامه ورقة يقول:

- «تصريح بالدفن يا دكتور» . . المتوفى سنه سبعون سنة . . ليس هناك اشتباه ولا قرابة للمتوفى . . فقط التوقيع . .

كان الدكتور محمد يوقع على شهادة الوفاة، وسعيد سلطان واقف أمامه، ينظر بجانب عينه اليسرى ناحية كاميليا فى إمعان وفى نظرته آلاف الخواطر والمعنى، وكاميليا لا ترفع عينها عن أكوام الأقراص الصغيرة المبعثرة على المائدة . .

ودهش سعيد سلطان عندما دعاه الدكتور موريس لتناول طعام العشاء معه فى الليلة نفسها، وعلى مائدة العشاء صادف سعيد رقة لم يعهدها فى موريس من قبل، لقد عهده متعجرفًا، جافًا فى معاملته مع موظفى الوحدة التى يرأسها، يرفع صوته فى وجوههم ويحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة ويتعمد معهم الكبرياء والتعالى وكأنهم من طينة غير طينته، ويتصيد لهم الأخطاء ويحفظها لهم فى أوراق تحقيق رسمية، ويبقيها لديه حتى تكون سلاح تهديد فى يده

يشهرها فى وجوههم إذا ما لاح فى تصرفاتهم بادرة من تمرد، أو حاولوا الوقوف فى سبيل جشعه واستغلاله .

ودار الحديث متناولاً نواحى عدة فى العمل وخارج العمل، وبعد تناول الطعام والشاى وتدخين السجائر، صمت موريس برهة، وقال وهو يتلفت مخافة أن يسمعه أحد :

- «تصور يا سعيد . . » .

- «ماذا؟» .

- «لم أعد أثق فى أحد» .

- «كيف . . ؟

- «الناس مجموعة من الذئاب . . » .

- «لا بد وأن أحدًا أساء إليك . . » .

- «أنا شخصيًا لا . . خذ عندك . . ماذا أقول؟؟ أخاف الفضيحة، سمعة الوحدة توشك أن تنزل إلى الحضيض، أرجو ألا يعرف أحد ماذا حدث وإلا ضعنا . . أؤكد لك لو أن أهل القرية عرفوا الحقيقة لأحرقونا بالنار . . » .

وثارت فى نفس سعيد غريزة حب الاستطلاع، وازداد تشوقه لما سيذيعه الدكتور موريس، وهمّ أن يتضرع للدكتور، بل يقبل قدمه ليشبع تطلعه وتشوقه، لكن موريس قذف بعقب السيجارة فى عصبية، وقال وهو ينفخ فى غيظ :

- «لا . . لن أتكلم . . الصمت أجدى . . إن خير حل هو أن أترك هذا البلد . . وأبحث لى عن مستشفى آخر ، أعصابى لم تعد تحتمل كل هذا الإرهاق . . » .

قال سعيد متوسلاً :

- «ألا تثق بى يا دكتور؟؟؟» .

- «يا سعيد إنها أمور مخجلة . . » .

- «لكن قبل أن أذيع هذا السر عدنى بألا تنقله إلى أحد . . نحن غرباء هنا يا سعيد والفلاحون وحوش ، وأهل هذه القرية مجرمون ، سيعتبرون كلامنا دسيسة حقيرة . . المهم أن إشاعة ما حدث لن يأتى بخير . . » .

وأشعل موريس سيجارة أخرى ، ثم صعد ذيلاً من الدخان من فمه ، وقال وهو ينقر على المائدة بإصبعه :

- «محمد يا سيدى . . محمد الذى يتعفف عن المال . . أتدرى ماذا فعل؟؟ فتحت باب الحجرة فجأة فوجدته منفرداً مع كاميليا . . » .

- «ثم ماذا؟» .

(قالها سعيد وهو ينفجر لهفة) ، فاستطرد موريس :

- «وجدته . . وجدته . . أف : ماذا أقول؟ إنه رجل متزوج ، وله طفلان و . . ونظيف جداً ، صاحب خلق ورسالة ، المهم . . كانت كاميليا بين ذراعيه وكان يقبلها . . » .

وانتفض سعيد كمن لدغته حية وصرخ :

- «يقبلها؟؟» .

- «وفى فمها . .» .

- «وهى . . ؟» .

- «فى عالم ثان . . والعشرات يتكدسون أمام باب العيادة، لا تحاول أن تشك فى كلامى فقد رآه غيرى . .» .

- «غيرك؟؟» .

- «أجل . . كان حامد يتابع كل شىء من ثقب الباب، وفتح الباب الرئيسى فى الوقت نفسه الذى فتحت فيه الباب الجانبى . . لقد غرق المسكين فى بحر من الخجل . . ووقفت كاميليا متسمرة فى مكانها مذهولة . .» .

وتمتم سعيد وهو يصر على أسنانه :

- «هذا الوغد . . خدعنا جميعًا . .» .

- «كلنا نفهمه على حقيقته . . إنه يظهر خلاف ما يبطن . . ومع ذلك فهو بشر والبشر يخطئون لكن خطورة الأمر فى أمرين مهمين . . أولهما : إنه فى داخله -ومن وراء الستار- شيطان مريد ويظهر أمام الناس بمسوح الناسك، والثانى : أن عملنا كأطباء عمل حساس يعتمد على الثقة والسمعة . . وأنا بصفتى المسئول الأول عن الوحدة لا أقر الوضع، لكن لست أدرى ماذا أفعل؟؟

فهتف سعيد مهتاجًا :

- «نضربه بالحذاء على رأسه . . » .

كان موريس يعرف العلاقة الوليدة بين سعيد وكاميليا ، وفكر فى استغلالها لتعبئة الشعور ، وليسمم الجو بالنسبة للدكتور محمد ، لكنه تظاهر بأنه يجهل هذه العلاقة ، ولم يشم سعيد من حديث موريس ما ينم عن إدراكه لما بين سعيد وكاميليا خبثًا ولؤمًا ، وهمس موريس :

- «أنا رجل أنشد السلام . . لكنى حائر ، إن إثارة أية ضجة حول هذا الموضوع سوف تقيم الدنيا وتقعدها» .

وغرق سعيد فى صمته الهادر ، كان باطنه يشتعل ، وكاميليا تحتل رأسه ورغبته فيها أصبحت رعناء - لكنه مجرد كاتب . . كاتب صغير ، ومحمد طبيب له مركز وسمعة وكلمة مسموعة احترام ، وبدا له الدكتور محمد مثالاً للجشع والأنانية ، إنه لا يكفى بزوجه وأولاده بل يطارد البنات الأخريات ، يحطم سعادة المساكين المتواضعين ، ويشتت الآمال الجميلة التى تترعرع فى قلب سعيد ، ومع هذا يزعم أنه من حملة الرسالات يبشر بحياة جديدة بين الفلاحين ، ويضحى من أجلهم بأعز رغباته . . المال . . أجل المال . . هذا المأفون كاذب . . كاذب . . وهتف سعيد مرة أخرى هتاف جريح فى معركة تعسة :

- «إن الذى يجب أن ينقل هو . . لا أنت . . كنا قبله نعيش فى هدوء وسلام . . وكانت كاميليا تحيا بيننا كالطائر الأليف وكنت أنا . . أعنى . . لا أدرى ماذا أقول . . يجب أن يغرب محمد عن

وجهنا . . من مصلحة الجميع أن يذهب . . وأنا على استعداد لأن أطارده بالشكاوى وأوقعه فى الأخطاء وأسوقه إلى مكتب التحقيق، ياما فى الجراب يا حاوى . . » .

وعندما سمعا وقع أقدام مقبلة لاذا بالصمت، ثم اندفع موريس يقول: «بالله عليك لا تذكر شيئًا أمام زوجتى . . لا أريد أن يعرف أحد طرفًا من الموضوع حتى زوجتى . . » .

●●●

وعندما انفراد سعيد بكاميليا فى اليوم التالى نظر إليها طويلاً ثم قال:

- «ألف مبروك . . » .

- «خيرًا؟ . . » .

- «الدكتور محمد . . » .

- «ماذا تعنى؟ . . » .

- «الحبيب المجهول . . » .

- «كف عن هذا العبث يا سعيد . . إنك غيور مجنون . . » .

قال سعيد وهو يقذف بأوراق فى يده ويدق بقبضته المكتب:

- «عرفت كل شىء . . » .

- «طظ . . » .

فوثب سعيد من فوق كرسيه، وقد اعتزم صفعها بل سحقها، لكنها وقفت ثابتة فى مكانها، تطل من عينيها الجميلتين نظرات ثابتة ووجهها الفاتن النضر يتحدى كل تهديد، فوقف قبالتها شاحبًا مجرد أصابعه كخناجر عشرة، وقال منفعلاً:

- «أنت حشرة..».

- «أنا..؟ أنا كاميليا.. وأنت سعيد سلطان».

كان الدكتور موريس يترصد كل شىء من بعيد، وأقبل موريس فى الوقت المناسب، ودخل وابتسامة بلا معنى ترتسم على ثغره، وبهدوء غريب قال:

- «ما الذى أتى بك هنا يا كاميليا..».

فردت بهدوء أغرب:

- «قدماى..».

وفى ضيق وثيد قال موريس:

- «مكانك ليس هنا..».

قالت: «أين؟».

قال موريس: «هنا فى العيادة.. عند الدكتور محمد».

وفى هدوء وتحدٍّ خرجت كاميليا، كانت تسير وهى تنثنى وكأن لا شىء يؤرقها أو يخيفها فى هذا الجو العاصف.

●●●

الفصل الثامن

لم يكد باب العيادة يفتح، حتى برز على التو رجل منتفخ البطن، متورم الساقين، شاحب الوجه، والدموع تنسكب على خده، ويقول ضارعًا:

- «فى عرض النبى.. لم أعد أملك شيئًا... جاموستى.. حمارتى.. أثاث بيتى، كل شىء بعته لأعالج مرضى، الدكتور موريس أخذ منى جنيهًا ونصفًا منذ شهر، وأخرجنى بعد أسبوعين دون أن أتمم علاجى.. إنه يطلب مبلغًا مماثلاً، وأنا خاوى الوفاض ودارى خراب...».

لم تكن «كاميليا» حاضرة هذه المرة، فقد آثر الدكتور محمد أن يستدعى «زكية» بدلاً منها تجنبًا للقيل والقال، وبعدًا عن المشاكل الحساسة، وسارع الدكتور محمد قائلاً:

- «استرح.. طلباتك؟؟ نحن هنا فى خدمتك، وبدون مقابل..».

فرفع الرجل يدين متغضنتين شاحبتين، وهتف من أعماقه:

- «ربنا يعمر بيتك.. يا ابن الأصول..».

ثم أشار إلى كتفه، وأخذ يدق عليه بيده النحيلة:

- «هنا.. هنا على كتفى طالما حملتك وأنت صغير، نحن لحمك ودمك يا دكتور... نحن أهلك...».

وكشرت «زكية» عن أنيابها، ورمقت المريض بنظرات حانقة، وصرخت فيه قائلة:

- «انحط.. وكفى ثرثرة.. وماذا يفعل لك الدكتور موريس؟؟ ماذا لو أخذ منك جنيهًا ونصفًا؟ ألم تأكل بهم فى المستشفى وتنال بأضعاف هذا المبلغ علاجًا؟؟».

ثم التفتت إلى الدكتور محمد قائلة:

- «يا دكتور.. هؤلاء البهائم لا يحتملون، سيركبون فوق نفسك حتى تقر ساخطًا من هنا.. إرضاؤهم من المحال...»

ثم التفتت إلى المريض:

-«أتظن أنك ستشفى من الاستسقاء؟ اذهب وابحث لك عن قبر جاءتك البلاوى..».

قال المريض وقد غلبه البكاء والأسى:

- «انظر يا دكتور.. هذه هى معاملتهم.. ربنا كبير يا ست زكية».

- «ربنا يأخذك يا شيخ . . ».

وآلم الدكتور ما سمعه من «زكية» ، وحز فى نفسه قسوتها على المرضى، إنه لا يمكن بأى بحال من الأحوال أن يقرها على هذا الأسلوب الجاف، كما لا يقر الدكتور منوريس على سلوكه مع المرضى، لكن الدكتور محمد حائر ولا يدرى ماذا يفعل، هل يثور فى وجهها ويدعوها للتحقيق والمؤاخذة؟ هل يطردها هى الأخرى أو يتخلص منها كما تخلص من «كاميليا»؟ أيمكنه أن يعيش فى هذا الجو الفاسد بعد أن يعلن الحرب على الجميع؟؟ إنه لا يريد أن يخسر أحداً فهو فى معركة شريفة، وحينما يخوضها بلا جنود فلن ينتصر، لا يمكن أن يخسر «زكية» ، بل سيحاول أن يجذبها إلى صفه، وأن يصفى نفسها من الفساد والانحراف والشذوذ، فليحاول أن يعلمها برقة خطورة رسالتها، وليبين لها الطريق السليم، فمعنى إهانتها أن تكون حربًا عليه، وتحمل السلاح مع الدكتور موريس وحامد وغيرهما.

وافتر ثغر الدكتور محمد عن ابتسامة حلوة صافية. . ونظر إلى «زكية» نظرة حنان صادق، ثم همس دون حنق:

- «حرام عليك يا «زكية» . . إننا لا نتعامل مع المرضى بقدر ما نتعامل مع الله. . ربنا هو الذى يهبنا الجزاء. . ».

ورقت لهجة «زكية» وشعرت بشىء من الخزى والخجل، ومن ثم قالت:

- «هذا الرجل متعب جدًا يا كتور . . حينما كان فى المستشفى كان يثير المشاكل ويرفض أن يعترف بأى تحسن . . ».

- «لكنه يا «زكية» . . ».

ثم التفت إلى المريض وقال فى خشونة مصطنعة :

- «سوف أدخلك المستشفى على شرط ألا تضايق الست «زكية» . . . ».

فقال الرجل فى لهفة :

- «أتدخلنى بالمجان؟ ».

- «بالطبع . . . ».

واختطف الرجل يد الدكتور محمد دون أن ينتبه إلى ذلك وقبّلها فى حرارة وعمق، وأحس الدكتور وهو ينتزع يده منه أن دموعًا ساخنة قد بللت ظاهر يده ، فراوده إحساس بالذنب، لماذا يُقبل هذا الرجل يده وهو صاحب حق؟؟ ولماذا هذه الذلة والمسكنة مع أن محمداً وأمثاله لم يأتوا هنا إلا لخدمته؟ أهكذا تنقلب المعايير ويتحول صاحب الحق إلى متسول ذليل يستجدى حقه فى الحياة؟

وبعد أن وقع عليه الكشف الطبى، كتب على بطاقته «دخول بقسم الرجال . . »، وأخذ الرجل المريض بطاقته وقبلها، وهرول بها إلى القسم الداخلى صاعداً السلم، وأنفاسه تتلاحق، وكأنه قد نال بهذه البطاقة أعلى مراتب النجاح والثراء، ولم يستطع المريض

أن يكبح جماح مشاعره بل وقف على بسطة السلم واتجه صوب حشود المرضى المتكدسين أمام العيادة، ورفع يده بالورقة ملوحًا، وهتف من أعماقه بصوت عالٍ بحشرجة البكاء والفرح:

- «يحيا العدل . . . ويسقط الظلم . .».

وخرج الدكتور موريس من مكتبه، وقف بالباب ليتملى بعينيه هذه الظاهرة الغريبة المكونة من فرد واحد، فرد واحد يعبر عن مشاعر الآلاف، وعض على شفتيه فى غيظ، والتفت إلى حامد تابعه الأمين، وقال:

- «انظر . . .».

- «آه يا نارى . . .».

- «ابن بلدكم يريد أن يكون زعيمًا . . ويسترضى القاعدة . . .».

- «إيه . . . . ؟».

- «القاعدة الشعبية . . .».

قال حامد دون أن يفهم ما هى القاعدة الشعبية، ولا ما يقصده الدكتور موريس:

- «الصبر طيب . . الله يوقف حاله . .».

- «أجل . . الصبر طيب يا حامد . . .».

ثم قفل راجعًا، وفتح الباب الجانبي الذى يفصل بين العيادة والمكتب، وسدد إلى الدكتور محمد نظرات عابثة ساخرة تحمل آلاف المعانى، وقال والابتسامة الميتة تحوم على فمه :

- «اليوم يهتفون بسقوطى، وبعد شهر يضربوننى - هل هذا يرضيك يا دكتور محمد؟» .

- «بالطبع لا . . .» .

- «كان المفروض أن تبعث بالتومرجية ليجروه على وجهه ويقذفوا به خارج المستشفى . .» .

فقال محمد بشيء من الارتباك :

- «لكنه مريض . . . .» .

- «لكنه قليل الأدب . . .» .

- «فلنأخذه . . . .» .

- «بل نطرده . .»

- «ليس من حقنا . . . .» .

فقال الدكتور موريس وهو يغلق الباب :

- «من حقهم أن يحقرونا، وليس من حقنا أن نؤذيهم، هذا منطق جديد لم أسمع به طول حياتى، ولم أره فى أى مستشفى . .» .

وأسرعت «زكية» قائلة :

- «كلام الدكتور موريس معقول. . .».

فلم يعلق محمد على قولها، بل نظر إلى باب العيادة موجهًا الحديث إلى التومرجى الواقف هناك، وهتف:

- «غيره. . .».

ودخل مريض جديد، وأخذ الدكتور محمد يزاول عمله كالمعتاد، وبعد فترة جاء أحد التومرجية وقدم إليه شهادة زواج طالبًا التصريح بالزواج لفتاة فى الثانية عشرة من عمرها: فرفض الدكتور التوقيع فهمس التومرجى فى أذنيه: «لكنها دفعت المبلغ» فامتقع وجه محمد، وأفهم التومرجى أن هذا مخالف للقانون، إنه لا يصح، فقال التومرجى وهو يسحب الورقة:

- «أنت حر. . آثرتك بالخير فركلته بقدمك. . عشرات غيرك يفعلونها. . . قانون: ها. ها. ها. ملعون أبو القانون. .».

وفى اليوم نفسه عرضت عليه عطلات مرضية زائفة، كلها بثمن، نصف جنيه للواحد، ورفض الدكتور محمد كل هذا بعزة نفس، وكانت «زكية» ترمقه بغرابة، لم تكن تصدق كل ما يدور أمامها، و«زكية» تحب المال أكثر مما يحبه الدكتور موريس، ويتهمونها بالبخل، وأخذت تفكر فى أمر هذا الرجل الشاذ، أهو مجنون؟ أهو منافق؟ أهو بشر؟ الاحتمال الأخير صحيح، لكن البشر غير هذا، ولم تتمالك نفسها أن تقول:

- «لقد خسرت اليوم يا دكتور. . .».

- «خسرت ماذا؟».

- «خسرت خمسة جنيهات . . .».

فضحك الدكتور محمد وغمغم:

- «لكنى كسبت . . .».

- «ماذا كسبت يا حسرة؟».

- «كسبت رضا الله . . والناس . . .».

- «وما المانع أن تكسب المال بالإضافة إلى ذلك؟؟».

- «يكفى الشرف . . .».

فتململت فى مكانها، لم تكن مقتنعة تمامًا بكل ما يقول، فما يفعله جديد وغريب، سمعت عنه أحيانًا، لكنها لم تتحقق منه مثلما يحدث الآن، وقالت «زكية»:

- «أن تتصدق على الفقراء فهذا معقول، أما أن تتصدق على الأغنياء فهذا، . . .»

فقاطعها قائلاً:

- «وهذا رائع . . . ومع ذلك فالأمر ليس صدقة كما تسمينه، إنه حق نؤديه، وليس لى سوى شرف الإخلاص فى إيصال هذا الحق لأهله سواء أكانوا فقراء أم أغنياء . .».

ثم هتف بالتومرجى الواقف بالباب . . «غيره . . .».

●●●

ولم يقف موضوع المريض الذى دخل فى الصباح عند ذلك الحد، فقد فوجئ الدكتور محمد بأنه لم يتناول علاجه كما يجب، بل إن بعض العقاقير الأساسية لم تعطَ له، وفهم محمد كل شيء - أدرك أن موريس يخفى بعض الأصناف- وهو صاحب عهدة الأدوية -فلا يظهرها قاصداً أن يجعل محمداً عاجزاً عن تأدية واجبه كطبيب، والغريب أن مرضى المستشفى أنفسهم انقسموا إلى فريقين: فريق الدكتور موريس، وهو يحظى بكل ألوان الرعاية والعلاج التام، وفريق الدكتور محمد، المحروم من كل ميزة.

وفى ردهة القسم الداخلى وقف الدكتور محمد حائراً، كل همه أنه يريد الوصول إلى حلول سليمة دون إثارة شغب أو ضوضاء، غير أن موريس يرفض ذلك، ويتمنى أن يوقع محمد فى خطأ التهور والخلاف العميق، فيشوه موقفه ويعبئ المنطقة الطبية ضده، ومن خلف الباب كان المريض الجديد يقف متتبعًا حركاته، وعندما همّ بالنزول سمعه محمد يقول:

- «أمَا لهذا الظلم من نهاية؟؟».

ooo

الفصل التاسع

هيئة التمريض نائمة، أو على الأصح استلقت كل واحدة منهن على ظهرها، فوق سريرها، هائمة فى عالم آخر يختلف تمامًا عن عوالم الأخريات، المطلقة تبكى الأيام الحلوة، حيث كان جناح رجل ينشر الظل والسعادة فوقها، و«زكية» تحسب ما لها من أموال فى صندوق التوفير، ثم تضيف إلى هذا الرصيد ثمن ما تلبسه فى ساعدها وأذنيها من أساور وأقراط، ثم تفكر فى المشروع الذى يراودها من زمن بعيد، وهى تجارة المسلى، إن ثمنه رخيص فى الفلاحين، وهى تستطيع أن تشترى الزبدة والقشدة وتحيلها إلى مسلى، وستربح من وراء ذلك كسبًا كبيرًا، وكانت «كاميليا» هى الأخرى فى دنيا غريبة متشابكة متناقشة، فى الإسكندرية حيث أمها وأخواتها، وفى طنطا حيث «آه. . » وفى المستشفى هنا. . . الدكتور موريس والدكتور محمد وسعيد سلطان، وتوارد على ذهنها أمس القريب وشغبها مع الدكتور محمد، وأخذت تسأل نفسها لماذا فعلت ذلك؟؟ الحقيقة أن «كاميليا» لم تفكر فى أن تبتذل نفسها: لأحد مثلما حدث بالنسبة لمحمد، ما أغرب نزواتها كأنثى،

كثيراً ما يحنقها أن يتزلف إليها أحد، ويريق فى أذنيها كلمات الثناء والإطراء وكثيراً -أيضًا- ما يطربها أن يحتقرها إنسان، ويسخر منها، بل ويوبخها -وفى بعض الأحيان- تلمح إنسانًا يمر عليها عابراً، فلا تحظى منه بالإعجاب أو التهجم، فيثيرها كأعنف ما تكون الإثارة، وتساءلت مرة أخرى: كيف اندفعت إليه وهى التى كانت تحمل عليه، وتتهم خطته بالسذاجة أحيانًا والحذلقة أحيانًا أخرى؟؟؟

وقطعت عليهن الصمت «كاميليا» حينما قالت:

- «لو خيرنا فى الزواج فمن تختار كل واحدة منكن؟؟».

قالت «زكية» وقد ضايقها أن تقطع «كاميليا» عليها حبل أفكارها:

- «لو دخلنا فى موضوع الزواج فلن ننتهى منه الليلة...».

وهمست المطلقة: «زواج؟؟ هيه.. حلم الجوعان عيش.. قسمة ونصيب...».

أما زميلتهن الرابعة، فقد استحيت أن تتكلم، فلاذت بالصمت، بينما عادت «كاميليا» تقول:

- «من تفضلين يا «زكية»...؟

فقالت «زكية» فى توتر:

- «عندى أن العشرة جنيهات مرتبى أحسن من عشرة رجال..

الجنيه برقبة الرجل . . . ما الذى أستفيده من الرجل غير الهم ووجع القلب؟؟؟» .

فضحكت «كاميليا» طويلاً ، ودقت بكفيها ، ثم غمزت بحاجبيها ، وقالت :

- «يا بنت . . اطلعى . . أنا عارفه ، طيب لو جاءك عشرة رجال فى جيب كل منهم عشرة جنيهات أظن لا مانع . . . . ؟

فلم تعلق «زكية» بغير :

- «اخرسى يا مجرمة . . . » .

وكانت الزميلة المطلقة على جانب كبير من الدهاء ، لقد تقلبت فى تجارب مريرة -وكانت مأساة طلاقها درسًا قاسيًا ، وحبها الفاشل صفعة من الحظ ردت إليها كثيراً من صوابها واتزانها ، وتعلمت كيف تزن كلماتها قبل أن تنطق بها ، وتصرفاتها قبل أن تقدم عليها ، ولهذا عندما أصرت«كاميليا» على أن تسائلها عمن تفضله زوجًا لها ، قالت في خبث وعيناها الحزينتان تشرقان إشراقًا هينًا طارئًا : «أتزوج من سعيد سلطان وقهقهت هذه المرة «زكية» ، وأخذت تضرب جبهتها براحتها مثلما يفعل شكوكو ، أما «كاميليا» فقد جمدت برهة ثم فهمت أن زميلتها تعرض بها ، وتثير من طرف خفى إلى العلاقة العاطفية بين سعيد و«كاميليا» ، والغريب أن هذا لم يفت الملعونة «كاميليا» ، والتى ارتجت لقهقهتها أركان الحجرة الفسيحة ، فتهالكت «كاميليا» أعصابها ، وهمست :

- «ولماذا سعيد سلطان بالذات . . » .

فأجابتها المطلقة بلهجة ماكرة :

- «وظووظ [لهجة عامية فى بعض القرى المصرية تعنى : أنه شاب جميل ووسيم] . . . و . . . ودمه خفيف . . . » .

وفى هذه المرة انطلقت «كاميليا» قائلة :

- «ولأنه يحبنى . . » .

فتراجعت ابتسامة المطلقة ، وخفّت إشراقة عينها ، وهمست :

- «وماذا تعنين ؟ ؟ » .

- «أنت خطافة -وأظنها عقدة نفسية ، لقد خطفت امرأة زوجك ، وأنت اليوم تنتقمين تخطفين سعيد سلطان . . . » .

فى لحظة واحدة تحول الأمر من مزاح برىء إلى تحدٍّ صريح ، واتهامات وعناد وأصبحت «كاميليا» نمرة شرسة ، لقد عاد إلى ذهنها ما همس به أحد التومرجية الجبناء ذات مرة من أن الست «هدى» - المطلقة- تنصب شباكها حول سعيد سلطان ، وترسم خططها على أساس الفصل بينه وبين «كاميليا» والاستحواذ عليه كلية ، وسواء أكانت «كاميليا» تحب سعيد أم تكرهه فإنها تعتبره شيئًا يخصها ، لها أن تستعمله أو تخزنه ، إنه لها ، وليس من حق أية إنسانة -لو كانت هدى زميلتها- أن تستولى عليه . . وبصوت أجش قبيح أخذت «زكية» ترطن بأغنية مشهورة بينما قالت هدى :

- «نحن نمزح يا «كاميليا» . . .» .

- «بل تسخرين . . . وتطعنين . . . .» .

- «حياتنا لا تحتمل هذا الظن الأسود . . .» .

وكنّ جميعًا يحترمن الست هدى لأنها تكبرهن سنًا ، وتحيطهن بعطفها دائمًا ، ثم إنها هادئة الطبع ، قليلة الكلام ، لا تعطى إحداهن فرصة للنيل منها أو انتقادها ، ولهذا فقد أدركت «زكية» ما عليه الموقف من توتر طارئ فتدخلت قائلة :

- «أما أنا فأود أن أتزوج الدكتور موريس . . . فلوسه كثيرة . . .» .

فتدخلت الزميلة الصامتة لأول مرة ، وقالت :

- «لماذا لا تتزوجين الدكتور محمد؟؟» .

فردت «زكية» : «لأنه على الحديدة ، ويحتاج لإعانة اجتماعية من السيد الإخصائى الاجتماعى» ، وسرعان ما تناست كاميليا ما قيل عن سعيد سلطان ، وغاب عن ذهنها أن زميلتها هدى قد غضبت بعض الشيء وتملكها ألم عميق ، واستقامت على سريرها ، وهمست :

- «هس . . ولا كلمة . . الدكتور محمد لى . . أنا . .» .

وقالت «زكية» : «وسعيد . . .» .

- «للطوارئ . . .» .

- «أتحبين الاثنين؟».

- «وما المانع؟ القلب كبير.. ويحب ألوانًا شتى...».

- «وكيف؟؟».

- «هل يمنع أن تحبى الحمام والمانجو وأحذية باتا فى وقت واحد؟؟».

- «لكن القلب له واحد يا «كاميليا»...».

فقالت «كاميليا» وهى تضع يدها فى خصرها وتتثنى:

- «القلب صندوق زبالة يا حبيبتى... رمرام... فيه بلاوى لا تعد ولا تحصى هذا رأيى....».

وهمست الست هدى لنفسها قائلة: «هذه المجنونة تنطق بالحكمة ما زلت أعيش مخلصة لذكرى حبيبى الغادر، ولو كنت عاقلة مثلها أعنى لو كنت مجنونة، لفتحت قلبى لغيره، وكيّفت وضعى الجديد على أسس جديدة».

وأرادت هدى أن تشاركهن المرح والضحك من جديد فقالت:

- «ألا تقرضينى الاحتياطى...؟».

- «يحنن.. ها.. ها.. ها.. خذى موريس الثور الأكبر».

وانفجرت زكية: «عريس؟ ثور؟؟».

فأردفت قائلة: والثيران على أشكالها تقع..؟

ثم وقفت كاميليا فوق سريرها ، واختطفت شالاً من فوق المشجب ولفته حول خصرها وهتفت :

- «صفقوا يا أولاد . . عشرة بلدى . . » .

وأخذت كاميليا تطوح يديها وقدميها ، وتثنى خصرها ، وتميل برأسها يمينًا وشمالاً ، وتكور عجيزتها ، ثم تتقدم وتتأخر ، وفى الوقت نفسه تترنم ببعض الأغنيات الراقصة ، وزميلاتها يضربن بأكفهن فى إيقاع رتيب ، ورويدًا رويدًا لفهن جو المرح والبهجة ورقصات كاميليا الثائرة المتمردة فنسين كل شىء إلا لحظة الانسجام والسعادة الحاضرة ، وفجأة توقفت كاميليا عن الرقص ، ثم جرت ناحية النافذة ، وأطلت منها ونادت التومرجى النوبتجى ، وقالت :

- «الست كاميليا مريضة . . مريضة جدًا . . استدعِ الدكتور محمد فورًا وإلا ماتت . . مفهوم . . مفهوم . . »

ثم عادت لترقص وتغنى وتعبث من جديد . .

●●●

الفصل العاشر

حينما انتهى المطاف بالدكتور محمد إلى قريته التى يعمل بها لأول مرة شعر أنه قد عاد إلى أم حنون، واليوم وهو يرحل إلى القاهرة فى زيارة تستغرق بضعة أيام لزوجه وطفليه يشعر أيضًا أن القاهرة هى الأخرى أم حنون، القرية والقاهرة كلاهما يثيران فى نفسه الانفعالات المتحددة.. يحب الاثنين فى وقت واحد لو خُيِّرَ بينهما لما استطاع الاختيار، ففى كل ناحية يجد ذراعين مفتوحين، وحنينًا دافقًا ودفئًا رائعًا..

وعندما بلغ مدخل القاهرة، بانت له مآذنها ومبانيها الشاهقة، ومداخن المصانع والعربات المتزاحمة، خفق قلبه خفقة حب، لشد ما برح به الشوق إلى مدينته الحية النابضة بالحركة، وهناك بعيدًا فى حى من أحياء الجيزة تجلس زوجه على وهج الانتظار، وطفله الصغير يغنى بابا.. بابا. وأدرك الدكتور محمد أن أيام العمل المتواصل والصراع العجيب الذى يخوض غماره، قد صرفاه لحد ما عن التفكير فى عشه الوادع الأمين، وهو يشعر أنه فى رحلة ترفيهية، يجب أن ينسى إلى حين مشاكل موريس وكاميليا الملعونة،

والمرضى وحامد التومرجى والهمسات الآثمة التى تدور ووشايات السوء التى لا تنام، وابتسامات موريس الميتة، وتوتر أعصاب سعيد سلطان التى لا يفهم لها معنى، وأولئك الذين كانوا يميلون على أذنه قائلين فى صوت خفيض: «خذ بالك.. الذئب ينام وإحدى عينيه مفتوحة.. كن ذئبًا لأنك تعيش فى غابة متوحشين».. يجب أن ينسى مآسى المساومات والإغراءات.. الذهب الموعود.. آه لو فتح قلبه وجيبه ومد يده للذهب، لركب عربة خاصة، ولعاد لزوجه ومعه الكثير، ولأحضر لها الخاتم الذهبى المحلى بالجواهر، الذى تحلم به دائمًا، ولاشترى لأبيه أرضًا يزرعها، ولفعل كذا وكذا.. ولكن خير له أن يركب القطار بالدرجة الثالثة، ويترنح تحت ضغط المسافرين، وخير لزوجه أن تمضى بلا خاتم، ولأبيه أن يقنع بما يملك، هذا كله خير من أن يغرق ضميره وعقله فى مستنقع الجشع والأنانية والكذب.

وتنهد محمد تنهيدة طويلة، حملها ما يثقل كاهله من أعباء مرهقة، وابتسم فى سعادة حقيقية، لقد أمكنه أن يدخل الميدان وينتصر على نزاوته كبشر قبل أن ينتصر على معارضيه، وتحولت فلسفته المجردة إلى خطة مطبقة، كان يرى المال- بخياله - يغريه فيهرب منه أو يركله بقدمه ازدراء لكنه اليوم رآه رأى العين، فتعفف عنه وانتصر لمبادئه وعزته، وبعد دقائق سيضغط على جرس الباب وسيسمع زوجه تجرى لتفتح له الباب ولتفتح أيضًا ذراعيها، وسوف يضمها إلى صدره فى حنان ملتهب، ويصب فى أذنيها

كلمات الشوق المتلهف، وسيحكى لها عن تجربته الرائدة فى عالم القرية، وما أثارته من ضجيج وتعليقات، وكيف أنه راضٍ عن خطته تمام الرضا بعد محاولات التطبيق، وأنه يشعر أنه يمضى فى الطريق ليكون إنسانًا . . إنسانًا كاملاً، يؤمن بالبشر؛ لأنه يؤمن بخالق البشر، ولأنه يحب الدنيا ولكنه لا يكره الآخرة، ويستمتع بالمال لكنه لا يذل نفسه له، ويقدر ثمن تعبه ويأخذ الثمن لكنه لا يستغل . .

ودخل محمد شارعه . . صاحب المقهى المجاور رآه من بعيد فهرول إليه مرحبًا وحامدًا الله على السلامة، سائلاً الدكتور عن الوقت الذى سينتقل فيه مرة أخرى إلى القاهرة، وكذلك أتى صبى المقهى وعم «على» البواب، وبعض الأصدقاء الذين تصادف وجودهم بالمقهى فى ذلك الوقت . . وكان محمد يرى فى أعينهم الحب الصادق، ويلمح على وجودهم الإخلاص واللهفة . . إنهم مثل أهل قريته تمامًا لا يكذبون أمام المواقف المجردة من الهوى، تلك التى لا بيع فيها ولا شراء، وسمع وهو يصعد السلم صوت زوجة البواب ينبعث من حجرة تحت السلم :

- «ألف حمد الله على السلامة، النبرات العميقة ذاتها التى لا تعرف الرياء، لطالما خُيِّل إليه فى لحظات كثيرة أنه يفتح ذراعيه ليعانق العالم كله، ويضمه إليه فى حنان بالغ، إنها لحظات يشعر خلالها بذوبان تام في كل مخلوقات الله، ويشعر أيضًا أن قلبه قد اتسع بصورة لا تحدها حدود وأنه فى الإمكان أن يستوعب ملايين

المخلوقات حتى الأعداء . . وهو يعنى بالأعداء مرضى النفوس والمنحرفين عن سنة الحياة المثالية ، وقبل أن يدق جرس الباب ، فوجئ به ينفتح ، ويسفر عن وجه زوجه ، وتلون وجهاهما ، وارتعاشة حلوة خفقت خلف الضلوع ، ورقصت ابتسامة عذبة خجولة على الشفاه ، لكأنها لحظات الزفاف من جديد ، وأمسكت بيده وجذبته إلى الداخل فى توتر جميل ، وتعانقا ، وهى تقول :

- «كنت أقف الساعات الطوال خلف زجاج النافذة كل يوم . . » .

- «كنت أراكم فى يقظتى ومنامى . . أشعر بذراعى الصغيرين تحوطان عنقى ، وبثغريهما الرقيقين يرطبان وجنتى ثم أفيق فلا أجد أحدًا . . » .

ونظر إلى عينى زوجه كانت تدران الدموع ، ثم دفنت رأسها فى صدره فبللت قميصه ، فقال :

- «ماذا؟ أتبكين؟» .

- «من الفرح . . » .

- «يا حبيتى!» .

- «يا حبيبى لا تتركنى مرة ثانية أستحلفك بالله ألا تتركنى وحدى . . لماذا تزوجنا إذن؟؟ ألنعيش بعيدين كل منا فى واد . . أقسم لك لم أكن أعرف للأكل مذاقًا ، لم يكن يحلو لى منامٌ . .

وقضيت الليالى على أمل لقياك فأجتر الذكريات- ذكريات حلوة لكنها جارفة تبكى فى نفس الوقت. . يا لها من أيام».

وكادت تسرى إليه عدوى الانفعال الباكى، لكنه تماسك، وأخذ يضمها إليه فى حرارة، واكتفى بقوله:

- «كثيراً ما هزنى الشوق إليكم. .».

- «لم أعد أحتمل. . أخاف عليك. .».

- «ممن؟».

- «أولاد الحرام. .».

- «اطمئنى فقد عدت منتصراً. .».

فتخلصت منه برفق، وقالت فى لهفة:

- «هل تقررت عودتك إلى القاهرة وترك الريف نهائيًا؟؟».

- «على العكس. .».

فقالت وقد بدا الحزن فى عينيها:

- «ألم تعدنى بالعمل على ذلك؟».

- «لكنى غيرت رأيى. .».

- «ترى ماذا جرى؟».

- «ماذا جرى؟ هيه. .»، وشرد ببصره بعيداً واستطرد:

- «قولى ماذا كان يجرى . . أوضاع مقلوبة . . وجدت أهلى وجيرتى من سكان القرية يعيشون فى ضياع . . كل شىء يباع لهم حتى حقوقهم، ما عاد أحد يثق فى الخدمات العامة . . لا علاج لمن لا يدفع، لا خدمة لمن لا يبادر بالثمن، حتى صار الانحراف عرفًا، واستسلم الجميع للقضاء . . للعرف المنحرف، ولهذا عولت على أن . . » .

فقطعت عليه حديثه، وهرولت صوب حجرة النوم، وهى تقول :

- « تعالَ لترى الصغيرين وهما يغطان فى نوم عميق . . لا بد لك أن تقبلهما أولاً . . » .

فتبعها وهو يتجول بنظراته فى أركان الشقة، هذه هى مكتبته التى تغص بمئات الكتب الدينية والأدبية والفلسفية، وتلك هى صورة الإمام محمد عبده وجمال الدين الأفغانى، وفى ركن آخر صورة الفيلسوف الشاعر محمد إقبال، لشد ما يحب هذا الإنسان، وأيقظته من شروده بندائها :

- «أقبل . . لقد أعددت لك أيضًا طبقًا من «قمر الدين» المطبوخ . . أوه . . نسيت أن أخبرك بأننى قد سجلت خواطرى فى مذكرات رائعة كلها عنك، سوف أقرأ لك منها صفحة واحدة على الأقل الآن . . ثم انظر صورتك الجديدة، لقد كبّرتها بريشتى واشتريت لها إطارًا جميلاً مذهبًا، ولم أنسَ أن أشترى لك أحدث ترجمة لرواية «الأبله» لدستوفيسكى - أعرف أنك متيم بالقصص .

كانت زوجه تتكلم كثيراً وتطرق موضوعات شتى، وتختطف من كل موضوع كلمات قصيرة، وتزحم أذنيه بالأخبار المختلفة عن الأصدقاء والجيران والأقارب، وعن الرؤيا التى خالطت نومها ليلة أمس، وعن الروايات المعروضة فى دور السينما والمسارح . . » .

أما هو فقد قصد الطفلين وانحنى عليهما، وأخذ يقبلهما فى حرارة وجوع، حتى تململا فى فراشهما، فجذبته إليها مرة أخرى، هى تقول :

– «ما هكذا يكون تقبيل الأطفال . . هل نسيت نفسك؟» .

وتنهد وهو يخلع ملابسه، وكانت قطرات من السكينة والرضا تنسكب فى قلبه، وصمت مريح يسود الحجرة وسريره النظيف بملاءته البيضاء يُشْعِرُه بالهدوء والاطمئنان، وستائر الشرفة تتموج فى كسل وجمال، وساعة المكتب تدق فى رتابة، ووجه الصغير يشع روعة، وجلال ينساب فى فؤاده المتعطش فيحييه، والسعادة التى تكاد تنطق فى وجه زوجه تمنحه السلام والحب الدائم، وجاءه صوت زوجه تقول فى خبث :

– «هل يعمل معك فى المستشفى فتيات جميلات؟» .

فقال وهو يدارى ابتسامة ماكرة :

– «لكنهن لسن أجمل منك . . » .

فهرولت إليه وأمسكت بزنده العارى قائلة :

- «اسمع . . ».

فأدار وجهه نحوها مبتسمًا دون أن يتكلم، فقالت متصنعة الغضب:

- «إياك أن تفكر في النظر إلى إحداهن . . ».

- «لكني لست أعمى، ولا أستطيع أن أغمض عيني . . ».

قالت في إصرار:

- «بل تستطيع . . ».

- «كيف؟؟».

-« هكذا . . وأغمضت عينيها في عصبية»، فرد عليها وهو يقهقه:

- «سيضحك الناس مني . . ».

- «بل سيقولون مؤدب ويحترم زوجه . . ».

- «كلا سيتهمونني بالبلاهة، ويرمونني بالخوف من زوجتي . . ».

فقالت وهي تستدير أمامه، وتمنعه من مواصلة لبس منامته:

- «ماذا في ذلك؟؟ هي من العار أن تخاف زوجتك . . ».

- «لكن . . ».

- «لكن ماذا؟؟ انطق. . أعرف أنك زائغ العينين. . اقسم بشرفي، لو نظرت يمينًا أو شمالاً، أو فكرت في مداعبة إحداهن بالنكات والضحك، أو جالستهن. . لـ. . ».

فقال وهو يضع حدًا لغيرتها وثورتها:

- «اطمئني. . ليس في القلب غير واحدة. . ».

فقالت وهي تعرف الإجابة سلفًا:

- «مَنْ؟؟».

- «لن أقول. . ».

- «مَنْ؟؟ وإلا جننت. . ».

فمال عليها وقبلها في حرارة، فلم تكف بذلك بل عادت تقول:

- «اعترف. . مَنْ هي؟؟».

قال ونظراته الحنونة تلامس وجهها النضر وعينيها الواسعتين وشعرها الأسود الفاحم:

- «ومَنْ غيرك يا حبيبتي؟».

فغمغمت في سعادة: «هكذا يكون الكلام. . ».

ثم سمعها تقول مرة أخرى:

- «اعلم أني أبث حولك العيون. . ».

- «جواسيس؟؟ أعوذ بالله . . وماذا فى تقريراتهم عنى؟» .

- «كل خير . . » .

وتمطى الصغير فى فراشه وأخذ يتقلب، ثم حاول الجلوس وفتح عينيه للحظات، ثم أغمضهما وعاد ليفتحهما من جديد ويدقق النظر فى أبيه الذى أشرق وجهه بابتسامة عذبة، وسرعان ما زحف الصغير على يديه وركبتيه صوبه، وهو يغمغم فى لهفة طفولية عارمة: «بابا . . بابا. شيكولاتة يا بابا: . »، فتمتم وهو يلتقطه بين ذراعيه الحنونتين: «تعالَ يا حبيب بابا . . » .

●●●

الفصل الحادى عشر

فترة جميلة، تلك التى قضاها الدكتور محمد بين زوجه وطفليه- نسى خلالها تمامًا عويص المشاكل وألم الإرهاق، وتوتر الأعصاب، لم يكن يخطر على باله قط الأحداث المثيرة التى هزت أرجاء المستشفى إلا فى أوقات قليلة حينما كانت تلح عليه زوجه طالبة المزيد من أخباره وأحواله وعلاقته بأهل القرية والعاملين فى حقل الوحدة المجمعة.

وكانت الزوجة تشم فى كلمات زوجها وحركاته ما ينبئ عن اهتمامه بقضايا مواطنيه فى القرية فى المجالين الاجتماعى والعلاجى، وخاصة عندما قال لها: «إننى أشعر الآن أنى حى.. فالنضال من أجل شىء فاضل هو فى الحقيقة فضيلة كبرى، لقد خرجت من أروقة الجامعة، وتخلصت من قيود النظريات البحتة إلى عالم الممارسة.. أنا مسئول يا عزيزتى: أليس هذا جميلاً ورائعًا؟ شهيتى للعمل مفتوحة دائمًا، ونفسى ليست معلقة بمطمع تافه، لذا أشعر براحة كبرى.. الآن فقط أدركت لماذا يثنى الله على المجاهدين فى سبيل الله..».

وأطرق صامتًا ونظر إلى زوجه فوجدها شاردة، فاستفسر عما بها لكنها ماطلت، وأدرك على الفور أنها تأبى مصارحته، فقال مصراً:

- «يجب ألا تكتمى شيئًا عن زوجك، ألم نتعاهد منذ البداية على الصراحة؟ تكلمى يا حبيبتى..».

فقالت والشك والتردد يخالطان نظراتها:

- «لكن كلامى لن يحظى بالقبول لديك..».

- «لكنى فى الوقت نفسه لا أعترض على مجرد إبداء الرأى.. أحب الحرية وأكره أن تكتمى فى نفسك شيئًا..».

ولم تستطع أن تخمد نوازع الشك والتردد فى نفسها، ومع ذلك فقد تشجعت قائلة:

- «معنى تصرفاتك هذه أن نبقى كما نحن..».

- «افصحى..».

- «ستبقى كما أنت موظفًا ذا مرتب صغير، وبهذا لن نبنى منزلاً طالما حلمنا به ولن يزداد دخلنا، ولن نركب عربة خاصة كخلق الله الكثيرين.. كالأطباء زملائك، و..».

فقاطعها فى جفوة:

- «لعلك تريديننى لصًا؟؟».

- «ليس معقولاً..».

- «فكيف يزداد دخلنا إذن، ونشترى عربة ونبدأ فى إنشاء بيت خاص؟».

وهمّت بالتراجع، لكنها دفعت نفسها دفعًا لمواصلة الحديث آملة أن تصل إلى حل موفق، ولهذا أردفت:

- «آمالنا تتحقق عندما لا نتذرع بالمبالغة والإسراف فى مثالياتك..».

- «كيف؟».

- «قد تُسامَح على إحسانك على الفقراء والأقرباء والأصدقاء، أما أن تسوى فى المعاملة بين الغنى والفقير، وتمشى على قدميك كيلومترين أو ثلاثة ذاهبًا إلى قرية مجاورة، ثم توقع الكشف الطبى مجانًا فهذا ما لا أقرك عليه.. يا حبيبى.. خير الأمور الوسط..».

- «والقانون؟؟».

قالها الدكتور محمد وهو يعض على سبابته اليسرى مهتمًا، فقالت زوجه:

- «ليس القانون عادلاً دائمًا..».

- «والحل..».

- «والحل أن نتصرف بلباقة..».

- «تقصدين أن نطأ القانون بأقدامنا، حسبتك تقولين أن نحكم

ضمائرنا، قد يكون هذا صحيحًا بعض الشيء لكن الضمير . . آه . . ماذا أقول؟؟ أجل . . أقصد أن الضمير انبعاث ذاتي . . والقانون سلوك موضوعي، أعني أن الضمير فرد، والقانون بتمثيله للمجتمع وتعبيره عن عقول كبيرة هو الضمير الأكبر . . هل تفهمين ما أقصده؟؟ . . »، وبدء الملل والضيق على ملامحها، فقالت وهى تتململ :

- « إنك تبذل أضعاف ما يطلب منك من جهد، والدولة لا تعطيك أضعاف مرتبك، ومن ثم فقد يكون لك الحق فى شىء إضافى، فى ظروف معينة كحالة الانتقال إلى بلد قريب أو ما شابه ذلك . . ».

- «عزيزتى . . ».

- «نعم . . ».

- «يسعدنى أن أسير فى طريقى كما أنا . . ».

- «لكنه يفقرنا . . ».

- «ليس تمامًا، والسعادة فى رأيى هنا . . ».

وأشار بيده إلى صدره، وواصل :

- «وليست فى عربة أو منزل خاص أو رصيد فى بنك، ثم إن ثلاثين جنيهًا مبلغ كافٍ جدًا يا عزيزتى . . ».

فقالت دون أن تقتنع تمامًا بما قال :

- «ثلاثون جنيهًا لطبيب . . ».

- «لطبيب . . لمهندس . . لمدرس . . هذا لا يهم، كلنا بشر - رحم الله جدتي كانت تقول لي عندما دخلت كلية الطب : ألف مبروك الدكاترة فلوسهم ياما . . ».

فتمتمت زوجه قائلة :

- «رحمها الله . . لو عاشت لأعادت النظر فيما قالت . . ».

وظل محمد يجاذب زوجه أطراف الحديث، لكنه حاول جاهدًا أن يقنعها بمنطقه، ويبين لها حقيقة ما يرمى إليه، والواجب المنوط، أراد أن يفهمها بأنه ليس من الضرورى أبدًا أن يكون كأقرانه، بل الأروع أن يكون نسيجًا وحده- ويتميز عليهم بمسلكه الخاص النظيف، وهو يحرص على هذا السلوك حرصهم على اقتناء العربات ورصيد البنوك، والناس يختلفون فى مشاربهم، منهم من يجد السعادة فى تربية الكلاب، وآخرون يشتهون تبنى الأطفال، وآخرون يسعدون بأحدث نماذج العربات، وغيرهم يعشقون المال، والبعض يحبون الفضيلة، ويتفانون فى إسعاد الآخرين وهمست زوجه فى حيرة . .

- «آه . . الآخرون . . ».

فقال : «نحن نعيش لهم . . ».

- «ولأنفسنا يا محمد . . ».

- «أجل ولأنفسنها . . » .

وأدركت أن منطقه أقوى حجة ، وأسطع رواء من منطقها ، وشعرت أيضًا أنه بمبادئه أطول قامة وأصلب عودًا ، وأغنى قلبًا من أصحاب العربات والرصيد ، وخاصة أنه يعف عن المغانم عن طيب خاطر ، ويصنع هكيل فضيلته بإرادته وإصراره ، وليس مرغمًا على الجهد المضاعف الذى يبذله ، كما أنه ليس مدفوعًا غصبًا عنه إلى التخلى عما فى أيدى الناس ، ولم يكن من الصعوبة أن تدرك أن زوجها ليس من «هواة الفقر» ولكنه من عشاق الفضيلة ، ثم دار بذهنها تلك الصورة المشرقة التى وشاها خيالها ، صورة الأكف العجفاء ، والعيون المخضلة بالدموع وهى ترتفع إلى السماء إلى الله داعية لزوجها بطول العمر ، ودوام التوفيق والسيرة العطرة التى تروى عن نبله ونظافته ، وتتردد على الشفاه كأغنية حلوة شجية ولن يغب عن ذهنها أن زوجها متميز فى خلقه ، متفرد فى فضائله ، تمامًا كما تفرد وتميز فى قلبها عندما اختارته زوجًا لها دون غيره من المتقدمين لها ، وتميزه بالأمس فتح باب قلبها ، فأحبته حبًا لا حدود له وتميزه اليوم هو الذى سيفتح أيضًا قلوب الآلاف فيحبونه - كما أحبته - حبًا لا حدود له ما أروع أفكاره وتصرفاته ، وأشرقت ملامحها إشراقًا نابضًا ، ودقت فى قلبها أجراس عيد الميلاد ، ثم عزفت فى أعماقها أنغام ندية حنونة ، فالتفتت إلى زوجها ، وقالت :

- «زوجى . . ».

- «نعم . . ».

- «أنت عظيم . . ».

- «إنى أبارك فضائلك يا حبيبى، وتأكد أن الله لن يخذلك، وستنتصر دائمًا، وسيغدق عليك خيراته ونعمه، وتكون أغنى الناس . . ».

- فقال ضاحكًا:

- «ما زلت تفكرين فى الغنى . . و . . والعربات والرصيد . . ».

- «أبدًا يا عزيزى . . الغنى غنى النفس . . نحمد الله . . ».

قال وهو يصفق فى طرب:

- «لقد انضم إلىَّ صوت جديد . . ».

فأسرعت قائلة:

- «دائمًا صوتى معك، حتى ولو خالفتك الرأى . . أنا أنت . . والنفس الواحدة قد تتصارع جزئياتها أحيانًا إنه مجرد تفاعل طبيعى . . ».

- «زوجتى تتكلم كفيلسوفة . . ».

- «وأنت تتحدث كرجل من رجال الله».

●●●

ولم يحدث طوال إقامته بالقاهرة ما يعكر الصفو . . لكن قرب النهاية، وجد محمد أن زوجه مصرة على السفر معه إلى الريف حتى تضع حداً لهذا الفراق المرتقب، ولكى تسهر على راحته وتكون إلى جواره، تساند كفاحه، وتخفف من حدة مشاكله، وتواسيه بالرأى والكلمة الطيبة والابتسامة الحلوة، ولتنهى خدمة تلك العيون التى تبثها حوله، وذهل زوجها فى بداية الأمر، كان يظن غير ذلك، لهذا قال :

- «حسبتك تنفرين من الريف وحياته . . » .

- «هذا حق . . فى بداية الأمر تصورته أمراً شاقًا؛ لأن وسائل الحياة ميسرة هنا تمامًا وألوان الترفيه متوفرة . . لكنك استطعت أن تكيف وضعك، وتأنس بالجو هناك، وأنا لست أقل منك . . ثم أن هذا واجبى . . » .

قال محمد: «هناك نعيش بلا ضجيج . . » .

- «جميل جداً . . » .

- «والمذياع والطاولة هما التسلية الوحيدة . . » .

- «يكفى جداً . . » .

- «والبعوض كثير . . » .

- «بالفلت والناموسية نتغلب عليه . . » .

- «وزوجة موريس متعبة . . » .

- «أنا أتولى تهذيبها . .» .

وتنهد محمد ثم قال :

- «وأخيرًا ليس معنا من المال ما يكفى لنقل أثاث البيت إلى هناك، لن يتكلف أقل من خمسة عشر جنيهًا» .

وهنا صمتت زوجه، ها هو المال يقف عقبة فى تنفيذ أمر مهم يتعلق باستقرارها واستقرار زوجها، وعاد ذهنها على التو إلى ما دار بينهما من حديث حول السعادة والمال، ولو قبل زوجها ما اقترحته آنفًا لأمكنه أن يحصل على هذا المبلغ فى ثلاثة أيام، لكن دفعت عن قلبها وساوس الشيطان، وكتمت نزغات التمرد التى توشك أن تثور فى أعماقها، لقد انتهى الأمر واقتنعت بمنطق زوجها، فلا يصح أبدًا أن تتراجع أو تهتز فى قلبها دعائم الإيمان الجديد برسالته، فقالت فى ألم :

- «نبيع قطعة ذهبية . .» .

- «لا داعى لهذا يا عزيزتى، نستطيع أن ندخره من مرتبنا فى الشهرين القادمين . .» .

- «لكنى لا أستطيع الصبر شهرين . .» .

- «لننتظر حتى ينجلى الموقف، ويزداد وضعنا الجديد رسوخًا ثم نبدأ فى بناء استقرارنا العائلى هناك . .» .

فقالت غاضبة وقد أعطته ظهرها :

- «إنك لا تريد لى الذهاب معك. .».

- «أتعتقدين ذلك حقيقة؟ . .».

ولما لم تجب ربت على رأسها فى حنان صادق، وهو يخفف لها الأمر، ويجلو الغبار عن حقيقة موقفه، ويؤكد لها أنه سوف يصل بإذن الله إلى حل قريب يضمن لهما راحة البال.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، والطفلان يغطان فى نوم عميق، ومحمد يغسل رأسه ووجهه ويسبغ الوضوء على أعضائه فى توتر وانفعال، وزوجه تتحرك فى انفعال عاصف ولا تستطيع أن ترفع عينيها إليه، وتجمع المنشفة والمنامة والصابون وبعض الكتب والأوراق لتضعها فى الحقيبة، ولدى الباب بكت زوجه، ثم تشبثت به قائلة:

- «أتسافر؟».

- «بالطبع. . ما الذى يبكيك الآن؟؟».

- «يعز علىّ فراقك. .».

- «لكنى سأعود. .».

- «خذنى معك. .».

- «انتهينا إلى اتفاق أمس. .».

- «قلبى يتمزق يا محمد. .».

- «الرحمة لا أستطيع أن أحتمل هذا . . يجب أن أسافر فى سكون، إنك تعلمين أن أعصابى تحترق، وفراقك قاسٍ علىّ، والوادع لا يصح أن يكون بكاء بل كلمات تشجيع ومواساة . . ».

فابتسمت والدموع فى عينيها، ثم سارعت بتجفيفها، وقالت وهى تتكلف الثبات والقوة:

- «مع ألف سلامة، لكن أستحلفك بالله أن تنظر إلىّ وأنت تمر تحت شرفتنا . . ».

ودق درجات السلم الحجرى بخطوات متلعثمة مسرعة، وعندما رفع عينيه إلى أعلى، كانت تلوح له فى انفعال وابتسامة مرتجفة ترتسم على ثغرها، وعندما توارى عند انحناءة الشارع القريبة، تناهى إلى سمعه صدى نشيج خافت هزه من الأعماق، فأفلتت على الرغم منه دمعة يتيمة، لم يذرف بعدها شيئًا، فقد شعر بقلبه يتنزى دموعًا من الداخل.

●●●

الفصل الثانى عشر

قضى محمد فى مدينة طنطا ما يقرب من ثلاث ساعات بحثًا عن أية وسيلة يصل بها إلى القرية، إن أمامه عشرين كيلو مترًا، وليس هناك قطار أو عربات منتظمة، كان قلقًا لتأخره عن بلوغ القرية فى الموعد الذى حدده، وتضايق من الوقوف تحت وهج الشمس الحارقة فى انتظار عربات الأجرة التى لا تأتى إلا مصادفة، وازداد ضيقه عندما عادت إلى ذهنه صورة الدموع الغالية التى ذرفتها زوجه، وشهقاتها التى كانت تتناهى إلى سمعه من بعيد، وتنفس الصعداء حينما قدمت إحدى العربات المتهالكة، ولم يكد يدس جسده فى داخلها حتى وجد نفسه محشورًا بين أحد عشر راكبًا، برغم أن العربة لا تتسع لغير سبعة ركاب، كان يحاول أن يحرك ساقًا أو ذراعًا، أو يغير من جلسته المضنية فلا يستطيع، وطفل صغير قد تلوثت يداه بقطعة من الحلوى الطحينية لوث سرواله، وهو يحاول الاتكاء عليه، وطفلة لم تتجاوز العام تصرخ بصوت مرتفع، وتاجر ماشية يتناقش مع زميله بنبرات مزعجة، ودخان السجائر الملفوفة ممتزجًا بالتراب، والهواء الساخن يكاد

يزهق أنفاسه، وصبية ملحاحة رثة الثياب، ملتهبة العينين تقدم له زجاجة من الكوكاكولا ولا تعترف باعتذاره عن الشرب، ومتسول فارغ العود يجذبه من كمه وينظر إليه نظرات ضارعة متوسلاً إليه يعطيه شيئًا لله، وفى طريق مترب ممتلئ بالمرتفعات والمنخفضات سارت العربة، وشعر الدكتور محمد بالعرق الغزير يبلل قميصه وخاصة ياقته، وينزل على جبينه، ويثير فى نفسه التقزز والضيق، والعربة كخلية النحل، الجميع مشتركون فى الحديث، والضجيج يعلو ويعلو، والطفلة الباكية تأبى أن تصمت، عندما اقتربوا من محطة المرور توقف السائق على جانب الطريق فى محاولة للاختفاء، وطلب من أربعة من الركاب أن يغادروا العربة، حتى لا يتعرض لعقوبة «المخالفة» ثم يلحقوا به بعد النقطة بنصف كيلو متر، وسوف ينتظرهم هناك، ورفض بعضهم، وقال أحدهم: «ولماذا أنا بالذات ألأنى لست أفنديًا، وهمس آخر: «ما دمت أدفع الأجرة كاملاً فلن أغادر العربة، ليس فينا خيار وفاقوس. . »، أما السائق فقد ترك العربة وفرك يديه فى غيظ، وقال: «لننتظر هنا حتى تستقروا على رأى وستبقى العربة واقفة وأنتم المسئولون عن هذا التعطيل. . »، وفى هدوء حانق انسل محمد من بين الركاب، وسار فى الطريق المترب تحت حرارة الشمس اللافحة وسمع السائق من خلفه يقول لهم: «يا عديمى الذوق والأدب. . انظروا الأفندى. . لستم أحسن منه يا زبالة. . ».

وسارت العربة بركابها السبعة، حتى توقفت عند نقطة المرور،

وخرج الشرطى من حجرته الصغيرة، ثم نظر داخل العربة بعين فاحصة، ولم ينسَ أن يفتش الحقيبة الخلفية، ثم عاد ووقف إلى جوار السائق، وسدد إليه نظرات ساخرة مهددة، وقال:

- «وعلى عمك؟؟ أنا لا أخدع يا أسطى.. لقد رأيتك وأنت تنزل الركاب من بعيد.. بشرفى لن أتركك دون مخالفة، أترك العربة وتعالَ معى.. وهات الرخصة..».

وتكهرب الجو، وضاقت صدور الركاب، وبعضهم أشفق على السائق المتهور المسكين، والبعض الآخر آلمه التعطل والجو الخانق، لكن أحد الخبثاء قال فى صوت خافت: «أم خمسة تحل الأشكال.. حركات قديمة.. كل نقط المرور لصوص بطنهم واسعة..»، وبعد دقائق عاد السائق مبتسمًا، ثم أمسك عجلة القيادة وضغط بقدمه، وسارت العربة من جديد، وعند أول انحناءة فى الطريق الملتوى، التقط السائق الركاب الأربعة وبينهم الدكتور محمد.

ولم تبلغ العربة القرية، فآخر الخط يبعد عنها حوالى ثلاثة كيلو مترات، ومن ثم انتزع الدكتور محمد حقيبته، وعبر الجسر المجاور، ومشى بين الحقول الخضراء والبهائم والحمير النائمة تحت الشجر فى كسل وتراخٍ، كان يخطو فى ممشى ضيق تبلله المياه الراشحة وروث البهائم، وحينما بلغ الوحدة المجمعة كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد الظهر فتنفس الصعداء، وقصد لتوه حجرة المكتب كى يستريح قليلاً ويسترد أنفاسه اللاهثة، ولفت نظره أن موريس فى حالة نفسية هادئة، وابتسامته هذه المرة تبدو حقيقية

وفيها روح التحدى والسخرية أيضًا، وسعيد سلطان يضحك بأعلى صوته فى الحجرة المجاورة، وزكية تمشى بجسدها المترهل غير عابئة بشىء، لكنها سددت إلى الدكتور محمد نظرات ذات معنى، أما التومرجى «حامد» فقد استقبل الدكتور محمد قائلاً: «حمد الله على السلامة يا بيه. . رجل عزيزة. . »، قالها وهو يغمز بإحدى عينيه والبهجة تتفجر فى عينيه وملامحه وحركاتها، أما كاميليا فقد مرت عليه فى خطوات متعثرة متوترة، ولم تلق عليه التحية المعتادة، وذهل الدكتور محمد عندما سمع الدكتور موريس يقول: «زجاجة كوكاكولا مثلجة لمحمد بك يا حامد»، هذا الكرم الطارئ لا بد وأن له دلالة عميقة، وهذه الظواهر الجديدة فى المستشفى تخفى وراءها شيئًا ما. .

لم يكن محمد قد استرد أنفاسه اللاهثة بعد، ويده تجرى على جبهته بالمنديل الأبيض فى محاولة لتجفيف العرق المتقاطر، واختطف موريس من أمامه ورقة صغيرة ثم قدمها إلى محمد قائلاً:

- «وقع بالعلم يا ملك. . ».

وجرت عينا محمد على الورقة. . من المنطقة الطبية إلى الدكتور محمد صادق - تقرر انتدابكم للعمل بمستشفى المركز الاجتماعى فى قرية «. . . » لمدة شهر لحين عودة طبيبها من عطلته المرضية- رجاء التنفيذ فوراً. . وارتعشت يد محمد بالورقة، وداهمه غمٌّ مفاجئ، إن الأيدى الخفية ستلعب دورها، وسوف تصطنع له المتاعب والقلق، وتحرمه من أبسط حقوقه - الاستقرار- فلماذا

ينتدب هو بالذات ولا أحد غيره؟ ولماذا هذه الشماتة الواضحة التى تتجلى على وجوه الجميع: موريس، حامد وسعيد سلطان؟؟ هل فى المسألة انتقام وتأديب، أم هى مجرد حادث عادى يتكرر دائمًا ولا يثير كل هذه التساؤلات؟ أترى يكون الدكتور محمد مبالغًا فى تصوراته، ومحملاً الأمور فوق ما تحتمل من التفسير والتدليل؟؟؟

- لماذا لا توقع؟.. هل أنت ممتنع؟..

قالها الدكتور موريس ونظراته تطل من عينى ذئب، فأجاب محمد:

- «أتعتقد أن التنفيذ ضرورى؟..».

- «بالطبع..».

- «والامتناع..».

- «لا أرضاه لك، أنت فى بدء حياتك الوظيفة، والعناد لن يورثك إلا عداوة رؤسائك - وتحديك مستقبلاً..».

- «قال محمد: هذا مزعج..».

- لكنه أفضل من التحقيق والنيابة الإدارية، ماذ لو حدثت فى المستشفى التى انتدبوك إليها أية حادثة وافتقدوك هناك؟.. كارثة كبرى لا شك.. يجب أن تقوم وتستلم العمل هناك فورًا..».

ووقع محمد على الإشارة بالعلم، وعندما سلمها إلى موريس، لاحظ عديدًا من العيون ترقبه داخل المكتب وخارجه، وحدثته

نفسه أن هناك تدبيرات حقيرة لا يعلمها، قلبه غير مستريح تمامًا لما حدث، قد يكون تصرف المنطقة الطبية قانونيًا، لكن شيئًا ما فى داخله يحرضه على المخالفة ويؤكد له سوء النوايا التى تحركه، وسمع موريس يقول:

- «أظنك متضايقًا..».

- «لحد ما، لكن هناك عمل، وهنا عمل.. تغيير جو. الحمد لله ليس معى أسرة يزعجنى فراقها تمامًا.. لكن..».

وأردف موريس: «لكن ماذا؟؟».

- «أما كان فى الإمكان إيجاد حل آخر..».

- «كان فى الإمكان أن ينتدب لها طبيب أقرب مجموعة صحية..».

- «ولماذا لم يفعلوا ذلك؟؟».

- «المنطقة لا تسأل عما تفعل..».

- «دكتاتورية..».

وخرج موريس تاركًا محمدًا وحيدًا فى مكتبه، كان يفكر فى ألم، لشد ما كان يرغب فى البقاء بقريته حتى ينفذ المخطط الذى رسمه خياله، ويتم البناء الذى طالما حلم به، وسوف يعود موريس إلى طريقته فى السلوك، وسينتعش حامد، ويخلو الجو- ولو شهراً - لمن يحلو لهم السمسرة والسرقة والعبث، وسينقض موريس على

القسم الداخلى ويطرد من شاء من المرضى، أولئك الذين لم يدفعوا الثمن، ولا شك أنه سينتقم من كل من كان مع الدكتور محمد أو دعا له بطول العمر والسداد، ويفهم المرضى وأهالى القرية أنه - موريس - باقٍ صامد وغير زائل أو مؤقت أو منتدب. .

ودخل التومرجى حامد، كان يجمع من أرض الحجرة قصاصات الورق وأعقاب السجائر ثم اقترب من محمد، وهمس:

- «ألم أقل لك؟؟».

- «ماذا تعنى؟ . .».

- «أعنى أن سلوكك لن يزعج الآخرين بقدر ما يزعجك أنت».

- «من قال إنى أزعجهم. . أنا أرطب قلوبهم بالحب والحنان وأحترمهم. . الآخرون ليسوا أنت وموريس وحدكما. . ثم ماذا تقصد؟».

قال حامد يائسًا:

- «من يأكل على ضرسه ينفع نفسه. .».

وأدرك محمد أن اللئيم يشير إلى تلك المساومات التى رفضها محمد بإباء، ويلمح من طرف خفى إلى أن مبادئه ستورثه المتاعب والانتدابات، وإن مخالفة موريس فى خطته لن يكون وراءها غير الخسران المبين، ولم يستطرد محمد فى أفكاره، فقد قال حامد:

- «موريس يأخذ، ويعطى مَنْ فوقه، يستفيد ويفيد وأنت تأبى أن تفهم ذلك . . » .

وأحنقته وقاحته وحقارته، فضرب محمد بيده على المنضدة الخشبية وصرخ :

- «اخرج من هنا . . » .

- «حقك علىّ . . » .

وهرول خارجًا يتلفت كلص، ويتعثر كفاسق يجلله العار، ارتطم بكاميليا لدى الباب، فصرخت فيه «افتح عينيك يا أعمى . . »، وعندما دخلت كاميليا على الدكتور محمد كانت هادئة بعض الشيء، وغمغمت : «عملوها فيك . . » .

- «بسيطة . . » .

- «بل نذير سوء . . » .

- «لكنه مجرد انتداب لمدة شهر . . » .

- «بداية الانتدابات كثيرة مقبلة إن لم يكن مقدمة لنقل نهائى . . » .

- «لا أظن يا كاميليا . . » .

- «لكنى أعرفهم . . كل شىء بالقرش، إنهم يدرسون اللوائح، وينصفون الظالم، ويحقرون المظلوم- كل ذلك بالقرش أو بالهدايا أو بالخدمات القذرة . . » .

وتنهدت كاميليا فى حسرة، ونظرت إلى محمد الذى شحب وجهه وتوشحت تعبيرات وجهه بالحزن، ثم نظرت إلى زجاجة الكوكا كولا التى لم يمسها، ثم اقتربت منه، وقالت:

- «سوف أزورك هناك..».

فقال محمد متلعثمًا:

- «أبدًا.. أبدًا.. لا داعى لهذا..».

- «لكن بعدك يؤلمنى..».

- «أشكرك..».

- «أعصابى لا تحتمل..».

يبدو أن كاميليا تفكر فى إعادة المأساة القريبة مرة أخرى، إن دموعها قريبة، ونوبات الصرع تلبى النداء بسرعة: كاميليا مجنونة، ومحمد كان بالأمس يشفق عليها، لكنه اليوم يخافها، ألم تقرنه الشائعات الغادرة بها، وتنسج حولهما قصة حب وليدة، ولولا نظافة مسلكه، ووضوح منهجه، لوجد العابثون فرصة مواتية للتشويش وإطلاق الشائعات المخزية لم تزل دموع زوجه تلمع فى خياله، والصغيران اللذان تركهما إلى جوارها يشرقان بطلعتهما البهية فى قلبه.

- «كاميليا..».

- «نعم..».

- «أتعتقدين أن على حقًا؟».

- «هذا ما يعذبنى، تصرفك يرضى عقلى وشعورى، لكنه لا يتفق مع الجو السائد - الجميع يبيعون ويشترون أنت وحدك هنا بيت للصدقات..».

وسُرَّ محمد إذا استطاع أن يحول كاميليا من لعبة الحب إلى جدل ذى هدف كما أسعده أنها تفهمه وتدرك حقيقة هدفه وتصدر رأيًا صادقًا ثاقبًا فيما همَّ بصدده، وهمس محمد وهو يحاول الابتسام:

- «لا أغلق الله باب بيتى..».

- «لكنك تغلقه فى وجهى يا دكتور..».

- «لم يحدث..».

- «بل احتقرت عواطفى، لم يصدنى أحد كما فعلت، كانت كلمة واحدة منى تفتح القلوب المغلقة، وتمهد الطريق.. ألست جميلة؟؟ أتشك فى إخلاصى؟».

ولم يجد محمد وسيلة سوى أن ينسى الانتداب مؤقتًا، وأن يقذف فى وجهها بالحقيقة الباهرة:

- «أنا أحترمك، وأحترم أولادى..».

- «بل تخاف زوجتك..».

- «ربما..».

- «يا للرجال . . ».

- «كاميليا . . ».

- «لنكن إخوة، ولنكن صرحاء، لم تدفعك إلى عوطفك، بل نزواتك . . ».

فقالت محتجة :

- «إنك تسبنى . . ».

- «ومن منا بلا نزوات، إنها جزء من تكويننا الطبيعى . . أتمنى دائمًا أن أكون أخاك الكبير» قالت كاميليا وهى تنتزع نفسها خارجة :

- «كلامك يثير فى نفسى التقزز والضيق، ورأيى الأخير فيك هو إنك حنبلى . . أجل . . كل من قابلتهم لم يكونوا مثلك . . لترجع من الانتداب بالسلامة . . باى . . باى . . ».

***

وخلف الباب الجانبى كان سعيد سلطان الكاتب يرهق السمع، كانت الدماء تفور فى رأسه وتلهب كيانه عندما يطرق أذنيه كلمات الوله والتقرب التى تريقها كاميليا تحت قدمى الطبيب، والتى طالما حلم بها سعيد ، فلم تَجُدْ بها عليه أبدًا، وكان العرق يتقاطر غزيرًا على جبهته وهو يستمع إلى محمد، ويا له من إنسان تنطلق كلماته من قلبه بالأمس كان يحترم مبدأه، واليوم يحترم أسرته، يهب نفسه

للناس لا يمكن أن يسلم زمام قلبه للشيطان، لقد ظلمه موريس حينما رماه بالإثم وعقد صلات غامضة مع كاميليا، وأساءت كاميليا إليه عندما ظنته واحداً من العشرات التي التقت بهم في حياتهم، وظلم محمد نفسه حينما ألقى بها في هذا المستنقع، وعلى الرغم من أن سعيد يشعر بشرر الغيرة يثب في أعماقه، إلا أنه ارتاح كثيراً لما تلقفه سمعه خلف الباب، لم يعد محمد غريمًا له، وفتح سعيد الباب على غير وعى، وقال مندفعًا:

- «أجل نحن إخوة.. أنت أخى الأكبر..».

وأصابت محمد دهشة بالغة، هؤلاء الواقفون خلف الأبواب المغلقة أمرهم غريب - كل شيء في المستشفى مكشوف عار، الخطوات معدودة، والهمسات محسوبة، حتى النظرات البريئة التي تجول بلا هدف، تلصق بها التهم، وتلاحقها الشكوك.

- «لكنك أتيت عملاً مشينًا يا سعيد..».

- «أعرف ذلك؟؟».

- «ولماذا تتجسس علىّ إذن؟».

- «الأمراض المعدية..».

- «ماذا تعنى؟».

- «الجميع هنا آذان وعيون وهمسات وخطايا..».

- «وأنت؟».

- «كنت بلا حصانة فدهمتنى العدوى، لكن كلماتك نفذت إلى قلبى وكانت كالعلاج والمصل الواقى معًا. .».

وصمت سعيد ، وخرج محمد من دهشته وغمغم:

- «الانتداب نعمة، تصرفاتكم هنا تدير رأسى، كنت أحسب أن عملى هنا مجرد توقيع كشف طبى وعلاج مرضى، لكنى بين يوم وليلة وجدت نفسى غريقًا فى خضم من المتناقضات. .».

قال سعيد مطاطئ الرأس:

- «وعندما تعود ستجدنا أسعد حالاً، وسأكون إلى جوارك دائمًا. . هل تقبلنى؟».

وعلم محمد وهو يسير فى الطريق إلى بيته أن مسألة الانتداب قد أحدثت فى قريته موجة عاتية من الحنق والغضب، وصبوا نقمتهم على موريس، فقد أدركوا بشعورهم الفطرى أن هذا الرجل وراء حرمانهم من فتاهم الطيب، وزعم بعضهم أن موريس قوى لا يقهر وأن معاداته ضرب من العبث الذى لا طائل تحته، وتورط بعضهم فى الخطأ، وطلبوا من الدكتور محمد أن يتفاهم مع زميله «ويرضيه» حتى لا يحرموا من ابن قريتهم، أما عم صادق فقد استقبل ابنه بكثير من الاشمئزاز، وهدر:

- «لقد فعلها موريس. . القرية كلها تتحدث عن ذلك. . إذا لم ينصفك المسئولون فلتحل اللعنة عليهم. . ولتكن كموريس وغيره حتى تستقر وتعيش. .».

وفى صوت خافت أجاب محمد :

- «لكننا يا أبى نثير زوبعة كبرى بلا مبرر . . » .

- «كيف تقول هذا الكلام؟؟ من العار أن أمشى بين الناس أو أدخل المستشفى ، لا أعرف سوى أنك هزمت . . هزمت والموت لدى أهون من الهزيمة . . » .

ولم يفكر محمد فى مجاراة أبيه فى ثورته ، بل صبّ عليها سيلاً رطبًا من كلماته الوادعة الهادئة :

- «غداً أسافر ، وغداً أعود ، وستسير الأمور على خير ما تهوى ، ويفعل الله ما يريد . . » .

ooo

الفصل الثالث عشر

إحساس بالغربة يمزج أمانيه بالحزن، وشعور غريب بالاضطهاد يطارده، وطريق مترب، وعربة متهالكة، وجو حار خانق، ومحمد وسط هذا كله يتأرجح كالسكران الذى يحاول أن يذيب أساه فى كأسه، ولم يعد عالقًا فى ذهنه سوى صورة أبيه وقد بان فى عينيه الغضب، أمه وهى تربت على رأسه وظهره فى حنان وتدعو: «ربنا معك..»، وزوجة موريس وهى تتبخطر فى متنزه المستشفى وفى يدها الصغيرة لولا، كانت كزوجها تضحك فى سخرية وتشفٍّ، حتى لكأن مجرد انتداب الدكتور محمد هو الانتصار الساحق الجبار، وحامد التومرجى وهو يهتف بالمرضى بصوته الأجش كى يتراصوا أمام العيادة، والمرضى وهم يرمقون الدكتور محمد بعيون ملؤها الحسرة والألم، ثم يشذ واحد منهم ويصرخ رافعًا يده:

- «لا نريد علاجًا هنا بعد اليوم..»، فيتبعه عدد كبير من المرضى يمزقون تذاكرهم وينفضون عن المستشفى تاركين حامد وموريس يأكلهما الغيظ، ويكاد الغضب يصب من تعبيرات وجهيهما، وتمتم محمد بينه وبين نفسه، قريتى بدأت تفيق، تعلموا

كيف يحتجون ويعبرون عن رغباتهم لم يحرضهم أحد، لكن فطرتهم قادتهم إلى الاحتجاج الذى صادف موضعه . . وتذكر محمد العشرات الملتفين حوله وهو خارج من المستشفى، كانوا يودعونه فى حرارة، وأحدهم بكى بصوت عال، وثان أمسك بيده قائلاً: «لكنا لن نتركك تسافر، الأمر أمرنا، ونحن أصحاب المصلحة المباشرة وندرك جيداً من ينفعنا ومن يضرنا. . لن نتركك . . أنت ابننا . . »، غير أن محمداً واساهم بالعبارات الرقيقة المهذبة، وخفف الأمر لديهم وأفهمهم إن الانتداب لا شيء فيه، فهو كثير الحدوث، وهناك غيرهم -إخوان لهم- فى قرية نائية ينتظرونه ولا يصح أن يتركهم دون رعاية . . . ولما تمادوا فى تشبثهم همس محمد:

- «ولكنى سأعود يا إخوانى».

- «لن يتركوك لتعود إلينا . . .».

- «أقسم إنى عائد . .».

واستراح محمد لتذكره هذه الظاهرة الرائعة، إن ما بذره من بذور الخير فى أرض قريته أخذ ينمو ويترعرع، القلوب كانت تحتشد حوله والأيدى تمسك به فى استماتة، ودموع غالية تترقرق فى عيونهم كل هذا أثمن من كنوز الأرض قاطبة.

شيء واحد كان يحز فى نفسه، «زكية» وهدى وزميلاتهما ومعظم التومرجية والتومرجيات لم يجدوا الشجاعة الكافية كى

يأتوا لوداعه المؤقت -كانوا يتجاهلون مرآه، أو يفرون هاربين من أمامه، وأدرك محمد كل شيء، إنهم يخافون موريس وزوجته أم لولا، ويعتقدون أن مجاملة محمد إهانة موجهة إلى موريس، وأم لولا لا تفتأ تهدد بالانتقاء من كل من يخرج على إرادتها، فزوجها يستطيع أن يعطى العطلات أو يحرم مستحقيها منها، وفى إمكانه أن يوقع الجزاءات ويتصيد الأخطاء، وليس صعبًا عليه أن ينقل الموظف أو العامل نقلاً تعسفيًا بل يستطيع أن يقطع عيش أى متمرد من هيئة الشغالة.

إن موريس خبيث لئيم، لا ينسى من أساء إليه، وينتظر دائمًا الفرصة المواتية ليضرب خصومه ولهذا أمكنه أن يفرض الرعب والرهبة فى أروقة المستشفى، ويسير على الخطة التى يراها فى صالحه دون النظر لأى اعتبار آخر، وأدرك الدكتور محمد إزاء هذا، أن هناك قضايا فرعية كثيرة لكنها مهمة -أليس من العدالة أن يحرر هذه المنطقة العاملة من الخوف، وأن يكسر قيود الوهم التى تغلغل إرادتهم وانطلاقهم نحو الحب والشجاعة والإنسانية؟؟ لم يعد المجال مجال علاج لمرضى الأجسام وحدهم، ولكن مرضى النفوس أجدر بالعناية.

***

وبلغ المستشفى الذى تقرر أن يقضى فيه فترة الانتداب، لم يكن يختلف كثيرًا عن مكانه السابق، ورجال ونساء فى أردية بيضاء،

لكن الجو هادئ تمامًا، لذا يوجد ثلاثة أو أربعة من المرضى، وجاء تومرجى المكتب ومال على أذنه قائلاً:

- «ثلاث حالات... كشف خصوصى...».

وتذكر محمد على الفور حامد، هنا حامد مثله، الطريقة نفسها والهمسات والحركات والنظرات وإن كان هذا الرجل أكبر سنًا، بعد أن عبث الشيب برأسه العارى وشاربه المبروم -ولا يدرى محمد لماذا توهمه هذه الهمسات والنظرات المريبة بتجارة المخدرات، وعاد إحساس الغربة المؤلم يعذبه من جديد -وقال التومرجى:

- «هيه... ماذا قلت؟؟ المبلغ فى جيبى...».

- «ليس لدى فئات خاصة، سوف أوقع الكشف الطبى على الجميع سواء بسواء...».

وذهل الرجل لكنه استدرك وتدبر الأمر، هذه مجرد حركات معروفة يأتيها الطبيب الجديد مخافة أن يكون هناك كمين للإيقاع به، نوع من الحذر- وابتسم التومرجى عن أسنان صدئة لوثها دخان «الجوزة» وتمتم:

- «اطمئن يا بيه... لا تخف.. محسوبك يفهمها وهى طائرة، والصنف المشاغب من المرضى أعرفه ولو كان وسط ألف بنى آدم.. سنين طويلة دون أن أقع...».

ورمقه الدكتور محمد بنظرة اشمئزاز:

- «ماذا تعنى يا رجل؟؟ . . » .

- «لم أخرج عن حدود الأدب يا سيدنا البيه . . بل أرعى الأصول دائمًا . . » .

- «الأصول؟؟؟» .

- «أجل . . . » .

- «حسنًا ، اذهب واستدع المرضى . . . » .

وهرول التومرجى باسمًا ، وقد أصر فى نفسه تقديرًا كبيرًا لهذا الطبيب الذكى الذى يتقن أداء دوره ، ثم كر راجعًا ، وهو يقول :

- «نسيت أن أقول لك : عندنا حالة طهارة . . . الطهارة هنا سعرها جنيه وزوجان من الحمام . . . معقول؟ هه . . »؟؟

- «أحضرها أيضًا . . » .

كان محمد يجلس خلف المكتب الخشبى وأمامه كشوف الحضور والانصراف وعدد من المرضى الخصوصيين وحالة الختان ، والتومرجى ، وفى نبرات هادئة واثقة قال محمد للتومرجى :

- «هات ما معك من نقود . . . » .

فتلكأ الرجل قلقًا ، ليس من الأصول المرعية أن يتقاضى الطبيب أجره بنفسه وخاصة فى مثل هذه الظروف ، وأدرك محمد ما يعانيه صاحبه من ارتباك وتردد فصرخ :

- «قلت لك أخرج ما فى جيبك . . . » .

وبحركة لا إرادية، تسللت يده إلى جيبه، ثم وضع ما فيه من نقود أمام الطبيب، وهو يرتجف، وتناول محمد المال وأخذ يوزع عليهم ما دفعوه وهم يرفضون ويمانعون، وفى ربع ساعة كان كل شيء قد انتهى، المرضى خرجوا مذهولين وقد أراحهم تمامًا، والختان أداه على خير وجه، ثم نادى الرجل الذى دخل عليه يرتعش، مفتوح العينين فى خوف، وأراد محمد أن يطمئنه:

- «لا عليك... خذ هذه الخمسة والعشرين قرشًا...».

- «لكن...».

- «كفى... إنها مجرد بقشيش صغير....».

ولم يحتمل الرجل هذا الجو الغريب -وتلك التصرفات لا يكاد يفهم ما وراءها، فسارع بالخروج، ولم يفته أنه أمام طراز فريد من الأطباء الذين تعامل معهم، وفى لحظات كانت الهمسات تدور فى أروقة المستشفى، وأخبار الطبيب المنتدب عل كل لسان، فخرجت الفتيات والتومورجية نساء ورجالاً وليس فى الأذهان سوى أن يلقوا نظرة على هذا المخلوق العجيب، وفكر تومرجى المكتب طويلاً، ثم اختطف ورقة وقلمًا، وسطر خطابًا من صفحتين، وأرسله بالبريد المستعجل لطبيب المستشفى شارحًا فيه كل ما حدث، طالبًا منه أن يفكر جديًا فى قطع عطلته المرضية حرصًا على المصلحة العامة؛ لأن فى غيابه عن المستشفى شهرًا كاملاً خسارة كبرى، وقال له بالحرف الواحد: وعندما تعود بعد شهر ستجد كل شيء انقلب رأسًا على عقب، ولن يمكنك أن تستخلص مليمًا واحدًا من أهل القرية بعد

اليوم، هذا الطبيب المنتدب سيفسد علينا كل شيء وسيهدم ما بنيناه في السنين الفائتة، تصور أنه طلب منى أن أتصل بالعمدة ليمهد له اجتماعًا مع طائفة من أبناء القرية، ليشرح ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، أؤكد لك أنه -لا شك- سوف يخبرهم أن العمليات الجراحية بالمجان، وأن الزيارات المنزلية لا يصح أن يتناول عليها الطبيب أجرًا، وأن حالات الاستقبال والإسعاف السريع بلا مقابل، فهمت هذا من كلامه وهو يحدثني ويحدث بعض التومرجية وهيئة التمريض. . أستحلفك بالله أن تعود سريعًا حتى ولو كانت درجة حرارتك أربعين، كي نسوى أمورنا، ونقضى على هذا الوباء قبل أن يستفحل.

***

وقضى محمد بالمستشفى ما يقرب من أسبوع واستطاع بصبره وإنسانيته الرحيمة أن يكبت مشاعر الغربة والآلام التى تختلج بين حناياه، وأمكنه أن يتصل بالأهلين، ويزور العمدة ومشايخ البلد وبعض المدرسين و الأهالى، ولم ينس أن يواسى أسر المتوفين، ويشارك المتزوجين أفراحهم حتى اندمج معهم بسرعة عجيبة، وطوال تلك الفترة كشف لهم عن حقيقة دوره كطبيب، وأفهمهم -بعد جهد- ما لهم من حقوق كفلها لهم القانون، وانتهز فرصة صلاة الجمعة، فقام يحدثهم بعد الصلاة عن الثقة التى ضاعت بينهم وبين المستشفى وكشف الستار عن كثير من المعميات والأوضاع الزائفة -وأكد لهم أن باب المستشفى مفتوح ليلاً ونهارًا

والخدمات الطبية بلا مقابل، وكم كانت دهشته عندما وقف أحد المصلين، وقال:

- «ما هذا الكلام يا دكتور؟؟ كيف يأتى الطبيب إلى بيتى ويخرج دون أجر؟ قلة ذوق منا إذا فعلنا ذلك..».

- «لكنه حقكم...».

- «هذا من كرم أخلاقك... إن رد قيمة الكشف إهانة لنا، ثم دعنى أصارحك... لا أصدق إننى سآخذ حقى من الرعاية دون أن أدفع، ألم تسمع قول الشاعر:

إن المدرس والطبيب كليهما

لا ينصفان إذا هما لم يكرما

وساد المسجد هرج و مرج، واحتد النقاش وامتد الجدل، وكثر عدد المؤيدين للطبيب وقلة انحازت للمعترض، وحاول محمد أن يسكت عاصفة الخلاف الثائر، ويعود إلى كلماته الهادئة الجديدة على أسماعهم، وأخذ يلوح بذراعه، ويصفق بيديه، أو يهتف بهم كى يصمتوا، لكن يد «حضرة العمدة» أمسكت بساعده، وجذبته فى رفق ورقة، وقال:

- «هيا يا دكتور.. من المستحيل أن يصيخ هؤلاء الأغنام السمع لصوتك...».

وتمتم محمد وهو يتناول حذاءه «ألا هل بلغت؟؟ اللهم فاشهد...».

وخرج محمد فى زفة كبيرة يصحبه العمدة، كان محمد متضايقًا بعض الشىء، فقد آلمه ألا يكمل حديثه وآلمه أكثر أن يفكر أحدهم فى نقض كلماته الصادقة، كان صاحب منطق سليم حر لا يختلف فيه اثنان، وكان يعتقد أنه يخطط لهم الطريق السوى لمستقبل أفضل، وهو كان يخطر على باله وهو يأتى هذه التصرفات النبيلة أن يرتفع صوت بغير عبارات الاستحسان والتأمين على كل ما قال؟؟ لكن الحقيقة لا تموت وصوته لن يخفت أبدًا والقلوب المغلقة سوف تفتح أبوابها -لاشك- للكلمات الواعية الشريفة -والجمود الذى ران طويلاً ستمزقه أيدى القيم العريقة، الحقيقة حية دائمًا ولن يطمسها جهل ولن يحرفها هوى المستغلين، والدليل على ذلك أن المستشفى فى اليوم التالى كانت غاصة بالمرضى والدعوات الحارة الصادقة نفسها التى كان يسمعها فى قريته أصبحت تتردد هنا، ورجال مثل أبيه ونساء مثل أمه، وأطفال صغار كإخوته، زحفوا جميعًا إلى المستشفى تحدوهم الثقة والأمل فى نسق جديد من الرعاية والاهتمام طالبين بقاءه معهم حتى النهاية، وامتلأت أسرة القسم الداخلى -بالمجان- بمرضى البلاجرا والعمليات الجراحية والاستسقاء وفقر التغذية «ولم تذهب الصيحات الفاضلة العالية بددًا فى الهواء وصداها لن يموت أبدًا. . » ذلك ما تمتم به محمد وهو ينتقل فى خفة بين أروقة المستشفى، هذا فى الوقت الذى كان تومرجى المكتب يكتب لطبيب المستشفى الغائب برقية عاجلة يقول له فيها:

«إذا لم تقطع عطلتك وتحضر . . فقل علينا العوض . . .».

كان محمد يعد العدة لقضاء يومين بالقاهرة إلى جوار زوجه وطفليه، ودس فى حقيبته المتوسطة الحجم كل حاجاته، ثم أحكم إغلاقها، وجلس ليرتشف فنجانًا من القهوة، وكم كانت دهشته عندما صدم بمرأى «كاميليا» داخلة عليه مكتبه . . . وصرخ دون وعى وفى صوت خافت :

- «مجنونة . . .».

ولم تسمع بالطبع ما تلفظ به، وقالت ووجهها يتهلل من الفرح :

- «قلت لنفسى لماذا لا أزورك هنا . . من باب الوفاء لا أكثر . .».

قال مرتبكًا :

- «أشكرك، لكنى على سفر . . .»

- «حسنًا لنقضى عطلة نهاية الأسبوع معًا . . .».

فتساءل محمد دون اكتراث :

- «أتشربين زجاجة كوكاكولا مثلجة . . . ؟ .

- «لا مانع . . .» . . قالتها وهى تجر كرسيًا لتجلس عليه .

لم يكن من الحكمة أن يطردها من مكتبه، أو يثور فى وجهها ويرميها بسوء التصرف والبلاهة، شىء غامض كان يدفعه دفعًا لأن يعالج أمره مع «كاميليا» بروية ورقة، إنه لا يعرف العنف والقسوة

فى تصرفاته مع الآخرين، فطبعه يأنف من ذلك، وهذا الضعف فيه مأخذ كبير؛ لأنه لا يؤدى به إلى الحسم القاطع، واستنجد محمد بكل ما أوتى من لباقة وقوة حجة كى يتخلص منها، و ينطلق إلى القاهرة وفى المدينة المجاورة ودعها ليأخذ القطار، وعندما لاحظ نذر الدمع تبدو فى عينيها تجاهل ذلك، وهرول تاركًا «كاميليا» خلفه، ولم يفكر فى النظر إليها من جديد، ولكنه لم يستطع أن يبعد شبحها عن حياته، لشد ما تبدو وادعة أليفة فى كثير من الأحيان وسرعان ما تتقلب سحنتها وتشذ تصرفاتها، وتبدو سيما الجنون على ملامحها، وغمغم محمد: «إنها مريضة على أية حال، وعند ذلك قرر أن يستقدم زوجه وطفليه أول الشهر القادم مهما كلفه ذلك . . .

وصفّر القطار ودقت آلاته وعجلاته، واندفع عبر الحقول الخضراء ذات الأريج المنعش واسترخى محمد فى جلسته، وأغمض عينيه لبضع دقائق واستشعر قطرات من السلام والسكينة ترطب قلبه كان متعبًا، لكنه كان سعيدًا، وابتسامة حلوة تطوف على ثغره كابتسامة الوليد على المهد الحبيب.

وعندما عاد محمد من القاهرة بعد يومين، وقصد لتوه المستشفى المنتدب فيها، هرول إليه تومرجى المكتب وعلامات الراحة والرضا تبدو على ملامحه وقال «ألف حمد الله على السلامة . . . سعادة البك طبيب المستشفى . . قطع عطلته . . لقد حضر اليوم . . شفاه الله . . هو فى انتظارك للتعرف ولشرب القهوة قبل سفرك اليوم . . . ».

الفصل الرابع عشر

لم يكن سعيد سلطان يعرف كيف يداوى جراحه المعنوية ، إن السلامة والاستقرار النفسى لن يجد الطريق إلى قلبه المعني - لو كانت كاميليا فتاة عادية كغيرها من الفتيات لأمكنه أن ينسى ويريح نفسه من عذابها وطغيانها ، لكنه أمامها ضعيف ، وعندما تواتيه نوبة الشجاعة ويثور فى وجهها فهى نوبة طارئة ، وتعبير عكسى عما يعتمل فى نفسه من شوق جارف ، وتشبث بها ما بعده تشبث ، لقد استطاع سعيد أن يعلم أنباء خطيرة عن تصرفاتها الخاصة ، أخبره أحد أصدقائه أن كاميليا قلما تقضى عطلتها فى الإسكندرية لدى أهلها وإنما تذهب إلى طنطا لزيارة صديق تدعى أنه قريبها ، والمتصلون بهذا الصديق يؤكدون لسعيد إنه ليس قريبها بالمرة ، وإن بينها وبينه علاقة وطيدة تثير التساؤل ، تدعو إلى الشك ، والقريب المزعوم متزوج وزيارات كاميليا له تكثر خاصة فى فترات غياب زوجه ، كاد سعيد ينهار عند سماعه لهذه الأنباء ، لكنه تماسك وقال لمن أبلغه ذلك : «هذا لا يهم ، فليست تربطنى بكاميليا صلة سوى صلة العمل بالوحدة لا أكثر ، ومن ثم فلتذهب إلى جهنم . . » ،

لكنه كان يكذب على نفسه قبل أن يكذب على صديقه، لم يرَ فى نيته على الإطلاق التخلى عنها، كان يتعذب لكنه كان متشبثًا بها، يتبعها بخياله، ويحلم بها فى نومه، وتظل عيناه تلاحقانها أينما ذهبت وفى اليوم الذى تسافر فيه يظل قلقًا حائرًا مشتت الفكر، يشعل السيجارة تلو السيجارة، ويكثر من الشرود والحركة ويأتى بعض التصرفات التى لا مبرر لها، ويرتكب الحماقات مع متعهد التغذية ومعاون الصحة وهيئة التمريض، ويتأزم الموقف بينه وبين الدكتور موريس، ولا ينقذه من عذابه سوى الهرب من الوحدة كلها، والذهاب إلى طنطا، وهناك يلاحقه قلقه وعذابه، ويمضى فى شوارعها بلا هدف، كل فتاة قادمة من بعيد لعلها كاميليا وكل صوت يرن فى أذنيه قد يكون صوتها، وكل أغنية كئيبة والهة تنطلق من المذياع تعبر عن حاله، وقصص الحب اليائس على شاشة السينما فيها جانب كبير من مأساته، وكل ابتسامة ساخرة خبيثة لا بد وأنها موجهة إليه، لسوف يصاب بالجنون إن لم تتداركه عناية الله، لماذا لم يكتب الله عليه أن يحب هدى المطلقة، إنها هادئة جميلة، لكنها ثقيلة الحركة، باردة التصرفات، لا تعترف بالجنون.. أحيانًا يكون الجنون محبوبًا فى حد ذاته.. كاميليا رعناء لكنها خائنة وهدى عاقلة غير أنها لا تثيره – أليس هناك حب بلا تمرد وثورة وجنون؟؟ ولا بد وأن نفسه مريضة ومعقدة وإلا فلماذا يقبل كل هذا العذاب ويتناول عن الكثير من كرامته ومبادئه، ويلح في طلب فتاة تتهالك على الدكتور محمد وتقضى الليالى مع رجل تزعم أنه قريبها، وتثير عديدًا من المشاكل والخلافات مع سعيد..

سعيد بالذات ذلك الذى وهبها كل قلبه والذى ما زال على استعداد لأن يسامحها إذا عادت إليه بقلبها واستسلمت لحبه العنيف، لكن هل صحيح أن سعيد قد اقتنع بما بلغه من أنباء خطيرة؟؟ إنه لا يصدق ولا يمكن أن يتبادر إلى ذهنه أن كاميليا تبذل شبابها وتفرط فى كرامتها، وتسلم نفسها لذئب . . لا يمكن أبدًا، قلبه يحدثه بذلك، والناس كثيرًا ما يكذبون، ويجعلون من الحبة قبة ويحلو لهم المبالغة ليحطموا قلوب إخوانهم البشر ولينتزعوا دليلاً ساذجًا لأخطائهم هم، وباطنهم المتعفن القذر، كاميليا فتاة طيبة مسكينة ذات مسئوليات، أعصابها متعبة- حسنة النية تفتح قلبها ببراءة لكل الناس، وتبتسم للجميع، وهذا هو الذى يجر عليها المتاعب، وينغص عليه حياته، ماذا لو التزمت الجد، واعتصمت بالحرص والحذر فى تصرفاتها؟؟ لكنى سمعتها بأذنى تسيل رقة وعذوبة مع الدكتور محمد، وتطلب منه أن يفتح قلبه لها، وأصرت على ذلك برغم رفضه، ورغم زوجه وطفليه، أكانت تحبه حقيقة أم أنها رأت عزوفه عنها، وعدم اكتراثه لها، فآلمها أن يتجاهلها وكل الرجال يخطبون ودها، رجل واحد لم يفكر فيها، فأرادت أن تنظمه فى سلك المعجبين بها، والمولهين بجمالها، وكلما ازداد بعدًا عنها ازدادت إلحاحًا فى طلبه، هذه حقيقة الأمر، كبرياؤها يورطها فى إهدار كرامتها، يا للغرابة : امرأة تبحث عن تحقيق ذاتها وتأكيد كبريائها، فتهدر ذاتها وكبرياءها، إنها مسكينة لا شك لم تبلغ من النضج والحنكة ما يجعلها تتصرف بعقل ورزانة .

لكن أما لهذه المأساة المعقدة من نهاية؟؟

إن سعيد يفكر في حل حاسم سريع يوفر عليه متاعبه ويضع حداً لقلقه وعذابه، هل ينفض يده منها؟ كلام فارغ، فهي أصبحت بالنسبة له روحاً في جسده ولا يمكنه أن يحيا بلا روح - هل يمسكها ويقصف رقبتها، فيقضي عليها ويستريح، لكنه ليس من المؤكد أن يجد راحة بعد ذلك، فهو يريدها إلى جواره فقتلها إزهاق لروحه، أيتزوجها؟ آه. . كيف؟؟ لم يكن يفكر في ذلك قبل الآن - الزواج ليس بهذه السرعة، ومن أين له المال اللازم؟ وهي. . هل تقبله زوجاً الآن وفي هذه الظروف العاصفة؟ الزواج لا يتأتى هكذا دفعة واحدة، يجب أن يكون نهاية تطور طبيعي في علاقته معها، كأن تعترف له بحبها، وتقبل عليه بقلبها وروحها، وتبتعد عن كل ما يغضبه، وتخلص نفسها من تلك الأوهام التي تورط نفسها فيها، وتكف عن زيارتها لطنطا وتنهى مطاردتها للدكتور محمد الرجل الطيب، وتكف عن تلقى الخطابات التي تأتي إليها من ابن خالها وابن عمتها وابن عمها و. . إلخ، وتذكر سعيد على الفور - أن كثرة هذه الخطابات والعلاقات دليل قاطع على عدم تعلق قلبها بأحد غيره، لو كانت تحب واحداً فقط من هؤلاء جميعاً لضحت بالآخرين أو لأمكنها أن تفعل ذلك في إصرار وبساطة عرفت بهما. .

وارتاح سعيد لهذا الخاطر الأخير - غير أن شيطان الشك لعب برأسه مرة ثانية، وقرر بينه وبين نفسه أن يتابع حركاتها خارج الوحدة ولهذا سافر وراءها في عطلة الأسبوع، وأخذ يتبعها عن كثب - دون

أن تراه، وكاد يغشى عليه حينما رآه ينتظرها، رأى رجلاً أنيقًا متوسط القامة، سمجًا متكلفًا فى حركاته وملبسه - فصافحته ومضت فى الطريق معه، وطن فى رأسه هتاف قديم كان يحلو له ترديده أيام المظاهرات فى المدرسة الثانوية «الموت للخونة..»، هذه الكتلة الخبيثة من الشحم واللحم والعظم يجب أن يسحقها، وسار خلفهما - كان جسده يرتجف كله رغم حرارة الجو وعيناه لا تكادان تريان شيئًا، كل ما أمامه متداخل متشابك مطموس المعالم كالحقائق التى آمن بها طويلاً، كالمثل التى طالما حلم بها، لا شىء واضح محدد السمات فى هذا العالم الخائن، كانت خطواته تدق الأرض فى عصبية ظاهرة، وريقه قد جف، ورأسه نهب لمطارق عنيفة، ومن بعيد تتبخطر كاميليا ورفيقها والحقيبة السوداء الكئيبة فى يدها، وكأنهما عروسان فى نزهة خلوية، والعربات والناس من حولها فى ضجيج، وسعيد يتهادى حزينًا فى موكب حزين من مواكب الأنين الخافت، وفى جنون مسيطر يسرع الخطا.

لقد صمم ولو مرة واحدة فى حياته أن يصفع الحقائق الشائهة، أن يقف وجهًا لوجه أمامها فى سفالتها، أمام ضعفه الغريب، كان يخوض فى طريق من أشواك وعذاب وقسوة، وتخطاها مهرولاً، ثم وقف أمامها لا يدرى ماذا يقول، ولم ترتبك كاميليا، أو يخالط تصرفاتها وحركاتها خوف، والابتسامة المعهودة لم تفارق شفتيها، وقالت فى هدوء:

- «ابن خالتى الأستاذ..».

ثم التفتت إلى سعيد :

- «كاتب المستشفى الأستاذ سعيد . . » .

وتصافحا بعد أن قامت بدور التعارف بينهما ، وسارا معًا فى الطريق تتوسطهما كاميليا ، كان صديقها صامتًا لا يفكر فى أن يفتح فمه ، أما كاميليا فقد تولت هى الحديث :

- «إلى أين يا أستاذ؟» .

- «قررت أن أقضى الليلة لدى أخى . . » .

- «حسنًا . . أما أنا فقد عولت على البقاء الليلة لدى ابن خالتى . . زوجه فى حالة وضع . . نترك العمل فى المستشفى لنواصله فى طنطا . . » .

ورنت ضحكتها ، وشاركها رفيقها ، وانفرجت شفتا سعيد ؛ بلا معنى ، لم تكن ابتسامة ، وإنما كانت حركة تشبه إلى حد كبير ما يفعله البلهاء حينما تفتر ثغورهم عن فراغ وسذاجة . .

قال سعيد :

- «لن تذهبى إلى الإسكندرية إذن . . » .

- «لم أفكر فى ذلك . . » .

- «لكنك . . » .

فقاطعته قائلة :

- فعلاً . . كنت أنوى السفر، لولا خطاب وصلنى أمس عن الوضع المرتقب . . نجدة الحامل أحرى بالبقاء . . أليس كذلك؟ ووجهت حديثها الأخير إلى رفيقها الذى لم يقل سوى «فعلاً . . لكننا سنكبدك المشاق، ونحرمك من متعة السفر إلى الإسكندرية».

لو أن كاميليا كذبت عليه وأوهمته أنها فى الطريق إلى الإسكندرية لارتاح باله وقرت نفسه وأمكنه؛ أن يزيل كل قلق من جراء هذا اللقاء المشكوك فيمه، لكنها لا تنكر أنها ستقضى الليلة مع قريبها المزعوم، وابتدعت حجة شيطانية، ستبقى طوال الليل فى بيت رجل، ورجل يشعر سعيد نحوه بكل مقت وكراهية، وفى البيت حجرات كثيرة ووحدة وأبواب مغلقة وليل طويل وفجر لا أحد يدرى هل سيأتى سريعًا أم يتأخر مجيئه، والرجال ذئاب، والنساء ناقصات عقل ودين، وهل صحيح أن هناك امرأة تضع مولودها؟

كان سعيد يشعر أنه على وشك الانفجار، لديه رغبة عارمة فى أن يفعل شيئًا، أن يكسر ويحطم أو يضرب بقبضته ويدق الأرض بقدميه أو يجرى كالمجنون وسط الشارع المزدحم بالناس والعربات أو يستدير إلى الرجل الآخر ويظل يصفعه ويمزق قميصه الأبيض وسترته الثمينة، ويلوث حذاءه اللامع، لكن صوت كاميليا جاءه نديًا رقراقًا . .

- «ومتى تسافر؟؟».

قال دون وعى منه: غدًا فى الخامسة مساء.

فأردفت فى مرح :

- «جميل جدًا . . سنرجع معًا ، على الأقل ستدفع لى أجرة العربة . . » .

وكان فى هذه الجرعة الصغيرة من الحنان ، أثر طيب فى نفسه ، فأسبغت على قلبه قليلاً من الرضا فسكنت مشاعره الثائرة وخفت حدة انفعاله وقلقه ، ولكن مثله الآن كمثل القانع بفتات الموائد بعد مأدبة عامرة للسادة الكبار .

لم يلحظ سعيد عليها تغييرًا يذكر عندما لقيها فى اليوم التالى ، الشفاه الدسمة كالعهد بها مثيرة باسمة ، العيون الواسعة الضاحكة التى تهزه نظراتها ما فتئت ينبعث منها البريق الآسر ، رغم تأرجحها وقلقها البادى .

وكان سعيد متوترًا ، لم يزايله ارتباكه وأساه ، كان يقبض على حقيبته البنية اللون بيد متشنجة ينظر إلى بعيد ، ولا يسدد بصره إلى كاميليا إلا فى لحظات خاطفة متباعدة ، وأنهكته قلة النوم ليلة أمس ، ظل طول ليله يتقلب على فراشه الشائكة ، ويهرب إلى قصة فى مجلة يقرؤها ، أو كتاب يتصفحه ، أو دردشة تافهة مع أخيه ، وذهنه إلى بعيد ، يرقب فى المجهول امرأة أذلت هواه وعبثت بقلبه ، ويبكى ضعفه واستماتته فى التشبث بها ، وخرج سعيد عن شروده قائلاً :

- «هل وضعت الست؟؟» .

- «طفلة رائعة الجمال. . ».

- «أنت تكذبين. . ».

فأدارت رأسها فى استغراب:

- «ماذا جرى لك يا سعيد؟».

- «لم يكن هناك والدة ولا مولودة. . ».

- «من إذن؟؟».

- «رجل. . ».

- «هل جننت؟؟ أترضى لى أن أبقى مع رجل وحدنا؟!

واستدركت قائلة: «حتى ولو كان ابن خالتى؟؟».

فقال سعيد متنهداً حائراً:

- «أنا على استعداد لأن أدفع أغلى ما أملك لأعرف الحقيقة. . ».

- «أية حقيقة. . ».

فقال مباشرة دون مراوغة:

- «أنت تحبين هذا الرجل. . ».

- «إنك تخرف. . ».

- «لكن قلبى لا يكذب. . ».

- «ألا تعلم أنه متزوج؟؟».

- «والدكتور محمد أيضًا متزوج . . » .

- «وما شأننا به . . » .

- «سمعت بأذنى تقدمين له قلبك وحبك . . » .

فضحكت ملء شدقيها ، وهمست :

- «أنت غيور . . » .

- «لكنه حدث فى مكتبه . . » .

- «مجرد اختبار . . مداعبة . . تسلية ، سمه ما شئت ، أما عن حب هذا أو ذاك ، فاطمئن لا أفتح قلبى إلا فى الوقت المناسب ولمن يستحقه . . » .

وصمت سعيد برهة ثم قال :

- «هل ذاك الرجل قريبك حقًا؟» .

- «دعك من هذا الشك . . » .

- «إنه يقتلنى . . » .

- «مخل وسخ . . » .

- «صدقت . . » .

وأطرق أسى ، قلبه ينز عذابًا ، وروحه قلقة تكتوى بنار غامضة وطوفان من الانفعالات يغرق عقله الشاب الثائر ، وصور شتى تختلط فى مخه «الوسخ» على حد تعبيرها ، عالم مظلم معقد ،

مهول الأشباح والرؤى يحتدم خلفه وأمامه، ويطبق على روحه فى يقظته ومنامه، والحر الشديد يكاد يزهق أنفاسه، وهمس سعيد:

- «وما رأيك فىّ؟».

- «مسكين مثلى..».

كلماتها دائمًا تحمل معنين إن لم يكن أكثر، وتأبى أبدًا أن تكسب فى قلبه شعور السكينة والاطمئنان، صدقها مثل كذبها، والأوهام لديها حقائق أكيدة، والحقائق قد تشبه فى نظرها فقاعات عائمة على سطح الماء لا تلبث أن تفنى، والخطيئة تظنها تسلية، والمستقبل والناس والكون من حولها مسرح سمج، ،كلمة الحق أو الشرف لديهما كالولادة المتعسرة، لا تخرجها إلا ميتة أو مشوهة.

- «قلت لك ما رأيك فى شخصيتى؟؟».

- «وما حكمك علىَّ أولاً..».

- «لنؤجل هذا..».

وجذبته من يده مسرعة، وهى تقول:

- «هيا.. العربة توشك أن تتحرك، يجب أن نلحق بها وإلا بقينا هنا حتى السابعة مساء قد نبيت ليلة أخرى.. أسرع..».

وحشرهما السائق فى الداخل كان جسدها ملتصقًا تمامًا بجسده وكتفها مستندًا إلى صدره وهى هادئة أو يبدو عليها عدم الاكتراث، وهو يغلى، وراح فى شبه غيبوبة خفيفة لذيذة، واستراح لهذا

الوضع الذى فرضته الظروف ونسى كل شىء حوله، ولم يعد يذكر الرجل الآخر ولا بيته أو الليلة الطويلة التعسة، كانت غرائزة تضج داخل هيكله، وتمنى فى تلك اللحظات أن يطوقها بذراعيه، ويعتصرها اعتصاراً، وينكب على شفتيها فى نهم وجوع وانتقام، وتمنى أيضًا أن يهمس فى أذنيها قائلاً:

- «أحبك، أحبك.. بكل روحى مهما فعلتم لكن أنفاس الركاب تزحم العربة، أحد زملاء السائق يرطن معه عن عربة فلان وفلان، وأحدث الأنواع وثمن كل نوع والموتور التالف، وملء البطاريات الفارغة، ومخالفات المرور، وهناك أحد المرضى يتأوه من شدة الضغط ويبحث عن العقاقير التى اشتراها ليتأكد من سلامتها.

كان عليهما بعد أن أفرغت العربة حمولتها عن آخر الخط أن يبدآ رحلة الكيلو مترات الثلاثة، وقد غربت الشمس ولم يعد يوشح الأفق سوى ضوء واهن يميل إلى الدكنة، وسارا جنبًا إلى جنب وقد لطف الجو وهبت من النهر المجاور نسمات رخية منعشة، وتمتمت كاميليا وهى تخطو وئيدة عبر الممشى الضيق المطموس المعالم.

- «إنى خائفة».

- «ممن..؟».

- «أولاد الحرام كثير..».

- «لكنى معك..».

- «ألن تجرى إذا أطبقوا علينا؟ . .».

- «أدوس أعناقهم بحذائى . .».

فقالت وقد انفجرت ضاحكة :

- «لا . . شهم يا أبا سعيد . .».

وبعد فترة سكون قالت :

- «الطرق خالية ، والحقول ليس بها أحد والمقابر على مقربة منا . .».

- «وماذا فى ذلك . .».

- «الخوف يرجف قلبى . .».

وفى بساطة لم تعهدها فيه ، قال سعيد :

- «هاتى يدك . .».

- «لماذا؟؟».

- «لأمسك بها كى تطمئنى . .».

- «قديمة . .».

وقبل أن يتقاطر عرق الخجل على وجهه وجدها تمد يدها قائلة :

- «خذ يدى . .».

وخدر حلو شهى سرى فى جسده كله وهو يحتضن يدها الصغيرة اللدنة بيمناه ، وسارا بضع دقائق يلفهما الليل والصمت

والانفعالات الجياشة، وبدا أنه ارتاح لهذا الوضع وتمنى أن يظل هكذا حتى نهاية العمر، لكن إلى متى يظل صامتًا، فهمس:

- «كاميليا..».

- «هيه..».

- «ألا تشعرين بما أقاسيه؟».

- «أشعر أني خائفة..».

- «لكن قلبي..».

- «ما له؟؟».

وانطلق صوت شق الظلام كطلقة مدفع:

- «من هناك..؟».

وصرخت كاميليا في رعب «يا ماما» وانتزعت يدها من يد سعيد سلطان، ثم هربت إليه وتشبثت به في ارتياح، أما هو فقد انبعث صوته هادئًا واثقًا:

- «أنا سعيد سلطان.. مساء الخير يا شيخ الغفراء».

- «مساء الخير..».

وتنهدن كاميليا في ارتياح وسحبت ذراعيها، وعادت إلى طبيعتها وهي تغمغم: «خفير؟ ابن الكلب جعل قلبي يسقط، كاد يغمى علي.. لن أعود لمثلها مرة ثانية..».

عاد سعيد إلى سريره بسكن «العزاب» وقصدت كاميليا لتوها إلى مقر الممرضات ولم يكن خافيًا على سعيد أن كاميليا قد أفسحت له مكانًا إلى جوارها، ولم تمنعه من العبث وهو يمسك بيدها ويضغط عليها، ويتعمد الارتطام بجسدها من آن لآخر، وتحول «فتات الموائد» الذى ظنها ترمى به إليه وجبة دسمة ولو متواضعة، وهذه بداية طيبة لعلاقة جديدة، وأخذ سعيد يلوم نفسه ويؤنبها: لماذا يدع الفرصة لكاميليا كى تتركه وتتمسح فى غيره؟؟

وكيف لا يحاول جاهدًا أن يملأ فراغ حياتها وقلبها ويوجه زمام اهتمامهم نحوه دون سواه؟؟ إذا لم يكن قادرًا على ذلك فلا لوم عليها إن هى انصرفت عنه، ومالت نحو غيره، لسوف يكف عن لومها وتأنيبها بعد اليوم، وسينسى علامات الاستفهام الحائرة التى تثير فى عقله الشك، وليكتم غيرته وحدة خلقه، ويسعى جديًا كى يصل إلى قلبها ويسيطر عليه؛ لأن الحب ليس مجرد عاطفة و لكنه أيضًا فن.. فن رفيع..

●●●

الفصل الخامس عشر

عاد الدكتور محمد إلى مسقط رأسه ولكنه لم يعد وحده هذه المرة- فقد كان معه زوجه وطفلاه، وعربة نقل كبيرة مقفلة محملة بجميع أثاث بيته، لقد ودع القاهرة منتويًا الإقامة فى القرية بصفة دائمة حتى يرضى زوجه التى ألحت عليه كثيراً فى مرافقته، ولكى لا يحرم نفسه من رؤية الصغيرين كل صباح، ولا شك أنه بعد ذلك سوف يجد الاستقرار، ويأمن الأسفار الكثيرة، ولعله يضمن لنفسه الخلاص من شغب كاميليا وعبثها الخطر.

وعندما وصلت القافلة الصغيرة إلى المستشفى «الوحدة» سرى النبأ فى كل أرجائها، فأطلت مدرسات المدرسة من نوافذ مسكنهن، وبرزت فتيات هيئة التمريض متربصات لدى بسطة سلم المستشفى، وكمن التومرجية فى مكان قريب، وبعد لحظات كان الجميع يشاركون فى الترحيب بالسيدة حرم الدكتور، ويساعدون فى إنزال قطع الأثاث من العربة، فنظر الدكتور محمد وزوجه فوجدا أنفسهما محاطين بجو من التكريم والترحاب يشرح الصدر، فابتسمت الزوجة فى سعادة وأثلج صدرها أن ترى تلك القلوب

الطيبة تحيط بها من كل جانب، وأيقنت على الفور أنها إذا كانت تركت النور الكهربائى فى القاهرة، فإن ابتسامة هؤلاء الطيبين تنير كل ظلام.. وتلفتت حولها فوجدت مكانًا هادئًا جميلاً، وأشجاراً فارغة خضراء وأزهارًا حلوة الشذى، ومبانى نظيفة متواضعة تشعر بالسلام والوقار، لهذا لم يعد فى قلبها ذرة من ضيق أو أسى على فراق القاهرة.

وفى الوقت الذى كان الدكتور محمد يرتب حجرات مسكنه، ويضع قطع الأثاث فى مكانها المناسب، كان موريس يقبع فى حجرته، وهموم الدنيا كلها قد تكومت فوق رأسه، لقد شعر أن نجمه فى أفول، وسلطانه قد أخذ فى الانزواء منذ أن أتى محمد، كان لا يشاركه أحد، واليوم يرى نفسه ضئيلاً صغيراً بل وسارقًا، كانوا بالأمس يقبلون يديه ويبعثرون تحت أقدامه المال ليتكرم ويخفف آلامهم، ويداوى جراحهم، لكنه الآن لا شىء، إذ ما تدلل عليهم أو ماطل فى يوم نوبتجيته استنجدوا بالدكتور محمد ولم يردهم محمد خائبين مرة واحدة، ليس له مواعيد للنوم أو اليقظة، دائمًا على استعداد تام لتلبيه رغباتهم بلا ثمن، وظن موريس أنه سيستريح من خلقته شهراً أثناء الانتداب، لكنه عاد بعد أسبوع واحد، كان يريد أن ينتقم ويذل الأهلين، ويعاقب كل من والى الدكتور محمد، لكن الحظ لم يسعده بذلك، وها هو محمد يعود بأسرته وصولجانه وكأنه غاز قادم من الجنوب لاحتلال الأرض الخضراء التى يعسكر فيها موريس وينعم بجمالها وثرواتها، وأحس

مرارة الهزيمة وخيبة الأمل، حتى الأسبوع الذى انقطع فيه محمد عن العمل لم يكن فيه ما يسر، لقد قاطع غالبية المرضى المستشفى، والمحتاج فيهم رحل إلى أقرب مدينة طلبًا للعلاج، ودخله لم يكن نصف الدخل السابق ولا ربعه، على الرغم من أن «حامد» كان يجرى هنا وهناك ويبث الدعايات، ويمنيهم الأمانى الكبار، ويعدهم بالدواء الكثير الشافى . . .

ودخلت عليه «أم لولا» وهو مندمج فى التفكير، كانت أكثر منه غمًا وضيقًا، وهدرت دون مقدمات :

- «الحقيقة أنى لم أطق رؤية زوجه، فأغلقت النافذة على الفور . .» .

ولما لم يعلق موريس على حديثها، استطردت :

- «لا يمكننى البقاء فى هذه القرية وذلك الرجل يقيم هنا مع زوجه . .» .

فواصل صمته وكأنه مضرب عن الكلام، ولم تلق «أم لولا» بالاً إلى صمته، بل واصلت كلامها :

- «كدت أجن وأنا أرى الممرضات يتحلقن حول زوجته، ويستابقن إلى حمل طفليهما وتقبيلهما، وكاميليا الوقحة كانت ضحكتها ترن وتكاد تثقب طبلة أذنى، هؤلاء الكلاب طالما أحسنا إليهم، وتسترنا على أخطائهم، لم يراعوا مشاعرنا بل جاهرونا بالولاء للسيد الجديد . . أقسم بشرفى لتنتقمن من الجميع شر انتقام . .

ثم سحبت مقعدًا وجلست إلى جوار زوجها، وشعور قاسٍ بالغربة يخالط قلبها، وغمغم موريس فى يأس:

- «فى هذه الديار ليس لنا حبيب..».

قالت فى ثورة:

- «بل نحن كل شىء هنا..».

- «كان ذلك فى الزمان الغابر..».

- «نغمة اليأس هذه تكاد تقتلنى..».

- «وماذا نفعل؟؟».

- «سنفعل المستحيل، أتظن أنى أقبل على نفسى أن أفر من وجه زوجته، وأرحل وأدعها هنا...؟؟ حذار أن تستسلم لهواجسك..».

فقال فى ضيق:

- «لكننا نخسر على طول الخط.. أليس من الصواب أن نبحث لنا عن أرض خصبة أخرى نجنى منها ما خسرناه هنا؟؟..».

فقالت ساخرة:

- «ماذا تقول يا رئيس مجلس القرية؟؟ أنسيت أنك السيد الآمر هنا، وأن لك من السلطة ما يزعزع أركان بيته، وأن محمدًا معين هنا بصفة مؤقتة، وأن نقله إلى مكان آخر أمر فى غاية السهولة؟؟».

وفكر موريس مليًا فيما قالته زوجته، لا شك أنها أقوى عزيمة، وأصلب مراسًا منه، قليل من الصبر وقليل من الخسائر يمكن أن يؤدى إلى النصر الأكيد، وبعدها ينتهى كل شىء، ويصبح محمد مجرد ذكرى عابرة، زوبعة قامت ثم خفتت إلى النهاية، ويعود أهل القرية إلى الركوع فى محراب موريس الملوث، ويتزاحم على بابه المتملقون، وتأتى كاميليا تائبة آسفة، سافحة عبرات الندم، ويأتى صويحباتها ويتسابقن إلى حمل الصغيرة «لولا» وتقبيلها وتقبيل حذائها اللامع النظيف، وتموت الدعوات الحارة على شفاه المرضى من أهل القرية، وتخمد فيهم روح الكبرياء التى بثها فيهم مجىء طبيبهم، وعادت «أم لولا» تقول:

- «ولا تنسَ يا عزيزى أن صديقك المفتش بالمنطقة الطبية يستطيع أن يفعل الكثير.. ماذا لو دفعت له خمسين جنيهًا.. مائة جنيه..؟؟ تستطيع أن تعوضها فى شهر واحد بعد أن يغيب عنا وجه هذا المأفون القذر..».

ثم أخذت تحلم فى سرور طارئ:

- «إنى لأتخيل هذا المغرور، وقد صدر أمر بنقله بعد بضعة أيام، وأتخيله وهو يحمل «كراكيب» بيته، وأتصور زوجته تجر خطا الخزى والهزيمة وتمشى فى أثره وكأنها تشيع عزيزًا اختطفه الموت.. أتصور كل ذلك فيرقص قلبى من الفرح، ويعود السكون إلى نفسى القلقة الحديثة.. آه يا موريس!! أنت لا تعرف ما يشتعل فى فؤادى من نار الحنق والكراهية لهؤلاء المغرورين الأنجاس..».

وجمعت حجرة النوم بين محمد وزوجه، وكان الأصيل يغمر المكان بضوئه الذهبى، وكانت حلاوة الاستقرار تبث فى قلبيهما أمنًا ومتعة بعد طول فراق وقلق، وقال محمد:

- «تعالى إلى جوارى يا حبيبتى.. إننا نقضى أيامًا رائعة..».

قالت وهى تمشط شعرها المرسل الفاحم:

- «أتشعر بالسعادة حقًا؟؟».

- «ولِمَ لا ياحبيبتى.. كل شىء طوع يميننا.. الحب.. الرضا.. الصحة.. والجهاد، ومن حولنا الأهل والناس الطيبون والابتسامات الصادقة التى تشرق فوق الشفاه».

فقالت وهى تقترب وتضطجع إلى جواره:

- «صدقت.. حياتنا أغنية جميلة..».

- «وأنت يا عزيزتى لحنها البديع..».

وقطع عليهما نجواهما الشاعرية طرقات على الباب، وأطل محمد من الشرفة ليرى ماذا هناك فقال له التومرجى:

- «حالة استقبال..».

- «والدكتور موريس؟؟».

- «متعب وقد اعتذر..».

- «سوف آتى حالاً...».

وعاد ليلبس معطفه الأبيض ويبحث عن حذائه تحت السرير، وقالت زوجته وهو يزمع السير :

- «لكن لماذا لم يأتِ موريس ولا زوجه للترحيب بنا؟؟».

- «ولماذا لا نذهب نحن لزيارتهما؟ . .».

- «الواجب يحتم عليهما . .».

- «لكنهما ضيوف ونحن أهل القرية . .».

- «تصرف غير لائق منهما . .».

- «لا تفكرى فى مثل هذه الأمور . .».

وهبط محمد درجات السلم فى خفة ورشاقة، لم يكن يشعر بإرهاق ما بعد السفر، ولم يخالط مزاجه تأفف أو ضيق، وكان يؤدى واجبه ببساطة ورضا وكأنه يشرب كوب ماء، أو على الأصح كأنه يؤدى فريضة الصلاة . .

ولدى الباب التقى بأبيه «عم صادق» وبأمه، وقابله أبوه بعاصفة من الاحتجاج، لقد غضب عندما علم أن ابنه وزوجه قد قصدا مسكنهما بالوحدة ولن يعرجا أولاً على «بيت العائلة» فحاول محمد أن يخفف عنه ببضع كلمات رقيقة، ثم طلب منهما أن يصعدا إلى زوجه والطفلين حتى يعود من عمله بعد دقائق، ومن ثم يستطيع أبوه أن يكمل عتابه ويأخذ بحقه . .

وفى حجرة الاستقبال احتشد عدد كبير من أهل المريض،

وكانت كاميليا تقف هناك وعيناها تتبعان الدكتور محمد فى شيء من الحيرة والشرود، وعندما التقت به، قالت:

- «إنها رائعة الجمال يا دكتور؟؟».

قال محمد فى عجلة، إذ إن ذهنه كان مشغولاً بأمر المريض الراقد.

- «مَنْ تقصدين؟...».

- «زوجتك..».

- «أوه يا كاميليا.. لنهتم بالمريض أولاً.. إنه يتأوه من شدة الألم..».

***

الفصل السادس عشر

كان موضوع الحديث بين فتيات هيئة التمريض فى مسكنهن الخاص أثناء السهرة هو زوجة الدكتور محمد، وقالت هدى المطلقة :

- «لست أدرى لماذا انجذبت روحى إليها منذ رأيتها . . » .

فقالت كاميليا فى حدة :

- «أنت لا تفهمين فى صنف النساء ، إن دمها ثقيل على قلبى . . » .

- «لكنى علمت أنك تصفينها بالجمال . . » .

- «الجمال شىء وخفة الدم شىء آخر . . » .

- «فى اعتقادى يا كاميليا أنهما شىء واحد ، وهى على كل حال تمتاز بجمال الشكل وخفة الروح . . أليست أجمل من الدكتور محمد؟؟» .

- أجابت كاميليا مهتاجة :

- «اخرسى . . إنه يساوى مليونًا من صنفها . . » .

- «أنت متحيزة . . الغيرة فى دمك . . » .

قالت زكية ، وهى تزدرد قطعة من البطاطا :

- «جميلة . . قبيحة ، هذا لا يهم ، كل النساء عندى سيان والرجال أيضًا ، إننا هنا فى عمل ، ولسنا فى لجنة تحكيم لمسابقة جمال . . » .

أما زميلتهن الرابعة فقد لاذت بالصمت ، وشردت كاميليا لبضع لحظات ، لقد عادت إلى ذهنها ذكرى آلمتها ، ذكرى الرجل- محمد- الذى لم تستطع أن تطويه تحت جناحها ، ولم تستطع أن تثيره وتسيل لعابه وتجعله يلهث خلفها ، وأزعجها أيما إزعاج أن تنتهى مغامرتها بالفشل ، لم تتعود أن يخيب لها أحد رجاء ، وكلما فشلت فى الحصول على رغبتها ازدادت إمعانًا فى طلبها ، وإصرارًا عليها ، لكنها ماذا تفعل وقد عاد محمد ، ومعه زوجه وطفلاه ، وزوجه فى الحقيقة رائعة الجمال والطفلان كملاكين هاربين من الجنة ، ومحمد فى الوقت نفسه له حصانة من نوع غريب ، داؤه الكرامة ، وعيبه صفاء الخلق والحفاظ على تقاليده وأخطر ما فيه بساطته الأسرة ، وجاذبيته المثيرة ، والصفاء والرقة اللتان تشعان جوًا رائعًا حوله . . إنها ترغبه ، ولكنها حائرة ولا تدرى ماذا تفعل؟؟ ستظل جائعة ظامئة ما دام هذا الرجل معتصمًا بعفته وخلقه ، أتذهب إلى أحد «الروحانيين» ليعد لها تميمة ، أو يكتب لها عن «وصفة» لتوقعه فى حبها ، وتجعله يتوسل إليها ، وتخيلت الدكتور

محمد وهو يسدد إليها نظرات الوله والهيام، ويتبعها- ملتمسًا التعللات الواهية- أينما ذهبت، ويسترق اللحظات الخاطفة لينفرد معها، وتصورته وهو يطاردها فى إلحاح زائد ويحاول تقبيلها واعتصارها بين ذراعيه فترفض، وتمعن فى الرفض والدلال، فدق قلبها فى عنف وتسارعت أنفاسها، لكن صوت زميلتها هدى أيقظها من غفوتها اللذيذة قائلة:

- «لا مفر.. عودى إلى سعيد سلطان..».

أما زكية فقد كانت تغنى وفمها محشو بالبطاطا: «نار يا حبيبى نار» ورمتها كاميليا بنظرة شزراء، ثم التفتت إلى هدى قائلة:

- «ماذا تظنين بى؟..».

- «كل خير يا حبيبتى.. يقطع لسانى إذا كنت أضمر لك أى سوء..».

- «دعك من هذا الخداع..».

- «ألا تحبين سعيد سلطان؟..».

- «وهذا شأنى.. سأحب سعيد، ومحمد، وموريس أيضًا، وكل من أشاء ليس هناك من هو أعظم منى.. كل الناس ينحنون أمامى فى ذلة..».

قالت هدى وهى ترفع سبابتها اليمنى فى احتجاج:

- «إلا الدكتور محمد!!».

وعادت إلى كاميليا نوبة الأسى والشعور بمرارة الهزيمة، وتخيلت محمد كقمة شاهقة ضاربة فى أجواز الفضاء من العسير بلوغها، صرخت فى ثقة زائفة:

- «لا وشرفك.. إنه فى جيبى هذا، لكن ليس كل ما يحدث يقال..».

- «أتوهميننا بأن هناك أسرارًا خفية؟..».

- «ليس لديك فكرة..».

- «دكتور محمد رجل كبير المقام ولا يصح أن يكون مضغة فى الأفواه..».

قالت هدى وهى تقهقه:

- «لكنك تناقضين نفسك..».

- «أنا حرة..».

- «حتى فى اختراع المغامرات...؟؟».

وطنت بعوضة ملحاحة إلى جوار أذنها، وقد حاولت كاميليا مرارًا إبعادها أو قتلها لكنها فشلت، ومن ثم ضربت بكفها فى الهواء مغتاظة، ثم تنهدت فى ضيق قائلة:

- «أشعر بتعب، قلبى يخفق كحمامة..».

فعلقت هدى ساخرة:

- «أنبعث فى طلب الدكتور موريس؟؟».

فأردفت زكية:

- «قوليها صريحة.. أنستدعى الدكتور محمد؟..».

وقبل أن تنطق كاميليا أسرعت هدى قائلة:

- «كان هذا فى العهد البائد.. يا خسارة!! زوجته هناك..»، فوثبت كاميليا من فوق سريرها كنمرة شرسة، وقد تشنجت أصابعها، واتسعت حدقتاها، وتمتمت وهى تصر على أسنانها وتكبح غيظها:

- «كلكن سافلات، يقتلكن جمالى وعشق الجميع لى.. متى بغيظكن..».

وران على الحجرة سكون شامل، ليس من الخير التمادى فى الخلاف والسخريات، وإلا تطور الأمر إلى أسوأ، أو ربما وقعت كاميليا فى نوبة من نوبات الصرع، أو أنشبت أظافرها فى عنق إحداهن...

****

وانفردت هدى فى اليوم التالى بسعيد سلطان، لم يكن بالحجرة سواهما، كانت هدى لبقة وتعرف كيف تبدأ الحديث، وكيف تتفرع به دون أن تثير حولها أدنى شبهة، واستطاعت أن تضع كاميليا على بساط الحديث، وتحدثت عنها حديثًا موجزًا موهمًا، فأظهرت العطف عليها بادئ الأمر- وأثنت عليها طويلاً ثم تحول العطف والثناء إلى رثاء، إلى أن قالت: كاميليا مسكينة وصاحبة مرض- تصرفاتها تثير الغرابة، تصور أن هذه المجنونة لا تمل الحديث عن

الدكتور محمد، وتزعم أنها على علاقة معه، أخاف أن تصاب بحالة هيستيريا . . والأغرب من هذا سفرها الغامض إلى طنطا . . أتدرى يا أستاذ سعيد لماذا أشعر بالحزن من أجلها؟؟ . . الحقيقة لا يمكن أن أتصور كيف تكون «ست بيت» . . إنها مجنونة فعلاً . . كانت كلمات هدى عن كاميليا تنفذ إلى قلب سعيد كالمدى الحادة فتمزق فيه، وتورثه الألم الشديد، لكنه يتذكر النار التى تلفحه إذا ما رآها، ويستعيد أمس القريب وهما فى الطريق وحدهما تحت جنح الظلام ويدها اللدنة المثيرة، والمخدر العجيب الذى تبثه فى كيانه، فيكاد يغيب عن وعيه، ويترنح فى مقعده كالثمل الذى لا يشعر بما حوله.

وبعد لحظة صمت قالت هدى فى خجل:

- «جاءنى اليوم خطاب غريب من أمى . . ».

قال سعيد دون حماس:

- «خير . . ماذا فيه؟؟ هل أصابها- أى مكروه . . ».

- «لا . . لا- هى بخير . . لكنه أمر آخر . . ».

- «ماذا؟؟».

قالت والارتباك يخالط نبراتها:

- «تصور . . تريد أن تزوجنى لابن أختها مدرس ابتدائى . . ».

كانت نظراتها الحادة ترقب ملامح وجهه فى شغف، وتترقب ماذا سيكون تعبير عينيه، لكنها وجدته كما هو شاردًا وكأنه فى وادٍ آخر، فتركزت نظراتها على شفتيه، انتظارًا لما يقول:

- «خبر سار جدًا . . » .

- «جداً؟؟ . . » .

- «بالطبع . . ألف مبروك ، لسوف نقيم لك هنا حفلاً رائعًا . . » .

كانت عباراته تحمل مجاملات مجردة لا أكثر ؛ ولهذا خرجت كلماته ميتة لا روح فيها بلا أدنى انفعال ، لكنها لم تيأس تمامًا .

- «هذا كلام فارغ» .

- «لماذا؟ . . » .

- «لقد رفضت قبله ثلاثة أزواج . . » .

- «ألا تنوين الزواج إذن؟ . . » .

- «أنا لا أحبه . . » .

قال سعيد وقد بدأت أزمة الضيق تزايله :

- «آه . . هنا يقع الكلام ، ترى من السعيد الذى حظى بقلبك الثمين؟؟» قالت وقد أطرقت حائرة :

- «ألا تعرفه؟؟» .

- «من يدرى؟ لعله الدكتور محمد ، ولِمَ لا؟؟ كل شىء جائز» .

- «لكنك تعرفه كما تعرف نفسك . . » .

- «مَنْ . . » .

واستجمعت شجاعتها، وألقت بكل ما تملك من طاقات فى المعركة، قالت والدموع تسبق كلماتها :

- «أنت يا سعيد!!» .

- «أنا؟؟؟» .

- «أجل...» .

ليكن ما يكون، لقد قذفت بالكلمة التى أرَّقتها طوال الشهور المنصرمة، أجل قالتها لتريح أعصابها من هوس التفكير، وأرق الليل، لقد آلمها الكتمان، وتريد أن تستقر ولو على عذاب- وهى مجربة، تزوجت من قبل، والزواج يطفىء الكثير من وهج المراهقات وأحلامهن الثائرة، ثم استطردت :

- «أنت تعلم أنى «ست بيت» ممتازة، قضيت هنا فترة طويلة لم يسمع عنى أحد شيئًا، أرعى كرامتى وشرفى. . كاذب كل من يزعم غير ذلك، والدليل منك أنت. . هل رأيتنى فى وضع غير لائق ذات مرة. هل دارت حولى هنا همسات مخجلة؟؟ إنى أهب نفسى لك لأنى أحبك. . أحبك كأقوى ما يكون الحب. . وستجدنى لك طول العمر خادمة. .» .

وأسقط فى يد سعيد، ولم يدر بماذا يجيب، إن الدموع تنهمر من عينيها، وقلبها يعلو ويهبط وكلماتها مرتعشة متلعثمة لكنها تنبثق من أعماقها صادقة، لا أثر للرياء والكذب فيها، وهو لم يفكر يومًا ما فى الزواج منها، بل لم يفكر فى الزواج مطلقًا إلا فى الآونة

الأخيرة، كاميليا وحدها بغرابتها وقسوتها وروعتها هى التى ملأت قلبه وهى التى استأثرت بتفكيره وأورثته القلق والسهاد، وأدرك سعيد حرج الموقف ودقته، فتمتم:

- «لكن الأمر يحتاج إلى تفكير . .».

- «ألم تفكر فيه من قبل؟؟».

- «أبداً . .».

- «إذن فأنت لا تحبنى . .».

وصمت برهة لا يعرف كيف يرد عليها، ثم همس:

- «إنى سعيد جداً بهذا الإخلاص الفذ، ومقدر لعواطفك الطيبة وخلقك النبيل . .».

- «فلنتزوج إذن . .».

- «لكن . .».

- «لكن ماذا؟؟».

- «أعنى أمر الزواج بالنسبة لى لا تفكير فيه الآن، هل نسيت أنى صاحب مسئوليات، أسرتى فى حاجة إلىّ وأغلب إخوتى لم يتم تعليمهم بعد . . وإخواتى لم يتزوجن إلا كبراهن . . الحق إن ما يتبقى من مرتبى لا يكاد يقوم بنفقاتى . .».

فقاطعته قائلة:

- «لدى فى صندوق التوفير ثلاثمائة جنيه، وأمى تملك نصف

البيت الذى نقيم فيه، ومرتبى مضافًا إلى مرتبك يجعلنا فى بحبوحة من العيش . . ».

كان سعيد يتمنى أن يسوق له الحظ ما ينقذه من هذا الموقف الحرج، لكن باب المكتب لم يزل مغلقًا، ولا يكاد يسمع أية حركة فى الخارج لكأن الظروف قد تآمرت عليه، فلم يجد مناصًا سوى أن يهرب قائلاً :

- «لندع هذا الأمر فترة، إنه يحتاج إلى تفكير . . والزواج مستقبل ثم إنه يرتبط بى وأسرتى وظروفى . . وليفعل الله ما يشاء . . ».

كانت خطواتها البطيئة الحزينة توقع لحنًا تعسًا على بلاط المنشى، وصعدت سلم السكن متهالكة، والتقت بها زكية عند البسطة، فصاحت قائلة :

- «أين كنت؟؟ كدت أموت من الجوع، الطعام معد وكنا على وشك أن نأتى عليه . . »، ولما لم تجب هدى بشىء، دققت زكية النظر فى وجهها، وهمست فى رعب :

- «ماذا ؟؟ أتبكين؟».

قالت هدى فى نبرات باكية :

- «لا شىء . . صداع عنيف يكاد يفجر رأسى . . »

وجاءهم صوت كاميليا العالى من بعيد :

- «الجرس ضرب يا أولاد الهرمة . . سوف أبدأ الأكل . . واحد . . اثنين . . ونصف . . ».

الفصل السابع عشر

لماذا يكره الجانى رجل الشرطة الذى يقبض عليه؟

سؤال غريب ترددت أصداؤه فى نفس الدكتور موريس بعد أن عاد من المدينة ليحفر لمحمد حفرة جديدة كى يوقعه فيها، كان موريس يشعر أنه يناضل فى معركة خاسرة، لكن «أم لولا» تؤكد له عدالة المعركة كما تؤكد له وجوب انتصاره فيها، غير أن موريس مع نفسه يختلف تمامًا عن موريس مع زوجه، ما الذى يجعله يحقد على محمد؟؟ الإجابة ببساطة: لأنه حاربه فى رزقه، وحطم له قصور الآمال التى حلم بها طويلاً هو وزوجه، لكن أيهما صاحب الحق؟؟ موريس يسير على الخطة التى يعتنقها أغلب الأطباء، ويعتنق العرف السائد، ومحمد يسيرعلى النهج المثالى، يفعل ما يجب أن يكون وإن كان هذا مخالفًا للعرف المنحرف، إنها مشكلة المشاكل، رجل يسعى حثيثًا فى التحليق نحو آفاق عالية -نحو السماء، وآخر يجذبه معه إلى الأرض فى إصرار واستماتة كى يعيشا معًا حيث بقية خلق الله، ولم يستطع موريس أن يعترف لنفسه

أنه تمادى فى ابتزازه المال، وكان فى إمكانه أن ينهج نهجًا وسطًا بين التطرف والمحافظة ، لكنه لم يكن يفكر فى ذلك، كان سلطانه يزداد، ومكاسبه تربو، وحامد وأمثاله يلتقطون الفتات، ويغنمون من ورائه، ويصبون فى أذنيه كلمات التشجيع والإطراء، لا أحد يجرؤ على معارضته، أو التصدى له، فالمرضى لا يفكرون فى المشاغبة بقدر ما يفكرون فى آلامهم القاسية والخلاص منها بأى ثمن. . .

ورفع موريس عينه، فوقعت على لافتة صغيرة، مكتوب بخط جميل له إطار مذهب، كلماتها تقول: «الله محبة. . .» وقرأ هذه العبارة مرات عديدة، وأخذت أصداؤها ترن فى رأسه وارتاحت نفسه للانطباع الهادئ الوديع الذى تركته تلك العبارة، وبدا له أنها جلت كثيرًا من الصدأ والتراب الذى تراكم على قلبه طوال الأيام العاصفة التى مرت لحظة فريدة من لحظات العمر يتسامى فيها المخلوق الأرضى إلى حيث الجلال والسكينة والحب، ألا ما أجملها من لحظات!! ولماذا لا يفكر موريس منذ الآن فى تطوير موقفه؟؟ لماذا لا يفتح قلبه للدكتور محمد، ويكف عن تدبير المؤامرات ضده، وإثارة الشغب من حوله، ورميه بكل نقيصة يأنف منها كل ضمير حى؟ محمد فى الحقيقة لم يفكر فى افتراس «كاميليا»، ولم تتلوث يداه بخطيئة، ولم يبدُ فى نظراته مكر أو إثم، محمد لم يتحداه ويحرجه مباشرة، بل كان دائمًا رقيقًا فى معاملاته، رقيقًا فى نقده، طيبًا لحد السذاجة فى أحكامه وتصرفاته، ولا شك أن الأزمة سوف تخف حدتها، وسيصفو الجو من كل كدر، ويستطيع

موريس أن يكسب -كعهده- بعض المال، وإن قل هذا الكسب، هذا إذا فتح قلبه لمحمد، وتزاورا واتحدا وظهرا أمام الناس بمظهر الصديقين المتعاونين برغم اختلافهما فى الخطة.

«الله محبة...» أجل: وبالمحبة يستطيع موريس أن يغنم الكثير، فيريح ضميره ولا يحرق أعصابه فى التدبير والمؤامرات والصراع الظالم، ويستطيع أن يرفع رأسه، ويبقى كما هو رئيسًا «لمجلس القرية» دون أن تزعزع عقيدة الناس فيه، ودون أن يفكر أحدهم فى إحصاء الأخطاء له ونزع الثقة منه، إنه يمثل الوعى الجديد، ويحمل أمانة المثل التقدمية، وينشر مبادئ الخير والحب، والعدالة، هذا هو المفروض، أما أن يظهر بمظهر المستغل الحاقد فإنه يتنافى مع وضعه كرئيس وكطبيب وكرجل مثقف متمدين.. وعندما دخلت زوجته قالت:

- «فيم تفكر..».

- «أفكر فى أن نزور الدكتور محمد الليلة...».

- «هكذا دفعة واحدة؟؟؟».

- «ولم لا يا عزيزتى؟؟».

فهزت رأسها فى مكر، وقالت:

- «آه.. فهمت.. تريد أن تخدعه، أن تظهر له الود ثم تطعنه.. خطة عبقرية.. منطق العقل يؤيدها.. لكن كيف أجلس

مع زوجته على مقعد كمقعدها؟؟ إنها لا شك ذات كبرياء كزوجها، وتريدنى أن أكون مثلها، وهذا مستحيل، إنها لو فعلت ذلك سأصفعها على وجهها..».

فقاطعها موريس فى حدة:

- «ما قصدت ذلك.. لقد ندمت على ما فعلته اليوم ضده فى المنطقة، إن الله محبة يا زوجتى، وبالحب نعيش سعداء ونجنب أنفسنا الوقوع فى المشاكل والكوارث والخسائر المادية... إنى أؤمن بما أقول... لن أزوره خدعة، ولكن أزوره مودة وصفاء لنبدأ عهداً جديداً بلا مشاكل»، وعلقت «أم لولا» ساخرة:

- «أنت متعب...».

- «لكنى أعتقد الصواب فيما أقول....».

- «هل جننت يا موريس؟...».

- «بل فى منتهى الرزانة...».

ثم قال مشيراً إلى العبارة الخالدة:

- «انظرى... الله محبة...».

فهزت ضحكتها الماجنة أرجاء الغرفة، وقالت:

- «يا للخيبة؟؟ أردت أن تقنع محمد بالسير على خطتك، فحدث العكس، تحولت إلى درويش من مريديه، المحبة التى تعنى ضياع الرزق بلاهة.. إنها لا تسمن ولا تغنى من جوع...».

ثم ربتت على ظهر وحيدتها «لولا» وأخذت تناجيها ساخرة:

- «حبيبتي لولا.. أبوك يريد أن يطعمك محبة، وقد عاهد نفسه على أن يبنى لك عمارة شاهقة من المحبة.. أبشرى يا صغيرتى التعسة.. أبوك يريد هو الآخر أن يكون عالـمًا....».

ثم مسحت على شعر زوجها حانقة، وهى تقول:

- «يا إلهى تبارك اسمك».

قال موريس وهو يضرب على المنضدة بقبضته:

- «إنك أسأت الفهم يا حبيبتى ....».

- «كيف؟؟».

- «لم أقل أبدًا إننى سأشتغل بالمجان، لقد أردت فقط أن أوثق صلتى بمحمد ونكون أصدقاء على أن يسير كل منا فى طريقه..».

- «تصرف غير عملى، لأن الناس يلتفون حوله..».

- «وهناك أيضًا من يلتفون حولى، زبائنى القدامى فى القرية وفى الكفور المجاورة يعرفوننى منذ سنوات وهم يثقون فىّ، أنا لا أقول أن دخلنا سيبقى كما هو، لكننا سنكسب وإن قل الدخل...».

فأردفت وهى تقبض على يده فى شراسة:

- «لن نتراجع.. ولا مجال للانسحاب...».

- «لماذا؟؟».

- «هذا رأيى...».

- «لكن . . .» .

- «كفى . . إذا لم تفعل ما آمرك به، فسوف أحمل ابنتى ونرحل، لقد دفعنا للمفتش «إياه» مبلغًا من المال، وقد حرضت «حامد» بالأمس على أن يخدع الناس فى قرية مجاورة ويجمع توقيعاتهم مطالبين بنقل الدكتور محمد لخلاف قديم بين البلدين، وزعم حامد للأهالى الأميين أن هذه الشكوى -على العكس تمامًا من حقيقتها- تطالب بتثبيت محمد فى القرية . . وقد فعلها، كما أرسلت شكوى من مجهول تؤكد أن محمد يستغل الناس ويأخذ المال مقابل العلاج، وشكوى ثالثة من مجهول أيضًا، تتهمه بإقامة علاقة شائنة مع مساعدته الممرضة «كاميليا» . .» .

فصرخ موريس فى رعب:

- «هل فعلت ذلك حقًا . . ؟؟» .

- «أجل . .» .

- «كارثة كبرى . .» .

- «يجب أن نكون صرحاء مع أنفسنا وواقعين أيضًا . . هذا الرجل نكرهه . . . وتعبك لا بد أن يكون له ثمن ومرتب الحكومة ليس هو الثمن الكافى . . إن التشبث بالمثاليات البلهاء يقتلنى، يثير حنقى وتقززى فماذا قلت؟» .

كان موريس يشعر إلى جوارها بالضآلة والضعف، ولم يكن من السهل أن يتركها ثائرة غاضبة، وإذا بدرت دمعة من عينيها

الجميلتين، خارت قواه، وإذا انطلقت عبارات الاحتجاج والتمرد من بين شفتيها الورديتين الفاتنتين، ذابت شجاعته، أما إذا هددته بالهجران والسفر فإنه يفقد كل قدرة على المعارضة أو المقاومة، وعندما تذكره برصيد البنك والعمارات الشاهقة والعربية الأنيقة وحياة الرغد والسعة فى المستقبل، سال لعابه، وتجلت ماديته فى وقاحة غريبة تتنافى مع ما يلم به أحيانًا من جنوح إلى المسالمة والمحبة، شخصيتها شمس مشرقة وهو قنديل زيتى متهافت تطفئه نفخة واحدة، خُلقَتْ لتكون يدًا باطشة ذات إرادة، وخلق ليكون أداة تحركها كيف شاءت.

وتمتم موريس فى خور:

- «أمرك يا حبيبتى....».

وانحنت تقبله فى رضا.

- «عشت لى يا حبيبى..».

عندما رفع عينيه بعد القبلة الخاطفة، وقعا بدون قصد على اللافتة الصغيرة الأنيقة «الله محبة»، وسرعان ما حول نظره عنها حتى لكأن مجرد النظر إليها جريمة عظمى وبدا له أن لو رأته زوجه يقرؤها مرة ثانية فلسوف يحدث ما لا يحدث عقباه.. وجاءه صوتها:

- «ومع ذلك لا مانع من زيارتهما.. تغطية للموقف وما يجد من أحداث لا شك أنها ستزلزل كيانهما..».

الفصل الثامن عشر

هكذا خلق الله «كاميليا»، ولم يكن سعيد سلطان بقادر على أن يعيدها خلقًا آخر، فليقبلها على علاتها أو يدعها وشأنها، وكلا الطريقين شائك محفوف بالألم، ولهذا السبب، رأى سعيد أن يقصد الدكتور محمد ليستنير برأيه، بعد أن توثقت صلته به، ووجد لدى الطبيب إحساسًا إنسانيًا عميقًا، وشعر نحوه بشعور الصداقة المبرأة من الصغائر، ورويدًا رويدًا أصبح سعيد مغرمًا به، ينتهز أية فرصة ليجالسه ويحادثه، وأدرك أن صحبة الدكتور محمد كشجرة وارفة خضراء، يجد فى ظلها الظليل ريح الاطمئنان والرضا، وبقدر اقترابه من محمد كان نفوره واشمئزازه من موريس، ولم يعد ما يشاع عنه وعن «كاميليا» أو يثير فى قلبه حقدًا وغيظًا، فقد تبين له محمد أكبر من أن يلوث شرفه، أو يحط من كبريائه بتصرفات المراهقين المتهورين.

لم يكن قد مضى من الليل إلا أقله، ومحمد جالس فى مكتبه بالمستشفى يحصى ويراجع عهدته من العقاقير الطبية، على ضوء لمبة

«جاز» وذهل عندما تبين له أن هناك عجزًا يربو على ثلاثة آلاف قرص من مختلف العقاقير، لم يكن يتصور -وهو الدقيق العادل- أن يجد قرصًا واحدًا ناقصًا إنه لا يأخذ لنفسه شيئًا، ولا يعطى أحدًا علاجًا إلا إذا حصره ودونّه على «تذكرته»، ثم إن مفتاح المخزن معه، فكيف حدثت السرقة؟ وهل هناك من يجرؤ على سرقته؟ إنه يخدم الجميع، ولا يتسبب فى إيذاء أى شخص فى المستشفى أو القرية، ويبذل جهده من أجل الآخرين فهل يليق بهم أن يرتكبوا هذا الإثم الكبير؟ ولم يرد أن يوجه الاتهام إلى أحد بعينه، فبعض الظن إثم، والأمر أخطر من هذا كله، فقد ينتهز أحد الحاقدين الفرصة، ويرمى الدكتور محمد بالسرقة والاستغلال والاتجار فى العقاقير . . والمنطقة الطبية لا تراعى ظروف أحد، إنها لا تنظر إلا إلى الأرقام، وعمليات الجمع والطرح، والدكتور موريس لن يكون نبيلاً، فلسوف يرفع عقيرته مشهرًا به، ويسارع بإرسال خطاب سرى إلى المنطقة، وبهذه الطريقة يخلص منه ويجعله فى نظر المسئولين ملوثًا . . سارقًا . .

وشعر الدكتور محمد بألم نفسى عميق -وضاقت الدنيا فى عينيه، وكاد ييأس ويلعن تلك الفكرة التى دفعته إلى هذا المكان ليقاسى مرارة الكيد، وعبث المتآمرين، لكن سعيد سلطان دخل فى الوقت الحرج، وأذهله أن يصافحه الدكتور محمد فى فتور، ويرى خطوط الألم مرتسمة على محياه -فنسى سعيد إلى حين . . مشكلته الخاصة، وأخذ يتساءل بينه وبين نفسه عن السبب الذى أدى بالدكتور محمد إلى هذا الضيق والألم.

- «أراك متضايقًا يا دكتور . . » .

- «لا أدرى كيف أتصرف . . » .

- «خيراً . . . » .

- «أعتقد أنه ليس من اللائق أن أتكلم . . » .

- «ألا تثق بى يا دكتور؟ . . . » .

وأطرق محمد فى اكتئاب ثم رفع رأسه ، وقال :

- «عجز ضخم فى عهدتى من الأدوية . . . » .

وهز سعيد رأسه شأن الخبير العالم بواطن الأمور وأردف :

- «عيبك أنك حسن النية لحد بعيد . . . » .

- «ماذا تعنى؟» .

- «أعنى أنك تعيش وسط عصابة من اللصوص التومرجية ، وموريس شيخ منصر كبير . . » .

قال محمد فى ضيق :

- «لا نريد أن نقدح فى حق أحد . . . » .

- «وماذا نفعل إذن يا دكتور؟ . . . » .

- «تبحث عن الحقيقة . . من أخذ هذا الدواء؟» .

- «الحقيقة يعرفها هؤلاء الذئاب الذين لا يخافون الله . . . » .

ثم جلس سعيد يشرح له أساليب سرقة الدواء، وكيف أن بعض التومرجية يملك مفاتيح تفتح أى قفل، وأن كثيرين منهم قد ضبطوا متلبسين بالسرقة، ومن عادة الدكتور موريس أن يصفح عنهم ويتخذ احتياطاته، وكان من الواجب عليه أن يبصر محمد بهذه الثغرات حتى يكون على حذر، وتحدث سعيد عن تومرجى التذاكر، وكيف أن التذاكر قسمان: قسم المجان: لموظفى الوحدة وللمعدمين من الأهالى، وقسم: يدفع رسومًا قدرها أربعة قروش وهم الغالبية، ثم بيّن له كيف أن تومرجى التذاكر يكرر بعض أرقام التذاكر، وبعد انتهاء العمل يمزق التذاكر الزائدة، ويحتفظ لنفسه بثمنها، واستمر سعيد يسرد له عشرات الحيل والألاعيب الشيطانية، وبدا أنه يعيش فى بيئة مسمومة، فى مستنقع ممتلئ بالقاذورات، ولم يستطع محمد أن يخفى ما ألمّ به من غيظ وضيق، وتمتم فى غيظ:

- «ولماذا لا نطهر هذا الجو الفاسد؟».

- «لا تسمه تطهيرًا.. بل استئصالاً من الجذور، لكن هذا يكلفك الكثير..».

- «وكيف؟؟».

- «سيناصبك الجميع العداء.. ثم إنك لا تستطيع أن تفتح على نفسك جميع الجبهات وتخوض أكثر من معركة.. أضف إلى ذلك المنطقة الطبية، إنها لن تنصفك، والتحقيقات مائعة طويلة الأمد، وتحتاج لوقائع دامغة.. والحكاية طبيخ...».

وعضّ الدكتور محمد على شفته السفلى فى حيرة وتمنى فى تلك اللحظات القاسية أن تمتد إليه يد سحرية وتنتشله من هذا العذاب، وتقذف به إلى حيث كان.. إلى القاهرة... أراد أن يكون مثاليًا فأحالوه إلى لص، كان يأمل أن ينفى الأوحال والأقذار عن طريق المساكين من أهالى قريته لكن كل شىء باقٍ على ما هو عليه، بل تلطخت ثيابه الناصعة بالأقذار..

- «فما العمل إذن يا سعيد؟».

- «أن تشترى بعض الأودية، وهى لن تكلفك كثيرًا وأن تسدد بعضها...».

- «أما الشراء فمفهوم، وأما (التسديد) فكيف يكون؟».

قال سعيد وقد بدا عليه شىء من الحرج:

- «التسديد هو أن تكتب للمريض عشرة أقراص وتعطيه ثمانية، وثلاث زجاجات بنسلين ولا تمنحه غير اثنتين...».

- «لكن هذه سرقة..».

- «العين بالعين...».

- «سرقنى التومرجية، لكن المرضى ما ذنبهم؟».

- «لا حل غير ذلك..».

وهز محمد رأسه قائلاً:

- «يجب أن أدفع ثمن بلاهتى..».

وصمت برهة ثم استدرك :

- «لكن أقسم بشرفى ، لو أمسكت بأحدهم متلبسًا لما رحمته ، إنى سأدفع ثمن هذا الدواء من قوتى وقوت عيالى ، كنت أعتقد أنى ما دمت لا أسرق فلن يقدر أحد على فعلها معى لكن . . . » .

فقاطعه سعيد :

- «لكنهم يعتقدون أنه مال حكومة . . . » .

- «مال الحكومة حرام كمال الأفراد تمامًا . . من هذا المال نتعلم ونعالج ونحمى أرضنا» .

فقال سعيد :

- «أنت كمن يؤذن فى مالطة . . » .

ولم يوجه محمد اللوم إلى أحد بقدر ما وجهه إلى نفسه ، ليس معنى طيبته ومثاليته أن ينصرف عن الأمور الإدارية ، ويركز كل همه فى المرضى والعلاج ونشر الوعى بطريقة علمية ، بل عليه أيضًا أن يفتح عينيه ويحاسب كل من يشذ أو يخطئ ، ليعطى كل ذى حقه ، وينتزع من اللص ما سرقه ، لماذا لم يتفحص أوراقه وعهدته أولاً بأول؟ واليقظة أو المراقبة ليس معناها أبدًا سوء النية ، هذا ما كان محمد يحدث به نفسه والخواطر المختلطة تنثال فى رأسه انثيالاً ، وسعيد جالس قبالته ينفخ من الغيظ ، فقد أصبح يعتقد أن من يضع العقبات فى طريق هذا الرجل أو يعرقل انطلاقه فهو خائن جبان لا يستحق شرف الإنسان الحق .

ولم يغب عن سعيد بوادر اليأس التى دهمت الطبيب وهو فى فورة غضبه وأسفه، وعزّ عليه أن ينقلب إلى رجل حانق على خائنيه، فيؤثر ذلك فى خطته وسلوكه، وسعيد يعشق البطولات، وقد رأى فى هذا الطبيب البسيط الأعزل بطلاً، يخضع كل شىء لمنطقه الواضح وإرادته الحديدية وضميره النظيف، صحيح أن سعيد ضعيف أمام «كاميليا»، لكن هذا الضعف يؤلمه ويجعله يحترم القوة فى غيره.

وقال سعيد فى جزع:

- «أتشعر باليأس؟».

- «ربما تنتابنى الآن حالة تشرف بى على.. ماذا أقول؟ لن أيأس أبدًا، وأعرف أن الأمر ليس هينًا كما تصورت فى البداية، يجب أن أهيئ نفسى لكل الاحتمالات وآخذ حذرى بعد ذلك، هذا كل ما فى الأمر..».

وتنحنح محمد، وجفف العرق الخفيف الذى ندى جبينه، ثم تنفس فى ارتياح، وهمس:

- «تعلمت طول حياتى -كطبيب- أن المريض لا يشفى هكذا دفعة واحدة، لكنه يبرأ من دائه على مراحل، وأهيئ نفسى دائمًا لنكسات قد تصيبه فيتراجع إلى الوراء -ثم يخطو فى طريق الشفاء خطوات موفقة، وهذا المجتمع الصغير ينضح بالآلام والأمراض وسيشفى حتمًا وإن تعثرت خطواته...».

وأشرق وجه سعيد بالرضا، وقال:

- «أنت أمل الآلاف هنا، كلمة رقيقة منك تؤثر فيهم أكثر مما تؤثر العقاقير المختلفة، قد لا تدرى ما قاسوه من مرارة وإهمال قبل مجيئك.. كم أنا سعيد حين أراك تستقبل الأزمات بصبر وإيمان..».

وقطعت عليهما خلوتهما نوبة من سعال مفاجئة خارج المكتب، فوثب سعيد ليرى من هناك كان «حامد» يقبع كاللص خلف القائم المجاور للسلم، متستراً بالظلام الحالك، يلتقط الحديث خفية، واقترب سعيد منه، ونظر إلى وجهه فى غيظ قائلاً:

- «ما الذى أتى بك إلى هنا الساعة؟».

- «مجرد مصادفة..».

- «ولماذا تقف هكذا؟».

- «أبداً.. لكن..».

قال سعيد وهو يصر على أسنانه ويدفعه فى صدره بقبضته:

- «لكنك وقح..».

وكاد سعيد يفتك به لولا تدخل الدكتور محمد، وصرفه لحامد وهدئته لخواطر سعيد الثائرة.

- «يا دكتور هؤلاء الحقراء يعيشون على الدس والوقعية..».

- «وماذا يكربك ياسعيد؟ إن ما أقوله الآن لا أكتمه أمامهم . . ظاهرى كباطنى فيما يتعلق بالعمل . . » .

ونسى سعيد ما جاء من أجله تمامًا ، لقد غاب عن ذهنه كاميليا ومشكلة الزواج ، ولم يطف بخياله مشروع الرباط الزوجى الذى اقترحته هدى ، وذابت مشكلته الصغيرة فى خضم الدور الكبير الذى يلعبه الدكتور محمد فى شرف وعفة .



الفصل التاسع عشر

لم يكن موريس وأذنابه وحدهم هم الذين يقيمون العقبات فى وجه الدكتور محمد، كانت كاميليا هى الأخرى لاتفتأ تطارده فى جنون، وكأنها تأبى أن تعترف بالهزيمة، وخاصة أن محمد هو الرجل الوحيد الذى وقف أمام إغرائها كالصخرة الشماء، وتومرجى التذاكر يتلاعب، بقيت طائفة أخرى كان محمد يحاول أن يصفح عن مضايقاتها؛ لأنه لم يتكبد المشاق ويتحمل الأذى إلا من أجل هذه الطائفة . . أهالى القرية أنفسهم، كانت مطالبهم كثيرة، وأحيانًا تكون هذه المطالب غير عادلة، إنه ابن قريتهم، وهو يعلن دائمًا أنه فى خدمتهم صغيرًا وكبيرًا، مساء ونهارًا بدون مقابل، لقد فتح أمامهم باب العون والتضحية على مصراعيه، فاندفعوا إليه دون نظام أو تعقل، ولم يرحموه ولم يذكروا أنه طاقة إنسانية محدودة، لها الحق فى الراحة والاستمتاع، وله أسرة يجب أن يعطيها شيئًا من وقته، ولثقافته هى الأخرى نصيب من وقته، والطلبات المنزلية زادت بصورة مزعجة، ومحمد يخجل أن يخيب رجاءهم، فيحمل أدواته وينتقل إلى أطراف القرية، أو يذهب سيرًا

على الأقدام إلى الكفور والقرى المجاورة، لكنه اكشتف أن تسعين فى المائة من هذه الحالات التى تزعم إنها تعجز عن الانتقال إلى المستشفى تبالغ فى زعمها، إن أغلبهم يشكون من نزلة بردية، أو إنفلوانزا حادة أو مغص كلوى أو صداع شديد أو روماتيزم بالظهر . . إلخ، إن خمس أو ست انتقالات يوميًا لا تدع لمحمد فرصة سوى ساعات قلائل للنوم والأكل، وباقى ساعات اليوم يقضيها بين المستشفى والتنقل، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل إن أحد الأهالى قد يأتى إليه قائلاً :

- «أنا مريض . . . » .

- «مم تشكو . . » .

- «لا أدرى تمامًا، لكنى أشعر بقليل من الضيق وانحراف المزاج» .

وقبل أن يجيب الدكتور محمد يسمعه يستطرد :

- «أريد أن أقضى بضعة أيام فى القسم الداخلى لأستريح وأتناول قدرًا من الفيتامينات والمقويات حتى تقوى أعصابى . . » .

ويحاول الدكتور محمد جاهدًا أن يقنعه أن القسم الداخلى للمرضى الفعليين، لمن هم فى حالة يتعذر معها العلاج فى الخارج- ويلمح إلى أن المستشفى ليست ملجأ أو استراحة أو فندقًا للاستحمام فينصرفون وهم غاضبون، ظانين أنه قد تنكر لمبادئه أو خالف ما يشاع عنه بين أهل القرية، وقد يثور أحدهم قائلاً : «الأمر

بسيط جدًا، أستطيع أن أدفع جنيهًا للدكتور موريس فيدخلنى على الفور . . » وينفذ ما يقوله فعلاً فى اليوم التالى، وقد يكون أحدهم مريضًا فعلاً ويلح فى الدخول، لكن الأسرة ممتلئة وليس بالداخل مكان واحد خال، ويرى المرْيض المحتاج أنه يجب أن يعالج، ويرى محمد أن له الحَق فى ذلك، غير أن اليد قصيرة والعين بصيرة، فينصرف المريض غاضبًا، وهو يتمتم: «جنيه لموريس، ولا حاجة لنا بك . . ».

كانت هذه عقبات تعجز الدكتور محمد عن حلها بطريقة مُرضية، وكان محمد يقاسى الكثير فى سبيل إقناعهم وزحزحتهم عن أفكارهم الجامدة الظالمة، ففى اعتقادهم أنه يستطيع أن يفعل المستحيل ويمكنه إرضاؤهم جميعًا، وصاحب الحاجة أرعن لا يؤمن بمنطق ولا يقبل المعاذير.

ومع ذلك فقد كان يعتصم بالصبر، ويحاول دائمًا أن يعفو ويتسامح، ويغلق أذنيه عن الكلمات القاسية الفظة، ويبتسم ويعدهم صادقًا بتحقيق آمالهم، وجلب الراحة لهم ولمرضاهم، وموريس يرى هذا فيثور ويحتدم غضبه، ويقول له: «تستطيع أن تطردهم، أن تضربهم وتبصق فى وجوههم هؤلاء الحمير لا ينفع معهم الرفق والهوادة «العبد يقرع بالعصا» هم جميعًا عبيد منحطون، أنا أعرفهم أكثر منك، عشت معهم ما يربو على خمس سنوات لو عرفوا أن الأمر ليس سهلاً كما يتصورون، ولو أخرجوا شيئًا من جيوبهم،

لأخذوا الأمر مأخذ الجد ولما رأيت هذه الوجوه الكالحة هنا إلا عند الضرورة القصوى، لكن للأسف ما زلت طائرًا بأفكارك الساذجة بعيدًا عن الواقع . . هؤلاء الفلاحون قساة لا يرحمون . . ».

ويهمس الدكتور محمد فى ألم :

- «لكنهم أهلى . . ».

ويقول موريس محتدًا :

- «أبوك نفسه . . ».

- «ماذا؟».

- «حانق على تصرفاتك، إنه يعرف هؤلاء أكثر منى ومنك، لقد كان معى أمس . . عم صادق . . رجل ذكى واقعى، إنه يشفق عليك من هذه الطلبات المجحفة المتزايدة، ويؤلمه أن يراك فى الصباح والمساء حاملاً سماعتك وجهاز الضغط ومقياس الحرارة متجولاً فى الأزقة والحوارى كبائع الفراريج، أقسم أن هذا لن يزيدك احترامًا لديهم، ستكون دائمًا مركبًا سهلاً وعندئذ يرتبك عملك، وتتبعثر طاقته سدى، هؤلاء الغوغاء أنانيون، أقسم بشرفى أنى لا أخدعك . . ».

ويصمت موريس لحظة، ثم يرفع إليه عينين تقدحان بالشرور ويقول :

- «أتدرى لماذا يتزاحمون عليك وينفضون من حولى . . ».

- «لماذا؟؟؟».

- «أتظن أنهم يفعلون، لأنك أكثر خبرة وعلمًا..».

- «لا أعتقد..».

- «إنهم ينكبون عليك لسبب آخر..».

- «الإخلاص؟؟؟».

- «أنت طيب..».

- «ماذا تعنى..؟».

- «لا يحركهم نحوك إلا كونك مبتذلاً رخيصًا.. معذرة.. أقصد أنهم لا يدفعون لك شيئًا لا تكلفهم سوى أن يأتوا ويعرضوا أنفسهم للفحص، ثم إنك كريم فى صرف الدواء- هذا كل ما فى الأمر، لو فعلت أنا مثلك لتحول زحفهم إلىّ، ستصبح كما يقول المثل: «زامر الحى لا يطرب» أنا الذى سأطربهم آنذاك، ويومها يرمونك بالعجرفة والإهمال وخيانة العيش والملح الذى أكلته معهم صغيرًا.. أقسم أن هذا سيحدث».

ويتمتم محمد حائرًا:

- «إنى أفعل ما أظنه صوابًا، وهذا يكفى..؟».

- «مَنْ قال إنك على صواب؟؟؟».

- «قلبى.. و.. ومنطقى..».

ويقهقه موريس، ويقول:

- «أستطيع أنا الآخر أن أزعم أن قلبى ومنطقى ينفى الصواب عن تصرفاتك . . أمعك ميزان . . . ؟» .

- «ميزان العدالة . . » .

- «هل العدالة أن تفنى شبابك وعمرك وتتجاهل أشواق روحك وآمال أسرتك . . » .

- «والتضحية» .

- «ما لها يا محمد؟» .

- «أسمى من العدالة . . » .

- «هذا العالم يا عزيزى ليس له موازين ثابتة، كل شىء فيه نسبى، العدالة لها عشرات التفاسير، والتضحية قد تكون جنونًا، وقد تكون بلاهة، وفضائلك قد تكون رذائل عند غيرك» .

ويهمس محمد:

- «ربما، لكن الليل ليل، والنهار نهار . . أم أن هذه هى الأخرى مسألة نسبية؟» .

- «كل ما أعرفه أن الظواهر الطبيعية غير النظريات الفلسفية والخلقية . . الليل والنهار غير الأنانية والتضحية . . » .

وقطع حديثه فجأة، ثم قال بنبرة تحدٍّ:

- «أتعتقد يا دكتور أن الحكومة عادلة دائمًا؟».

- «قد تعدل وقد تظلم، ولكن هناك ظروفًا أخرى قد تضطرها إلى الظلم بحكم اتساع دائرة أعمالها وتشابك مصالحها، واحتدام الصراع الاجتماعى العنيف..».

- «لماذا يضرب عمال المناجم فى بريطانيا مثلاً...؟».

- «لهم بعض الحقوق..».

- «عظيم.. الحكومة قد ترفض هذه المطالب برغم عدالتها.. اسمع يا عزيزى.. إنى أعمل ومن ثم يجب أن آخذ أجرًا يوازى عملى.. أنا مثلاً.. مفروض أن ألبى أى طارئ خلال الأربعة والعشرين ساعة.. وزميلى فى دواوين الحكومة ومصالحها ومدارسها يشتغل ست ساعات فقط، ألا أكون محقًا إذا طالبت بأجر يوازى أربعة أمثال غيرى من الموظفين؟ وإذا تجاهلتنى الحكومة، أأكون ظالمًا، إذ تناولت أجرًا فى بعض الحالات؟؟ أجبنى؟ إن موريس ليس استغلاليًا ولا انتهازيًا، ولكنه صاحب حق.. عشرات مثلى ومثلك تائهون فى صمت الريف وأحزانه وجفافه.. لكنك تريد أن تكون مختلفًا.. حسن.. لك ما تشاء لكن لا يصح أن ترغم الآخرين على أن يكونوا مختلفين مثلك.. ثم إن الأنبياء صلوات الله عليهم لم ينقصوا أحدًا حقه.. أليس كذلك؟».

وأخذت كلمات موريس، تطن فى رأس محمد وتقلقه، أجل هذا هو الميزان الذى يزن به موريس تصرفاته، الميزان التجارى

الصرف، إنه يعمل ويريد أن يأخذ ثمن كل ثانية يعملها، لا جهد ألبتة بلا ثمن، الصداقة ليست إلزامًا والتضحية لا يقرها، وبدلاً من الصداقة والتضحية يمكنه أن يتقن عمله، كل ما يطلب منه هو الإجادة وليس التصدق والتضحية، وهمس محمد:

- «لكنا لا نعمل أربعًا وعشرين ساعة.. إنك تنتهى من عملك فى الواحدة ظهرًا ولا تستدعى إلا الحالتين أو ثلاث بالاستقبال مساء- وقد لا تكون هناك حالات على الإطلاق.

- «هناك فرق بين ما يحدث فعلاً، وبين ما يجب أن يكون.. أنا تحت الاستدعاء، دائمًا أعصابى وأحاسيسى متيقظة لأى قادم وإننى أحترق يا صديقى.. كلانا يحترق..».

واندفع محمد يقول:

- «إننا يا عزيزى فى مجتمع لم يزل متخلفًا، لم يبلغ بعد نموه الكامل، ولم تشرق الرفاهية بضوئها الأصيل على كل نواحيه، وفى مثل هذا المجتمع الزاحف الكادح، لا يعقل أن ننال حقوقًا مثالية كغيرنا فى دول أخرى، وعلى أفراد الطليعة أن يضحوا حتى يكتمل النمو والرفاهية- سيزيد آنذاك دخلنا واستقرارنا، وسينعكس هذا الرغد علينا وعلى أبنائنا، وبالتالى سيأخذ الطبيب مائة جنيه بدلاً من ثلاثين، وسوف تخدم وحدتنا خمسة الآف نسمة بدلاً من ثلاثين ألفًا، ستجد الراحة والمتعة والمال الوفير، هكذا يجب أن يكون تفكيرنا مرتبطًا بظروفنا التاريخية والاجتماعية، أما

أن نحصر هذا التفكير فى حيز ضيق ونقيسه بالمقاييس البدائية الشخصية، فذلك تصرف جائر، وبالتالى فلا ظلم هناك ولا تعسف، لتشرق قلوبنا بالرحمة والحب، ولنؤمن بالتضحية وحق هؤلاء المساكين فى القرية، وغداً تمتلئ أرواحنا وجيوبنا بكل رائع وثمين. . ودعنى أسالك سؤالك نفسه. . أليس كذلك؟».

وأخذ موريس ينقر على المنضدة الخشبية بسبابته فى عصبية ظاهرة، ما أعجب هذا الرجل الجالس أمامه؟؟ لم يدخل معه فى جدل، أو يختلف معه على أمر، إلا وخرج فى النهاية أشد ما يكون قلقًا وعذابًا وحيرة، وبدا موريس فى نظر نفسه بهلوانًا مضحكًا، يلف ويدور ويثب فى دائرة صغيرة مغلقة، بدا له محمد شيئًا شامخًا مشعًا، يتموج كالأشعة الشمسية، فى آفاق رحبة واسعة لا تحدها حدود، رجل يطوى العالم الفسيح فى قلبه الكبير، أما هو -موريس- فقد حصره عامله الضيق فى قوقعة مزخرفة لكنها مظلمة الدهاليز. .

ولم يعلق موريس على حديث محمد بغير هذه الكلمات الموجزة:

- «يبدو أننا لن نلتقى. .».

- «كلا. . بالتأكيد سنلتقى. .».

- «متى؟؟».

- «عندما تتحدد مفاهيمنا الحائرة، وتصفو نفوسنا من الكدر . .».

ودس موريس يده فى جيبه، ثم أخرج ورقة صغيرة وقدمها إلى الدكتور محمد قائلاً :

- «خذ هذه واقرأها . .».

وتناولها محمد فى هدوء ثم نشرها أمام بصره وأخذ يقرأ : «من المنطقة الطبية إلى الدكتور محمد صادق . . نحيط سيادتكم علمًا بأنه قد تقرر ندبكم للعمل بالوحدة المجمعة بقرية « . . . » أثناء العطلة الاعتيادية لطبيبها . . رجاء العلم والتنفيذ فوراً . . إمضاء . . مدير عام المنطقة الطبية . .».

وتمتم محمد فى ضيق :

- «لكن هذا ظلم . .».

- «لماذا؟ . . .».

- «لأنى لم أكد أنتهى من الانتداب السابق وأسرتى لم تحضر إلا منذ أيام قليلة . .».

قال موريس ساخرًا :

- «هناك ستجد مرضى . . تخفف آلامهم . . مثل هنا تمامًا . .».

- «وليس معى من المال ما يكفى لأن أفتح بيتين، بيتًا هناك وآخر هنا لزوجتى وأولادى . .».

- «لا تهول فى الأمر، الانتداب مسألة بسيطة وتحدث دائمًا . .».

- «الاستقرار . .».

- «أسطورة وهمية . . لا تفكر فيها دائمًا وإلا تعبت».

وطوى محمد الورقة، وحاول أن يدسها فى جيبه، لكن موريس قال له: يجب أن توقع بالعلم أولاً- ففعل، ثم أخذها منه، وفى خطوات واهنة متعبة، قصد إلى مسكنه، إنه يحتاج إلى مال للسفر ومال للأسرة، وبعض الجنيهات لتسديد العجز الذى أصاب عهدته، وأبوه ليس معه مال مدخر، ونسى محمد هذا كله عندما رأى التومرجى «حامد» يجرى فى فرح وسرور، ويلقى النكات التى تحمل أكثر من معنى، وتساءل بينه وبين نفسه: ما الشر وراء هذه الانتدابات المستمرة؟ ولماذا هو بالذات؟ أهناك حقًا مكائد تجرى خلف الستار؟ وزاد الألم بقلبه عندما تبين له على ضوء التصرفات الأخيرة أنه عاجز عن إرضاء موريس وإقناعه، عاجز عن إصلاح التومرجى حامد وتهذيبه، عاجز عن إرضاء الأهلين والمنطقة الطبية وكاميليا، هل معنى ذلك أنه قد فصل؟ وما السر فى ذلك؟ أأخطأ الطريق وسلك مسلكًا معيبًا؟

وهمس محمد وقد تسربت إلى روحه القلقة نسمات من الرضا:

- «لكنى استطعت أن أرضى واحدًا . . هو ضميرى- ضميرى . . بما فيه من إيمان . . . أرضيت الله . .».

ooo

الفصل العشرون

لم يقف الأمر عند هذا الحد، فبعد أن نفذ الدكتور محمد أمر الانتداب وعاد بعد أيام عشرة، فوجئ بانتدابه للمرة الثالثة إلى مستشفى آخر لمدة غير محدودة، وأخذ الضيق بنفس محمد كل مأخذ، وتيقن أن وراء الأمر سرًا خفيًا، وموريس جالس فى مكتبه بكل هدوء وثقة، يسير بالطريقة القديمة نفسها، وكثر عدد زبائنه خلال الانتدابات المتقطعة المتكررة التى يؤمر بها محمد، ومع كل هذا فقد عزم محمد على إطاعة الأمر، مرجحًا أن ذلك سوف يكون نهاية المتاعب التى يرزح تحت عبئها منذ أن جاء إلى هذه القرية، ولم تكن زوجه مرتاحة تمامًا لهذه التصرفات التى تحجب عنها زوجها لمدة ليست بالقصيرة كل شهر، وقالت غاضبة:

- «كان من الأوفق أن تعين طبيبًا متجولاً..».

- «هذا أصدق وصف يا عزيزتى..».

- «ولماذا لا تحتج على هذه التصرفات المتعبة؟».

- «عدم تنفيذ الانتداب مسئولية جسيمة ولهم الحق فى انتدابى فى أى وقت يشاءون..».

- «ولماذا لا ينتدب موريس مرة واحدة؟».

- «يتعللون بتعللات كثيرة . . ».

- «بدأت أكره الإقامة هنا . . ».

- «الصبر طيب . . ».

فوجئ محمد بالكاتب سعيد سلطان يقرع باب مسكنه لاهثًا، يقول له:

- «عدت الآن من المدينة . . ».

- «خيراً؟ . . ».

- «ليس وراء هؤلاء المتحيزين خير . . . ».

- «مَنْ تقصد؟ . . ».

- «المنطقة الطبية . . أتدرى ماذا وراء انتدابك الأخير؟».

- «مجرد انتداب كالعادة . . ».

- «إنها مؤامرة، هو نقل مستتر؛ لأن الطبيب الذى ستحل محله فى عطلة طويلة لمدة سنة عطلة دراسية، ومعنى هذا طردك من بلدك، وعدم عودتك إليها مرة ثانية، وهناك ستلاحقك المتاعب . . ».

- «ولِمَ كل هذا؟».

قال سعيد ساخراً:

- «جزاء المخلصين . . ».

- «وحقى فى الاستقرار . . ».

- «ليس لدى هؤلاء حق . . فكر جيدًا . . ».

- «كيف؟».

- «لترفض الانتداب، ولتكتب مذكرة للمحافظة والمنطقة، ثم لماذا لا ترفع أمرك إلى الوزير نفسه؟ إنه سينصفك، ليس أمامك إلا أن تدعى المرض، وخلال عطلتك المرضية تتصرف».

وآلم محمد ما سمعه، لكم يعز عليه أن يعد مواد البناء واللبنات الصالحة آملاً أن يضع بيديه النظيفتين أساس البناء الشاهق الذى يحلم به، لكنه لا يكاد يضع لبنة واحدة حتى تأتى يد خفية وتشده إلى بعيد، وتقذف به فى مكان آخر، باسم الأوامر والمصلحة العامة، وعدم مخالفة اللوائح وكيف يدعى المرض؟ إنه يكره الادعاء والكذب، ويريد دائمًا أن يكون صادقًا مع نفسه ومع الآخرين، ويحيا حياة خالصة تشرق عليها أشعة الصدق والحقيقة، ولكن يا للحيرة!! إما أن يدعى المرض وإما أن يحمل طفليه وأثاث بيته ويصحب زوجه إلى مكان آخر برغم أنه لم يمضِ عليه سوى ثلاثة أشهر، بالأمس اعتقد أن ميدانه الحقيقى فى القرية وحدها، وسوف يتفرغ لهذا الواجب، ويضحى براحته وشبابه، لإسعاد الآخرين وإصلاح حالهم، وإنارة الطريق أمامهم، لكن بدا له أخيرًا أن المنطقة الطبية تحتاج هى الأخرى إلى جهاد وإصلاح، تلك العقول المترفعة الجامدة يجب أن تسرى فيها روح جديدة وتسودها

أفكار تتفق وقيم المجتمع الحديث، وكيف يقوم محمد بهذا الدور الخطير، وهو مجرد طبيب صغير فى الدرجة السادسة يشتغل فى أعماق الريف بعيداً عن الأضواء والسلطة وكبار الشخصيات؟؟؟ إن مجرد التفكير فى مثل هذا الأمر تطرف وسذاجة لا يصح أن يوصف بهما، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه، ومع هذا فليس من العدالة أن يستجيب لمنطقهم المعروج ومنطقه هو واضح وبسيط ويعتمد أساساً على رضا الأهلين عن سياسته وتشبثهم به، ثم إنه ابن القرية، ولم يرتكب ما يوجب هذا النقل الخادع ومن حقه كموظف مخلص أن ينعم- وأسرته- بالاستقرار.

وخرج سعيد سلطان عن صمته قائلاً:

- «إذا لم تكن تنوى المشاغبة، فليس هناك سوى حل واحد..».

- «ما هو؟؟».

- «أن تعود إلى الطريق..».

- «أى طريق..».

- «ذلك الذى يسير فيه موريس وأضرابه.. أن تنتفع وتدع غيرك يستفيد، وهنا تفتح الأبواب وتحل كل المشاكل..».

- «لكنكم تبالغون.. لا أتصور فساداً بهذه الدرجة..».

وهز سعيد رأسه فى يأس:

- «الله وحده يعلم..».

وتمتم محمد متحسراً:

- «أنا فعلاً مريض.. منذ أسبوع وركبتاى لا تكادان تحملانى، لكنى كنت أضغط على نفسى وأتحمل حتى أؤدى للناس حقهم، واليوم لا مفر من أن آخذ حقى كمريض..».

وهاجت القرية وماجت عندما علمت بحقيقة الأمر، واتجهت أصابع الاتهام نحو موريس وانطلقت من أفواههم اللعنات والكلمات الثائرة المتحدية، وتساءلوا بينهم فى عجب، لماذا يصر المسئولون على حرمانهم من الرجل الذى يحبونه ضاربين بعواطفهم ومشاعرهم عرض الحائط، وفى الوقت نفسه يبقون لهم طبيبًا «غير مرغوب فيه». تعددت شكاواهم منه، وخاضوا معه أكثر من معركة؟ حقًا كان موريس أقوى منهم بسلطانه ونفوذه وماله، وبحكم منصبه كرئيس معين لهم، وكانوا دائمًا يهزمون، ثم يأتى دور الانتقام فتضيع مصالحهم، ويرغمون على الاستسلام والاعتذار والصمت، لكن كل هذا لم يقتل فى نفوسهم التمرد والإصرار على نوال حقوقهم، كانوا ينتظرون النموذج أو المثال الذى يحلمون به ليسيروا وراءه ويفدوه بأرواحهم، وكانوا يترقبون اللحظة الحاسمة ليقولوا كلمتهم بعزة وثقة، وجاء محمد فاجتمعت كلمتهم عليه- وتركزت أفكارهم المشتتة عنده، وكانوا يسألونه فيجيب بوضوح وصدق، ويعبرون عن آلامهم فيفتح لهم قلبه وتصل كلماتهم إلى أعماقه، لم يكن مجرد طبيب أو موظف، عمله محدد بساعات، بل كان أخًا وأبًا وصديقًا، وكان هو سعيدًا بهذا التطور الذى شملهم

برغم ما جرّه عليه من متاعب وبعض الحرج ، ورأى محمد هذا التأييد المطلق ، وأدرك بثاقب فكره أن هذا التجمع الهائل الذى يحيط به له أكثر من معنى ، ليخطئ موريس وليتمادَ فى خطئه ، ولتتعسف المنطقة الطبية وتمعن فى عسفها ، فإن شيئًا جبارًا قويًا يولد من جديد ، وينطلق كمارد هائل وسط هؤلاء الفلاحين ، هذا الشيء هو إرادتهم الحقيقية ، الإرادة التى يدعمها الوعى والنضوج ، لقد فهموا من محمد أنهم أصحاب الرأى والكلمة الأخيرة ؛ لأنهم أصحاب المصلحة المباشرة ، ولهذا أصبحوا هم الفصل بين الهدى والضلال ، هم الشاهد الحق الذى لا يكذب ، وصدقت توقعات محمد فيهم ، فبعد أن علموا بما حدث هبوا كرجل واحد ، وتسابقوا إلى كتابة العرائض ، بل أبرقوا للمسئولين بعبارات ملتهبة تحمل معنى الإصرار والحنق ، وطالبوا ببقاء محمد معهم ، وعضدوا مطالبهم بالبراهين القوية الساطعة ، وانتظروا صدى كلمتهم العالية التى لم يحرفها هوى أو تزيفها عصبية ، وهتفوا بالمسئولين أن يأتوا ليروا الحقيقة على الطبيعة . . ليروا ما يجرى من أمور فى ضوء الشمس المشرقة على أكواخهم وحقولهم الخضراء . .

وذهل محمد وهو يرى سعيد سلطان مندمجًا وسط الفلاحين ويبادلهم الرأى والمشورة ، كانت حماسته لا تقل عن حماستهم ، بل بدا وكأنه واحد من أهل القرية يسير فى مقدمة ركبهم الثائر من أجل حياة أفضل ، ورمق موريس هذه التصرفات بعين قلقة ، وداخله رعب داهم ، لم يرَ فى حياته بالقرية هذه الصورة المفزعة

ولو دفع كل ما يملك من مال لما أمكنه أن يجمع حوله هذا الجمع الغفير من الناس، ولم يكن غبيًا بحيث لا يدرك أن الحب وحده يصنع أكثر من ذلك ويحقق ما يشبه الأعاجيب ولم يستطع أن يدارى غيظه وحنقه، بل أسرها فى نفسه وغمغم. . «هذا المتهور نسى أنى سوف أكتب عنه تقريرًا سريًا سنويًا، ونسى أنى أستطيع أن أنقله من هنا، وأورطه أخطاء تودعه السجن، أليس هو المسئول عن خزينة الوحدة؟».

وبينما كان سعيد غارقًا وسط الصخب والجدال المتحدم، جاءه صوت أحد الفلاحين يقول فى خوف:

- «وإذا لم يستجب المسئولون لمطالبنا؟».

- «نرد ردًا حاسمًا. .».

- «كيف يا أستاذ سعيد؟».

- «نضع الأمور فى نصابها. .».

- «لكنى لا أفهمك. .».

- «حسنًا. أتعتقد أن موريس يمثل رغباتكم؟ بالطبع لا، وهل اخترتموه رئيسًا للمجلس؟ طبعًا لا، وهل يسير على هدى السياسة العليا التى ترسمها الدولة فى تحقيق اشتراكية العلاج؟».

- «أبدًا. . أبدًا. .».

- «وهل يمثل الروح الثورية الجديدة بتصرفاته العفنة؟».

- «من قال ذلك؟ إنه مثال سيئ . . استغلالى صرف . . » .

ولوح سعيد بيديه فى إصرار وثقة ، وقال :

- «ومن هنا يكون لنا الحق فى سحب الثقة منه ، إما أن يستقيل من المجلس أو نقيله نحن . . » .

- «لا أصدق . . » .

- «لماذا؟» .

- «هذه الخطوة جريئة ، ونحن أضعف من أن نفعلها ، ولماذا لم نفعلها منذ أن تمادى فى انحرافه؟ إنك تقول كلامًا جديدًا غريبًا . . » .

-«إرادتكم بمشيئة الله . . » .

- «لكننا فلاحون . . أيمكن أن ينتصر فلاح على طبيب . . » .

- «إذا كان الحق فى جانبك . . » .

- «كل الحق . . » .

- «انتهينا . . » .

***

وشق الصفوف «عم صادق» وأشرق عليه ، بوجهه الطيب الوقور ، ولم يغب عنهم نظرات الأمل التى تنساب من عينه الحزينتين ، كان قلبه يدق ، وخوف غامض يرجف كيانه ، والتفت إلى سعيد وإلى الموجودين أمامه ، وقال :

- «يا أبنائى . . عودوا إلى بيوتكم، لا نريد أن نثير المشاكل ونعقد الأمور، لتمضِ الأمور كما كانت تمضى، وليذهب ابنى إلى حيث أرادوا أن يذهبَ . . ارحموه، وارحموا أنفسكم وارحمونى أنا الآخر . . ».

ولم تلتقط آذانهم سوى كلمة واحدة انبثقت فى قلوبهم كالرعب، وسارت فى أرواحهم كالخيبة واليأس «لتمضِ الأمور كما كانت تمضى» أتموت آمالهم وتندثر حقوقهم ويظل موريس- كالثعبان . . قابعًا فى مسكنه، وحوله السماسرة والأذناب، ويبيع كل شىء حتى حق الحياة؟».

وصرخ واحد منهم:

- «الموت أهون . . ».

وتمتم عم صادق وقد ترقرقت الدموع فى عينيه:

- «المسامح كريم . . وربنا يصلح الأحوال . . ».

وساد الضجيج والهرج من جديد، وانصرفوا عنه تاركيه وحده وساروا خلف سعيد قاصدين مكتب التلغراف، ودهم عم صادق خاطرًا أسعده وأحزنه فى الوقت نفسه، لقد أدرك أن ابنه لم يعد له، إنه ابن الجميع، وهؤلاء الفلاحون أصحاب حق عليه، وعم صادق واحد منهم مجرد فرد واحد . .

وانبثقت من عينيه دمعتان غاليتان . .

●●●

الفصل الحادى والعشرون

عادت هدى إلى وحدتها الأليمة بعد أن رفضها سعيد، وتملص من مشروع الزواج الذى عرضته عليه، تخلص بلباقة، لقد خطبته هى، وأغرته بالمال، وحاولت أن تصرفه عن «كاميليا» بتشويهها أمامه وتوسلت بدموعها وبأنها عاشت طوال الفترة التى قضتها فى القرية مثال الهدوء والصبر والخلق الحميد، لكن كل هذه الوسائل فشلت فى الوصول إلى قلب سعيد سلطان، كانت علاقته بها دائمًا علاقة صداقة واحترام متبادل، ولم تستطع هى أن تحيل -بينها وبين نفسها- أنها تمنيت فى أى يوم من الأيام، أن ينظر إليها سعيد بخبث، أن يشتهيها ويحاول مغازلتها بكلمات رقيقة، وكلمات وقحة على حد سواء، لكن تزمتها ووقارها صبا ماءً باردًا على الصلة التى لم تشتعل يومًا واحدًا، وشعرت هدى بعد هذه التجربة بدبيب اليأس الشامل يظلل حياتها بسحابة داكنة تُشْعر بالحزن والمرارة، كل فترات صمتها وأساها، كانت تنظر إلى «كاميليا» وتتملى ملامحها وشفتيها وشعرها الفاحم، وتقيس كل حركاتها ونظراتها، وتستعيد عباراتها ثم تتساءل: لماذا يذوب سعيد شوقًا

وهيامًا أمام «كاميليا»؟ الجمال؟ إن هدى ليست قبيحة و«كاميليا» ليست صارخة الجمال، فما السر؟ أهو سوء الحظ ونكد الطالع، أم إنها ذكريات ماضيها الغامض، وفشلها فى الزواج الأول؟ إنها مطلقة: لشد ما يزعجها شبح هذه الكلمة.. الطلاق وصمة وعقبة ملعونة فى صفحة حياتها، ليتها تولد من جديد أو تغمض عينيها ثم تفتحهما فتجد نفسها امرأة جديدة بلا ماض، بلا ذكريات تؤرقها. وتشطب كلمة مطلقة من سجل حياتها تمامًا، لكن هيهات.. لا فائدة من كل هذه الأحلام الساذجة.. إنها مطلقة. انتهى الأمر، يجب أن تستلم للواقع المرير وتنتظر الفرج، ما أكثر المطلقات اللاتى يبتسم لهن القدر ويعوضهن خيرًا كثيرًا، ما دامت هدى عاجزة عن أن تعيد صياغة حياتها وتاريخها من جديد، فلا مفر من أن تستلم وتصبر، وليس لها سوى أن تعتصم بالاستسلام والصبر، وفجأة سيشرق النور فى ظلمات شبابها المظلم المكفهر، ويبتسم لها الغد عن أمل وليد، ورويدًا رويدًا أخذت هدى تستعيد مظهرها المألوف ونسق حياتها المعهود، لكن رؤية «كاميليا» كانت تثيرها وتخنقها، وما أكثر ما كان يحدث ذلك، فهى تزاملها فى حجرة واحدة وسريرهما متجاور، والظروف تجبرها على أن تحادثها وتبتسم لها، وتبادلها النكات والمرح وقلبها ينفطر، ولأول مرة فى حياتها تحلم هدى.. يا لها من أمنيات رهيبة.. لقد كانت تفكر: ماذا لو أصيبت «كاميليا» بمرض مفاجئ.. هبوط فى القلب مثلاً... أو تيفود شديد الوطأة، أو أخذتها العربة أثناء السفر وشردت بها إلى

النهر، ولفظت أنفاسها وماتت نهائيًا؟ أتصدق المنى ويمسح اسم «كاميليا» من الوجود، ويتلفت سعيد حوله فلا يرى أمامه امرأة تستحقه ويستحقها سوى هدى، لكن أتراه سوف يذرف الدموع الغالية على قبر «كاميليا»، ويحيل حياته إلى مأتم صامت كئيب أم سينساها ويندفع فى غمار الحياة الفوارة من جديد، ويفتح ذراعيه لهدى ويضمها إليه فى حنان، ويزحف بشفتيه على وجهها وعنقها ويشبع جوعها وحرمانها؟

وهدى تصحو وتنام وهى غارقة فى صخب هذه الأمنيات والأفكار المحمومة، لكن «كاميليا» إلى جوارها تضحك وتملأ جو الغرفة بالضجيج والهرج، لا تفكر كثيرًا فى المستقبل، بل تفكر فى اللحظة التى تعيشها بكل عبثها وألمها وآمالها وجنونها، ترقص وتضحك وتبكى وتصاب بنوبات الصرع وتحلم بالدكتور محمد وتسرع بالسفر إلى المدينة. لتقضى ليلة غامضة أو ليلتين، أو تسلم يدها لسعيد سلطان كى يضغطها فى رفق أحيانًا وفى ثورة أحيانًا أخرى، وتتوسل لموريس، تغمز له وتلمسه مشاغبة كى يمنحها عطلة يومًا أو يومين، ويثور بينها وبين «زكية» الخلاف، فيتشاجران أو تحاول أن تخالف أوامر الست «الحكيمة» فتهددها بالتحقيق والعقاب.. وهكذا حياة «كاميليا» هرج ومرج، حب وكراهية، مرح ونوبات صرع.

وعلى الرغم من انطواء هدى على قلقها الذاتى، وأحلامها الضائعة إلا أنها لم تستطع أن تنأى بذهنها عن الأحداث الخطرة التى تهز أرجاء الوحدة المجمعة هزًا عنيفًا، وعن الصراع الناشب

بين محمد وموريس من جهة، والأهالى وموريس من جهة ثانية، ومحمد والمنطقة الطبية من جهة ثالثة، ومع ذلك فإن هدى كانت دائمًا تعتصم بالسلبية، إنها لا تفكر فى مناصرة أى طرف من الأطراف المتصارعة، لقد جربت كثيراً، وهى لا تود أن تضع نفسها موضع الحرج، أو تدس أنفها فى شىء لا يعنيها من وجهة نظرها، ماذا لو ناصرت موريس وأيدت موقفه ثم فوجئت ببقاء محمد ونقل موريس، ألا يحق لها أن تعتقد أن محمد سوف ينقم عليها مستقبلاً، وينتقم منها ويضطهدها؟ ثم ماذا لو انحازت إلى صف محمد وفوجئت بتشتيته ونقله؟ فكيف تواجه موريس العنيد القاسى آنذاك؟ وبأى حق تلقى زوجه العنيفة المتعطرسة الست أم لولا؟ لكنها -فى قرارة نفسها- كانت تؤمن أن محمداً ساذج مغرق فى سذاجته، إنه كمن يصارع جيشًا بمفرده، وهيهات أن ينتصر، إن قتل واحدًا، فلسوف يبرز له آلاف آخرون، وهو مسكين مجرد فرد واحد، تنطلق نحوه عشرات السهام، وإيمانها بهذا الرأى لم يمنعها من احترامها لمحمد وثقتها بنظافته وشهامته ونبل أخلاقه.

أما زكية المترهلة الجسم فهى لا تفكر إلا فى أكل البطاطا التى تعشقها عشقًا، وفى كميات الزبدة التى تحيلها إلى مسلى فيدر عليها ذلك ربحًا مجزيًا، وفى هذا الاضطراب الهرمونى الذى أنبت الشعرات فى ذقنها وشاربها والعلاج المستمر الذى لم يحقق لها أدنى تحسن، وفى الأوقات القليلة التى تخرج فيها عن مألوف عادتها، وتضطر اضطرارًا إلى المشاركة فى المعركة الدائرة، تعبير عن رأيها

بصراحة غبية، فتحمل على الدكتور محمد حملة عشواء وتتهمه بعقم التفكير، وخطأ المنهج، وتناصر موريس صراحة إيمانًا منها بأنه هو المنتصر فى النهاية لا شك فى ذلك؛ لأن مثله ينتصرون دائمًا.

والست الحكيمة قضت فى الخدمة سنوات طويلة، رأت خلالها كل شىء، وسمعت الكثير، وأسهمت فى معارك عديدة، وتدخلت فيما لا يعنيها وخاصمت أطباء وناصرت آخرين، وأحبت هذا وأغضبت ذاك واتخذت ضدها إجراءات قانونية، ونالت جزاءات كثيرة وإنذارات أكثر ثم. . ثم تزوجت أخيرًا وأنجبت أطفالاً فنقلت معاركها ومشاغباتها دفعة واحدة من المستشفى إلى البيت، فأراحت الآخرين وأتعبت زوجها، ومن ثم لم يعد يعنيها طهارة محمد أو انحراف موريس، وإنما الذى يعنيها رجلها الغائب عنها الذى يقيم فى بلد يبعد عن الوحدة المجمعة أكثر من أربعين كيلومترًا، فلا تلتقى به إلا مرة كل أسبوع مساء الخميس ويوم الجمعة أيضًا. . والمشكلة التى تلح عليها حاليًا هى البحث عن مخرج كى تنتقل إلى مكان قريب من مقر عمل زوجها. . وبعد ذلك لا شىء يثير انفعالاتها لا مبادئ ولا معارك ولا كلام فارغ.

***

قالت «زكية» بعد أن لجأت كل واحدة منهن إلى سريرها فى المساء:

- «لقد سافرت أم لولا وقت احتدام المعركة. . .».

وردت «كاميليا» :

- «وماذا فى ذلك؟ إنها تسافر كل شهر ونصف لتقضى أسبوعًا لدى أمها . . غير أنه يبدو أن زوجة الدكتور محمد لا تنوى مفارقته أبدًا . . . . » .

وهمست «زكية» وهى تغمز بإحدى عينيها :

- «تخاف عليه من العقارب؟؟» .

- «وماذا تعنين من العقارب؟؟» .

- «يكاد المريب يقول خذونى . . . » .

فرمقتها «كاميليا» بنظرات نارية حانقة ، وهدرت :

- «أخذك ربنا . . ليس الدكتور محمد بعيدًا عنى . . إنه طوع بنانى ، كانت أمى تقول لى وأنا طفلة : «تبارك الخلاق يا حبيبتى . . . فى وجهك هلال . . . علامة الرضا والقبول . . . من يراك يعشقك» ، ويبدو أن أمى كانت صادقة فى قولها . . . » .

فقاطعتها «زكية» :

- «لكن ألم تقل لك إن على ملامحك ظلال الجنون . . . » .

- «اخرسى يا أم شنب . . . » .

واستقبلت الفتيات تعليقها القاسى بمزيد من الاستنكار ولم تضحك واحدة منهن ، وحاولن جاهدات ألا يتحن لهما الفرصة

لشجار جديد، ووافق هذا التصرف هوى لدى «زكية» التى قالت فجأة:

- «موريس خائف..».

قالت هدى لأول مرة:

- «من أهل القرية، النفوس مشحونة ضده، ومناصرتهم لمحمد سافرة بلا مواربة، ولو نقل الدكتور محمد فلن يصاب بسوء، وإنما الضرر الأكبر سيحيق بموريس، لن يتركه أهل القرية ينعم بمقامه هنا بعد اليوم، سوف يلاحقونه بالشكاوى، وسيوعزون إلى الرقابة الإدارية للإيقاع به متلبسًا بتناول أجر من المرضى، وقد يتطرف أحد الأهالى فيشهر فى وجهه السلاح».

فتمتمت هدى:

- «المسألة أخطر مما نتصور...».

- «بالطبع.. ستنقلب الدنيا.. ولن يهدأ بالنا منذ اليوم، كان مجيء الدكتور محمد بداية لمتاعب لا تنتهى، لقد عشنا قبله سنوات خمس لم يحدث ما يعكر الصفو، وكان الأهالى راضين، يدفعون وينالون الرعاية، لكن محمد جاء حامل المبادئ الجديدة، وأرى أنه لم يحمل إلينا غير المتاعب والقلق والشجار، وسوف ترون.. ستبدأ التحقيقات ونستدعى إلى النيابة الإدارية لندلى بشهادتنا، ولا يمكن أن نسافر على نفقتنا، سوف نطلب بالتأكيد بدل انتقال... هذا جميل برغم العواصف المنذرة فى أفق المستشفى...».

وهزت «كاميليا» رأسها شأن العاقلة الواثقة بنفسها، وقالت:

- «أم لولا!!!».

- «وما لها يا «كاميليا»؟......».

- «سبب المصائب....».

قالت هدى معارضة:

- «أنت تظليمنها....».

- «بل أقول الحق...».

فتدخلت «زكية»:

- «كاميليا تكره كل زوجة وتنسب إليها أخطاء زوجها...».

فوثبت «كاميليا» من فوق سريرها، وانتصبت واقفة وسط الحجرة:

- «أنتن تعرفن أم لولا.. إنها وراء كل تصرفات زوجها، تعزو نجاحه إليها، وتلصق فشله به هو.. هى دائمًا كذلك.. هى الرئاسة الفعلية هنا.. أعنى كما يقول سعيد سلطان: إنها مصدر السلطات..».

ورنت ضحكاتهن فى صمت الليل الذى يلف الوحدة المجمعة، لكن «زكية» أوقفت الضجة الهائلة، وقالت فى خبث:

- «ومن وراء تصرفات الدكتور محمد؟؟».

قالت «كاميليا» دون تردد:

- «قلبه....».

- «أقول مَنْ؟؟».

- «ليست زوجه بأية حال...».

- «لماذا؟....».

- «ربما لقوة شخصيته وثقافته الشاملة.. إنه رجل مجتمع...».

- «لكنه يحبها...».

- «كذبت يا ثور...».

- «فبماذا تفسرين هذا الجو العائلي الوادع...».

- «وأنا أعلله بالحب الذي ينشر أجنحته على الأسرة الصغيرة السعيدة...».

- «لأنك غبية بلهاء.. أنا أعرف الرجال، ثم أعرف أيضًا مكر النساء...».

وانقضت «كاميليا» على «زكية» محاولة خنقها في جو مرح لا أثر للحقد أو الشر فيه، وانطلقت ضحكاتهن من جديد، لكن «زكية» أسكتتهن مرة ثانية، وصاحت:

- «لكن ألم تلاحظي شيئًا غريبًا يا «كاميليا»؟؟».

- «ماذا ؟؟».

- «سعيد سلطان . . » .

- «شفاه الله . . . » .

- «لا أقصد ذلك يا مغفلة، وإنما الجميع أخذوا يتحدثون عنه - لقد أعلن الثورة ضد موريس، وانحاز صراحة لصف الدكتور محمد وأهالى القرية، إنه يبدو كسكرتير عام لحزب كبير زعيمه محمد، والجميع يؤكدون أيضًا أن موريس لم يعد يكلمه إلا فيما يتعلق بالعمل والمكاتبات الرسمية، ويرجحون أنه سينقل من هنا قبل مرور شهر واحد. . . » .

والحقيقة أن الفتيات كن فى حيرة من أمر سعيد سلطان، فالمنطقى والمعقول أن يجاهر محمد بالعداء، ويرميه بأقذع التهم، بعد أن سرت شائعات تؤكد تعلق «كاميليا» به، وعدم اكترائها لسعيد سلطان، وبديهى أن تشتعل نيران الغيرة فى قلب سعيد، فتعمى عينيه من الحقائق، وتصرفه عن التفكير فى مبادئ محمد، وتجعله لا يفكر فى غير «كاميليا» حلمه الجذاب النافر منه، ولم يفت ذلك «زكية» بالطبع، فعلقت قائلة وعيناها مصوبتان نحو «كاميليا» :

- «إن محمدًا لم يخض مثل هذه المعركة العاطفية المزعومة، رغم ما تدعيه «كاميليا»، ثم إن سعيد سلطان شاب طائش يتسلى ولا يعتبر الحب الآن مسألة حيوية. . ثم من منا لم يحب الدكتور محمد؟ الجميع يحبونه حتى خصومه. . . » .

قالت هدى عبارتها فى نبرات تبدو عادية هادئة، موهمة

السامعات بأنها لا تقصد من ورائها الإهانة أو التعريض بأحد، لكن العيون المتيقظة التقت كلها عند «كاميليا» التى عادت وقبعت فوق سريرها كنمرة توشك على الهياج، وآلمها ألا تكون بلا عشاق أو معجبين، وكيف تتصور نفسها كـ«زكية» أو هدى أو الست الحكيمة، كنزيلة لهذا السجن، سجن العذارى التعسات، فقالت وهى تصر على أسنانها فى غيظ:

- «سعيد يعشقنى . . .».

وصمتت برهة ثم استطردت:

- «والدكتور محمد يكاد يلتهمنى بنظراته . . .».

واستراحت أنفاسها اللاهثة ثوانى قليلة وأكملت:

- «حتى موريس . . كلمتى بالنسبة له أمر واجب التنفيذ. . . .».

ثم رفعت نبراتها فى حدة:

- «أنا هنا وحدى ولا أحد غيرى . .».

فانفجرت «زكية» ضاحكة، وهى تقول:

- «انهدى يا أرض ما عليك . .».

ثم استطردت:

- «لكنك يا «كاميليا» لم تقولى كيف اتفق الغريمان . . .».

فقالت وهى تلوى شفتها السفلى:

- «اجتمعا على حبى. . . . ».

- «أجدر بهما أن يفترقا. . . ».

- «الحب ملتقى المتناقضات. . وقد يعكس البديهيات، كانت أختى تكره ابن جارة لنا أرملة، ولكنى كنت لا أرى فيه شيئًا مما ترميه به لا فى خلقه ولا شكله. . . غير أنى علمت فيما بعد أن أختى كانت تحبه وتتفانى فى حبه، وحاولت أن تتزوجه فرفض ولهذا كرهته. . . ».

ثم التفتت «كاميليا» وقد انقلبت سحنتها وشحب وجهها، ورمت بالحقيقة المرة فى وجه هدى دون أن يتوقع أحد ذلك، وقالت «كاميليا»:

- «تمامًا كما حدث لك يا ست هدى، عندما ذهبت إلى سعيد سلطان تطلبين منه الزواج فرفض. . لقد أخبرنى عن كل شىء. . أتريدين دليلاً آخر على عشقه لى؟؟».

واتسعت حدقتا هدى من هول المفاجأة وخيل إليها أن يدًا غليظة قاسية ملطخة الأوحال والأقدار قد صفعتها على وجهها، فترنحت لهول الصدمة المباغتة، وكاد يغمى عليها، وذهلت باقى الفتيات، لكن هدى تمالكت أعصابها باذلة أقصى ما تستطيع جهد واغتصبت ابتسامة باهتة، وقالت:

- «هل صدقته يا مسكينة؟؟».

- «طبعًا. . . ».

ثم التفتت هدى إلى الموجودات قائلة:

- «مَنْ منكن يصدق ذلك؟» .

وتساءلت الفتيات بينهن وبين أنفسهن ، وهل يمكن أن يحدث ذلك من هدى الرزينة العاقلة؟؟؟ وهل يفعلها سعيد ويفشى سر امرأة مسكينة ، واندفعت «زكية» قائلة دون تريث :

- «إنه كاذب . . .» .

وكانت هدى كالغريق الذى يتشبث بغصن واهٍ يتقاذفه الموج فأردفت على الفور قائلة :

- «سعيد يريد أن يصنع من نفسه فارسًا تتصارع حوله غانيات متولهات فى حبه . . لسنا غوانى ولا يمكن أن يكون سعيد سلطان الكاتب بطلاً . . . هذه الافتراءات الحقيرة لا تستحق مجرد التكذيب . .» .

لكن صوت هدى كان جريحًا مخذولاً ، وتحاول جاهدة أن تحبس دموعًا تغالبها ، وشحوب وجهها ينبئ عن أشياء كثيرة ، لعلها اليأس أو خيبة الأمل والحزن الدائم . .

وانطلقت فى الصمت الذى ران عليهن ضحكة ساخرة عربيدة كانت كالخنجر المسموم فى قلب هدى ، وكررت «كاميليا» ضحكتها الماجنة ، ثم استلقت على ظهرها ، وهى تقول :

- «إن خير رد على هذا الهراء هو أن أنام . . .» .

●●●

الفصل الثانى والعشرون

عبثًا حاولت «كاميليا» أن تجعل موريس يمنحها عطلة مرضية كى تنعم ببعض الراحة والانطلاق والعبث، لكن محاولاتها باءت بالفشل، وعملت جاهدة على التقرب إليه بقذف الدكتور محمد بألوان الشتائم، وشتى النقائص، ومع ذلك لم يرق قلبه لها، وتوسلت إليه بدموع كاذبة وزعمت له أعذارًا قهرية ومشاكل عائلية تضطرها للسفر، فصم أذنيه عنها، لكنها لم تستسلم لليأس، إن ذهنها يعمل بسرعة، وحيلها لا تنفذ، والغاية لديها تبرر الوسيلة، وما دامت تؤمن بذلك فنجاح مسعاها أمر ميسور، وانتشى قلبها بالفرح الغامر عندما جاءها التومرجى حامد وطلب منها أن تصحبه إلى الدكتور موريس فى مسكنه لإعطائه حقنة فى الوريد، وأسرعت «كاميليا» بارتداء ملابسها وحرصت على أن تجرى بأصبع أحمر الشفاء على شفتيها، ولم تنسَ باقى المساحيق والروائح العطرية، كانت الليلة شحيحة الضوء، راكدة الهواء، وحرارة النهار لم تخف حدتها تمامًا، وسارت عبر الممشى الممتد فى قلب الوحدة المجمعة يتبعها «حامد» ككلب أمين، ومرت فى طريقها

بمنزل الدكتور محمد، نوافذ مفتوحة، وضوء المصابيح الغازية ينساب منها، وصخب الصغيرين ينبعث فى هدأة الليل متقطعًا متنوعًا، وأغنية خافية تتهادى إلى أذنيها من المذياع الذى لم يغط على صوته صخب الطفلين، ومرت بخاطرها صورة عابرة. . محمد بمنامته البيضاء النظيفة وزوجته إلى جواره فى حجرة واحدة، وقد يدور بينهما الآن حديث هامس أو مداعبات مثيرة. . فاحتقن وجه «كاميليا» وعضت على شفتها من الغيظ، وأسرعت الخطا فى عصبية، وطاف برأسها خاطر انتقامى لا تدرى كنهه، لكنها كانت قد بلغت مسكن موريس ولما همت بقرع الباب أفهمها حامد أنه لا داعى لذلك، ثم اقترب من الباب وعالجه برفق فانفتح، وعندما دخلت حجرة النوم كان موريس يرقد فى سريره هادئًا، وعلى وجهه ملامح الرضا، وقالت «كاميليا» وهى تغالب انفعالاتها الطارئة: «يجب أن توافق على العطلة قبل أخذ الحقنة، فابتسم موريس ابتسامة وقورة، وتمتم كلمة واحدة: «لا عطلة هذا الشهر» فردت فى غضب مصطنع:

- «إذن لا حقنة. . ».

- «لكننى آمرك. . . ».

- «وأنا ممتنعة. . . ».

- «لا مجال للتهور، يجب أن تعرفى وضعك. . مجرد مساعدة ممرضة مشاغبة، أنا لا أهددك بالجزاءات، لكنى أستطيع

فصلك من العمل، ثم إنه لا يصح أن تخاطبى رئيسك بهذه اللهجة الوقحة، كثيراً ما تنسين نفسك ومركزك، أو تحسبيننى الدكتور محمد، أنا أمقت هذا الضعف فيه، ولن تسير المستشفى على نظام حقيقى إلا بالحزم».

- «أتستكثر على عشمى فيك، إن حامد هذا الملعون يخاطبك كصديق».

فانبرى «حامد» خارج الحجرة، وهتف:

- «أنا خدام البك.. كيف تقولين هذا الكلام يا ست «كاميليا»؟؟ قد يكون أسلوبى مع الدكتور محمد جافًا وجريئًا بعض الشىء، وهذا لأنى لا أحترمه، ثم لا ننسى أنه ابن فلاح منا، وكنا ونحن أطفال نلعب معًا فى الحارة نلعب لعبة الاستغماية، ولهذا أحاول أن أقنع نفسى بأنه طبيب وأنا تومرجى لكنى أفشل.. وأبى يملك من الطين أكثر ما يملك أبوه».

وهزت «كاميليا» رأسها فى ملل، ثم قالت:

- «لقد صدعت رأسنا...».

ثم همست فى أذن الدكتور موريس قائلة: «ألا يحسن أن ينصرف حامد إلى المستشفى فقد تأتى حالة استقبال»؟؟ ولما لم يجب موريس، التفتت «كاميليا» إلى حامد قائلة: «تستطيع أن تذهب إلى المستشفى وارتسمت على ثغره ابتسامة ساخرة سرعان ما خنقها، وفى تثاقل حوّل وجه صوب باب المسكن قائلاً: «بعد إذن البك».

كانت «كاميليا» تشعل النار بالموقد الكحولى، وتعد المحقن والإبر، لتبدأ عملية التعقيم، ومن آن لآخر تثرثر فى التافه من الأمور، ثم تصمت برهة، وتعود للثرثرة من جديد، وكانت تحين من موريس نظرة إليها، وسرعان ما يغمض عينيه ويهدأ، لكنه أطال إليها النظر ذات مرة، ولا يدرى لماذا تركزت نظراته على شفتيها الدسمتين بالذات، ثم تحولتا إلى وجهها المستدير البض، وصدرها الناهد، وخصلات شعرها التى تتدلى على جبينها، ثم تلك الأضواء المحمرة التى تعكس على وجهها النضر من المصباح الغازى، وتذكر عند ذاك مذاق التفاحة الناضجة عندما وقف ببصره عند خديها، لكن عينين نافذتين ترمقانه برغم أنه لا يراهما لأن صاحبتهما هناك بعيداً فى المدينة النائية، كان يخاف أم لولا التى سافرت، لكأن سلطانها يجثم على قلبه فى ليالى الصيف والوحدة والقلق.. واستطاعت «كاميليا» أن تضبطه ذات مرة متلبساً بإمعان النظر إليها، فتبالهت وتظاهرت بعدم الاهتمام بما وراء نظراته، لكنها تمتمت قائلة:

- «لو كانت أم لولا هنا لحققت رغبتى وشفعت لى عندك.. لكن هكذا حظى نحس دائماً».

- «وما شأن أم لولا؟».

- «ست الكل.. لا يرضيها إغضابى».

- «ليه؟».

- «هى تحبنى . . لا أذكر أنها خيبت رجائى . . أما أنت!!!»

وابتسم موريس، وامتزج بريق عينيه برغبة مراهقة:

- «وماذا تدفعين ثمنًا للعطلة؟».

- «خمسة وعشرين قرشًا».

- «لا . .».

- «كم أذن؟».

- «لا أريد مالاً . .».

- «إذن خذ روحى».

وارتجف جسده، ووجدها قد اقتربت منه ملاصقة له، تاركة الموقد والحوض الصغير والمحقن حتى يتم تعقيمها . . ومد موريس يده وهو يغالب انفعالاته الغريبة، وقال:

- «هذه يدى . . . هاتى روحك».

- «خذ . . .».

قالتها وهى تمسك بيده وتضغط عليها فى براءة كاذبة، وحاول أن يجذب يدها فى تردد، لكنها أسرعت بسحبها منه، ثم دست يدها فى جيبها وأخرجت ورقة وقلمًا، وقالت:

- «هذه هى العطلة . . لا ينقصها إلا التوقيع».

وقربتها إلى وجهه، ولاصقت ذراعه، وملأت الرائحة العطرية

خياشيمه، ودقات على الباب جعلت الدم يهرب من وجهه ويصيح هو و«كاميليا» معًا فى ارتباك: «مَنْ بالباب؟» فجاءهما صوت حامد:

- «حالة استقبال يا سعادة البك».

- «قل لهم إنى مريض».

- «سيذهبون إلى الدكتور محمد».

- «ليس له أن يزاول العمل وهو فى عطلة مرضية».

- «سترى...» ثم قال وهو يفتح الباب:

- «هل تسمح لى بالدخول؟ أردت أن أقول إنهم قد دفعوا أجرة الكشف الطبى، والمريض يتلوى من المغص».

- «فى بعض الأحيان يغيظنى تفكيرك المتعفن القذر.. اخرج، صحتى أهم من كل شىء، ثم لا تنسَ أن تحرس البيت ولا تدع أى صاحب حاجة يقترب من هنا.. اسمع.. إليك هذه البرتقالة والسيجارة مبسوط؟؟».

- «ربنا يكرمك يا سعادة البك، تعيش لنا».

وخرج حامد متألمًا لأن رفض موريس الخروج معناه ضياع قيمة الكشف عليه، والقروش الخمسة -النسبة المقررة- التى تدخل جيب حامد نفسه، إنه مقتنع تمامًا أن موريس ليس مريضًا، والعلاج الذى يأخذه للحساسية، والحساسية حسبما يعتقد مرض تافه لا

يؤذيه كثيرًا، لكن «كاميليا» الشيطانة هى الفساد بعينه، وأدرك حامد بغريزته الشاكة أن توترًا ما يسود حجرة النوم، وليس هذا غريبًا على حامد، لقد عاش مع عدد من الأطباء من قبل فى أماكن مختلفة، وكان فيهم من يحبون الجو الهادئ الشائق الذى تحل به امرأة حلوة شهية . . وحامد لم يعد يضايقه مثل هذا التصرف، وإن كان يشعر فى بعض الأحيان بلهب الغيرة؛ لأن بعض هؤلاء الأطباء ينعم بالمركز والمال والسلطة وبهؤلاء الفاتنات المثيرات أيضًا، أما هو فمحروم دائمًا لا ينال إلا الضريبة الصغيرة التى يلتقطها كصدقة، وحاول حامد أن يصرف المريض وأهله، ولكنهم تجمهروا أمام باب الدكتور محمد وطلبوا نزوله، وفهم منهم أن موريس مريض، فلم يتوانَ لحظة عن الذهاب إلى المستشفى وإسعاف المريض متناسيًا أنه قد أبلغ المنطقة الطبية أنه ملازم للفراش، وحاول حامد أن يعقد الأمور، لكن الدكتور محمد خاطبه بلهجة صارمة :

- «لا دخل لك فى شئوننا . . أنت هنا تومرجى فقط . . لك عملك . . هه . . أما عمل الطبيب فهو المسئول عنه» .

ولم يستطع حامد أن يفتح فمه، فقد دفعه أهل المريض بعيدًا بعد أن اختطف أحدهم منه قيمة الكشف الطبى التى كان قد استولى عليها .

وفى الحجرة أمسكت «كاميليا» بذراع الدكتور موريس لتعطيه الحقنة، وقالت وهى تغرز الإبرة :

- «أستطيع الآن أن أملى عليك شروطى» .

ولم توفق فى العثور على الوريد هذه المرة، فقد كانت ذراعه سمينة طرية، فهمت بتكرار المحاولة، فقال موريس فى ضيق :

- «لكنها ستؤلمنى . . . » .

- «إنك تفعلها عشرات المرات بالمرضى وأنت تعطيهم علاج البلهارسيا دون أن يبدو على وجهك أدنى انفعال» .

- «لأنهم يحتملون أقسى المشاق» .

- «وأنت؟؟» .

والتقت نظراتهما، تعمدت أن تعتصم بالجمود واللامبالاة، أما هو فقد كان أجبن من أن يخطو الخطوة الأولى فى طريق العبث، وشعر بجفاف فى حلقه، وخور فى عزيمته، فهبّ وصفعها صفعة واهنة، وهو يتمتم :

- «أنت وقحة» .

وكانت هذه الصفعة الضعيفة مخرجًا عاجلاً ساذجًا لما دهمه من ارتباك وصراع نفسى، فقالت وقد غشيتهما سحابة من الألم :

- «لماذا؟» .

فجاء تبريره لعمله مضحكًا، حين قال :

- «إنك تتعمدين إيلامى» .

- «لا يصح أن تفعل ذلك» .

- «حقك عليّ. . . لسوف نعقد صلحًا».

وحاول النهوض من اضطجاعته، وما استقر جالسًا حتى رفع يدًا وهبط بها فى حنان على كتفها محاولاً اقتحام الحاجز الوهمى الذى أقامه الخوف بينهما، لكنها تسللت برفق، ثم عادت وسحبت ذراعه، وأفرغت الحقنة فى أحد الأوردة، وهى تقول:

- «تستطيع أن توافق على العطلة أولاً».

وكم كانت دهشتها عندما رأته يضع توقيعه. . اختطفت الورقة منه ودستها فى جيبها وهرولت لتجمع أدواتها عازمة على الخروج، لكن صوته لاحقها:

- «ماذا تفعلين؟».

- «. . العودة إلى قواعدى سالمة».

- «والثمن؟».

- «آه. . كدت أنسى الثمن؟ لكنك أغلى عندى من كل شىء»، فقال فى إصرار:

- «الثمن؟».

فجلجلت ضحكاتها. ثم أقبلت عليه فى عجلة وعصبية برغم ابتسامتها العريضة، وانحنت فوقه بسرعة واختطفت منه قبلة متعجلة دون توقع منه، فهدر فى غيظ:

- «قديمة».

فقالت وهى تفر من الحجرة :

- «احذر . . لو علمت أم لولا لقتلتنى . . باى . . باى» .

وهمّ باللحاق بها ، وكان يود فى تلك اللحظات أن يمسك بها ويسحقها فى غيظ ، هذه المأفونة تتعمد أن تصب ماءً باردًا على جسده الملتهب ، وهى فى الوقت نفسه تريق ماء وجهها عند موطئ قدمى الدكتور محمد ، وتبيع نفسها للشيطان فى المدينة حيث تقضى لياليها الغامضة الماجنة ، ثم تعاملنى كطفل صغير ، تسخر منى ومن كبريائى ، إلى متى أعيش وسط هذه الأقنعة الزائفة؟؟ بسمات كثيرة لكنها بلا معان ومطّولات للمديح ليس فيها سوى الجفاف والرياء ، وقبلات . . قبلات تافهة أشبه ما تكون ببصقة ساخرة على وجهى .

وأفاق على دقات بالباب ، ثم دخل حامد مهرولاً ، وهو يقول :

- «علم الدكتور محمد بمرضك فجاء ليطمئن عليك» .

فقال موريس فى ضيق :

- «لماذا لم تخبره بأنى نائم أو متعب ولا أستطيع لقاء أحد» .

- «لكنه رأى «كاميليا» خارجة لتوها من عندك» .

- «أمتأكد أنت من ذلك؟» .

- «بالطبع . . وماذا فى ذلك؟» .

- «أشعر أن هذا الرجل يصل إلى أدق أسرارى بروحه الثاقبة . . طبعًا ستساوره الشكوك» .

- «أفعلت ما يستوجب ذلك يا دكتور؟».

- «أبدًا . . لكن . . لكن دعه يدخل».

كان العرق يتقاطر على جبين موريس واحتقان ظاهر فى عينيه وكان يشعر بشىء بالضيق والقلق، ودخل محمد يتعثر فى خطواته، والخجل يربك حركاته، هذه هى حاله كلما اضطرته الظروف لأن يذهب إلى بيوت الآخرين، وتمت فى رقة صادقة لا رياء فيها: «سلامتك . . ألف سلامة يا دكتور موريس».



الفصل الثالث والعشرون

دخل المنطقة الطبية كالغريب، خطواته تتحسس الطريق فى وجل وكأنه ضيف غير مرغوب فيه، هذا إحساسه، وخاصة عندما قابله رؤساؤه، عاملوه فى جفوة، وأشعروه بالتضاؤل، كلماتهم فيها سخريات تطفو أحيانًا، ويغلفها اللؤم أحيانًا أخرى، حاول أن يكون صاحب حق فلم ينصفوه، وأبدى لهم منطقه السليم فانصرفوا عنه، وأدرك أن وراء أحاديثهم ونظراتهم أمرًا ذا بال، وأخيرًا أخرج المفتش «س» رأسه من بين الملفات المتراكمة أمامه وقال:

- «اذهب إلى مكتب التحقيق، ثم عد إلينا».

وتسلل إلى مكتب التحقيق كلص، شعر بالإثم يسبق خطاه، ويوهن من إرادته وصلابته، كان فى نظر نفسه بريئًا، لكن لكثرة ما سمعه من اتهامات، ولطول ما لاقى من نقد وسخريات وتجريح.. خالطه إحساس بخطايا لم يرتكبها أوهموه أنه خاطئ فأوشك أن ينهار ضعفًا، وكاد يصرخ: «ارحمونى.. ارحمونى» واصطدم بأحد

السعاة لدى بسطة السلم بالدور الثانى فقال متلعثمًا متأسف . . أين مكتب التحقيقات ، فأشار الساعى بأصبعه إلى شقة مجاورة ، دون أن يتوقف عن سيره أو ينطق بكلمة واحدة ، ودخل المكتب وعار الدنيا يغرقه فى عرقه : «السلام عليكم» وارتفعت رءوس ثلاثة من فوق مكاتبها وردت فى كسل : «وعليك السلام» ، وقدم إليهم نفسه :

- «أنا الدكتور محمد صادق ، هل استدعيتمونى حقيقة؟» .

وبسرعة جلية هذه المرة ارتفعت الرءوس الثلاثة ، وحب استطلاع جارف يطل من العيون ، وابتسامات متلونة غامضة تبرق ثم تختفى ، وهز كبيرهم رأسه ، ثم قال :

- «أنت موظف جديد . . لِمَ كل هذا الشغب؟» .

- «أنا؟؟» .

فأشار العجوز بقلمه ناحية الرجل الأول الجالس جوار الباب وخلف مكتبه :

- «حقق معه يا دفراوى بك» .

ثم أشار للدكتور محمد بالجلوس على كرسى قريب ، فارتمى عليه خائرًا ، فى هذه اللحظات القاسية اختلطت مفاهيم الحياة فى رأسه المشوش ، نضاله تحول إلى بلاهة ، ومبادؤه أصبحت مجرد خزعبلات وتهور ، وحسناته ليست سوى سيئات مقيتة ، وارتسم على وجهه شحوب وقلق ، وهمس مفتش التحقيق :

- «قهوة . . شاى . . غازوزة» .

- «متشكر» .

وعاد الصمت ، وعادت معه أوهامه وأفكاره السوداء اليائسة ، إن العالم المزعوم يساق إلى قفص الاتهام ومعنى ذلك الانحراف وعدم الأمانة ، إنها الخيانة ، وموريس هناك فى المستشفى يفعل ما يشاء ، يأمر ويبيع ويشترى ويهدد لكنه ليس لصًا أو خائنًا ، ولم يطلبه أحد اليوم للتحقيق ، خلال فترة الانتظار والصمت الضارب ، وجد محمد نفسه يقول :

- لكنى لست خائنًا .

وارتفعت إليه الرءوس الثلاثة من جديد ، ثم انفجروا ضاحكين ، ثم قال العجوز :

- «أنت خام خالص» .

وخجل محمد عندما أدرك ما تورط فيه من قول ساذج ما كان يجب أن يصدر عنه ، وطأطأ رأسه ثم استنجد بسيجارة أشعلها ، وسعل دون مبرر ، وحاول جاهدًا أن يبتسم ، أن يشاركهم الضحك كى يحيل ما تفوه به إلى نكتة مقصودة ، وفى هذا الوقت أخرج المفتش من درج مكتبه بضعة أوراق ثم تصفحها ، وبعدها التفت إلى محمد قائلاً :

- «ياه . . ما هذا كله؟» .

ونظر إليه محمد فى استفسار متلهف، فلم يمهله بل استطرد:

- «الشكوى الأولى.. تزعم أنك تزاول العلاج الحر «عيادة خاصة» برغم أنك طبيب متفرغ، وموقع عليها من بغض الأهالى».

فصرخ محمد فى ذهول:

- «أنا.. أم.. أم؟؟».

فلم يجب المفتش بل قال:

- «والتحقيق الثانى بشأن رفضك تنفيذ الانتداب برغم توقيعك بالعلم».

- لكنى مريض.

- والتحقيق الثالث تبديدك للعقاقير الطبية وعجز فى عهدتك.

- لكن.

- أما التحقيق الرابع والأخير فهو.. ماذا أقول؟. إنك متزوج.. رب أسرة، ولك أطفال، لكن أرجو ألا يثبت عليك هذا الاتهام، إنه أمر سخيف يدعو إلى الاستمئزاز.

- قال محمد وقلبه يدق فى رعب:

- ماذا تقصد؟؟

- شكوى تقول إنك على علاقة آثمه بمساعدة الممرضة كاميليا.. وموقع على الشكوى من بعض الشهود.

كاد قلبه يسقط بين قدميه واتسعت حدقتاه لهول ما سمع، لا يمكن أن يتمادوا فى حقارتهم وصفاقتهم لهذا الحد.. لا يمكن، محمد صادق مستغل.. وسارق.. وعابث بأعراض النساء- الناس فى قريته سيصرخون «لا.. لا..» وضمائر خصومه لن تنحدر إلى هذا المستوى، والحقيقة.. الحقيقة كالشمس المشرقة لن تثبت أمامها هذه الظلمات، ترى من فعلها؟ إنسان؟ مستحيل- حيوان؟ مستحيل أيضًا، وفى رأسه المشحون بالأفكار المتضاربة تلاقت صورة عديدة، كلها تكشر عن أنيابها، وتبصق الحقد الأسود، وتسدد إليه سهامًا قاتلة مسمومة.. موريس.. أم لولا.. حامد.. كاميليا هذا.. ذاك.. وآخرون مجهولون، قد طمست معالم وجوههم، صورهم جميعًا تتزاحم فى رأسه، وهدر محمد وهو يدق المنضدة الخشبية بقبضة متشنجة:

- إنهم يكذبون.. الإثم فى دمهم.

وفى برود تام وهدوء مثير قال مفتش التحقيق:

- سنرى.. فى التحقيق ستنجلى الحقيقة.. لن نستطيع استيفاء التحقيق فى هذه الموضوعات الأربعة هنا، بعد بضعة أيام أنتقل إليكم فى مقر الوحدة.. حتى نأخذ أقوال جميع الأطراف المعنية.. لكنى أنصحك.. من الخير لك أن تنفذ الانتداب فورًا وتبعد عن هذا المكان المتعب.. اسمع نصيحتى.

كان يهبط الدرج كالتائه، أجراس التليفون تدق فى المكاتب

العديدة، مناقشات حادة، ضحكات مجلجلة، رجال ونساء، حاملو أقداح الشاى والقهوة يروحون ويجيئون، وأحذية لامعة تطأ الدرج فى عجلة، وعربات أنيقة كالعرائس جاثيات أمام المنطقة الطبية، وأطفال المدارس الصغار كالحمائم أمام مدرسة قريبة، وإلى جوارها صيدلية تناثر ببابها وفى داخلها بعض المرضى، ودار فخمة للسينما عليها لافتات حمراء وخضراء وصفراء، وصور لفاتنات وأبطال، وساعة الميدان المواجهة العالية، تدق الثانية عشرة ظهراً العالم كبير متلاطم يغص بالمجانين، وهدير بلا معنى، لو كان كالكثيرين صفيقًا وقحًا لما آلمه الاتهام البشع، ولربما لم يكن هناك اتهام على الإطلاق، وواحد من رجال الشرطة يجزُّ متسولاً من قفاه ويسوقه إلى القسم، وعيون الجالسين على المقهى الكبير تتسلى بالمشهد الطريف المضحك.. ومحمد يجر ساقيه جراً.. وأخيراً العربية المتهالكة والطريق المترب المتعرج الممتلئ بالمرتفعات والمنخفضات.

وما أشقاه.. أراد أن ينشر الحب والسلام والرحمة، فوجد نفسه على الرغم منه يخوض معركة ضارية من الحقد والدس الحقير والآلام القاتلة، ومع الأصيل الشاحب الحزين عاد إلى بيته، وماتت الابتسامة الوليدة على شفتى زوجه عند مرآه.. وغامت عيناها بالدموع، لكن صغيره الجميل جرى إليه فى سرعة عاجزة متعثرة وهو يتهته:

- الشيكولاتة يا بابا..

قال محمد وقد غافلته دمعة وتسربت من بين أهدابه :

- نسيت يا حبيبى . . لسوف أبحث لك عن شيكولاتة حالاً . . وأشتريها لك .

بعد ساعة كانت الزوجة قد علمت منه كل ما حدث بالمنطقة ، كان أساها أكبر من أن تغطيه بستار البسمات المرتجفة الواهنة ، شهور ثلاثة قضاها هنا ، وجدت أمور ، وجرت أحداث جسام ، ماذا لو بقى هنا عامًا كاملاً مثلاً؟؟ لو كان زوجها قاسيًا وغدًا مثلهم لأمكنه أن يسوق موريس إلى السجن مكبلاً بالحديد ، عشرات المخالفات كان يرتكبها كل يوم ، يأتى الآثم فى وقاحة ، ومع ذلك يحاول أن يصفع الأطهار الذين يصفحون عن حماقاته ، ويحاول أن يرميهم بأبشع الخطايا .

قالت الزوجة فى استغراب :

- هل رأيت هذه السخافات مكتوبة بعينيك؟؟

- بالتأكيد .

- لكنى أعرفك .

- وهم يعرفون أيضًا يا عزيزتى .

- والحل؟ إنها فضيحة كبرى ، سوف يلوثون اسمك وكفاحك النبيل .

- قال محمد فى حسرة :

- الحل . . آه . . الحل عنده . . إنى أؤمن بالله ، وبرغم ما ينتابنى من ألم ويأس فى بعض الأحيان فإن ثقتى به لا تتزعزع ، وإيمانى به يقوى ويزداد كلما أحسست بعجزى كفرد تعس محدود القدرات ، وتجربتى الشخصية أثبتت دائمًا أنه كلما ضل عقلى الطريق أخذت بيدى قوى خفية وأسلمتنى إلى شاطئ الأمان ، نار الكراهية التى يشعلونها تطفئها نسمة من نسماته . . عندما أضرع إليه فى إخلاص أشعر أن ظلاً ظليلاً رطبًا يقينى من حر الهجير والعذاب . . إنه أقوى الأقوياء .

ومرت لحظات من الصمت قالت بعدها :

- أينتصر الحب دائمًا .

- كثيرون يقولون أجل . . لكن فى رأيى أن النصر والهزيمة مسألة فرعية . . برسالة الحب جاء المسيح لكنهم على زعمهم دبّروا صلبه . . كانوا أقوى منه ، لكن ذلك لم ينقص من قيمة الحب كطريق خير ونور ورحمة . . ليس المهم النتيجة بل الأهم هو ما يجب أن يكون . . الآلاف يكرهون موريس لكنه باق وفى يده السلطة ، أما أنا فقد يكون من يكرهوننى قلة منحرفة ، لكنى كما ترين مشتت بين الانتدابات والنقل ومكتب التحقيق وارتكاب الخطايا . . كل ما أعرفه يا عزيزتى هو أن نسير فى الطريق نفسه ، بالحب سنسعد وإن كنا قد لا ننتصر .

نزلت كلماته أمنًا ورضًا على قلبها المحترق المعذب، فخففت الكثير من شقائها وألمها، فقالت باسمة :

- ما دمت تعلم ذلك فلماذا هذا الضيق وهذا الاكفهرار الذى غشى وجهك؟

- طبيعة تكوينى كإنسان . . أمن المعقول أن يوضع مقياس الحرارة فى فم محموم ولا يشير إلى درجة عالية؟ ألا يؤلمك الجوع حين يمنع عنك الطعام؟ كان محمد ﷺ نبيًا، لكنه بكى وحزن، وابتسم وفرح . . كان بشرًا رسولاً .

وشعرت الزوجة أنها - وزوجها- أحسن حالاً، وأهدأ نفسًا من قبل، وليست تدرى لماذا طرأ على ذهنها موضوع كاميليا بالذات والشكوى المقدمة بشأنها، فاجتاحتها موجة شديدة من الحنق حاولت كتمانها لكنها كأنثى لم تستطع ومن ثم أمسكت بيد زوجها فى عنف، وقالت ونظراتها مسددة إليه فى تهديد :

- لكن الشك يساورنى من ناحية كاميليا .

قال فى دهشة :

- ماذا جرى لك يا حبيبتى؟

- لا أقصد ما قالوه بالضبط، ولكن بصراحة، هل حركت تصرفاتها العابثة فيك أية عاطفة :

- «بالطبع» .

- قالت فى لهفة: «ماذا؟؟ قل لى».

- قال فى اطمئنان: «الرثاء لحالها».

- «آه من الرجال».

- «آه من النساء».

وضحكا معًا ضحكة، خالطت رنينها أصداء الألم والأسف.

●●●

الفصل الرابع والعشرون

بلغ التوتر مداه، وشحنت نفوس أهل القرية بالثورة العارمة، وخاصة بعد أن نمى إلى أسماعهم المؤامرة الحقيرة التى دبرت ضد الدكتور محمد، والاتهامات الكاذبة التى رموه بها، إنهم واثقون من كذب هذه الافتراءات، مؤمنون بنظافة محمد وسمو غاياته، وأصبحوا شاعرين بأن انفصاله عنهم كارثة كبرى، وأصبح هو ضروريًا لهم كماء النيل الذى يشربونه ويروون به أرضهم، كالهواء الذى يستنشقون . . كالأرض السمراء الطيبة التى تجود بالحياة والخير، وبات انفصاله عنهم انتزاعًا لروحهم من أجسادهم، كانوا بالأمس يصبرون والأسى ضارب أطنانه فتحملوا موريس على الرغم منهم إذا لم يكن هناك سواه يسد الثغرة الخطيرة فى تخفيف آلامهم الجسدية ولو بأفدح الأثمان، أما اليوم فقد تجسدت آمالهم فى رجل طيب يقارب الكمال فى مسلكه، حتى لكأن السماء أنزلته لهم فى ليلة مباركة . . أجل . . طال صبرهم حتى جاء .

لكن الأيدى الملوثة تحاول أن تختطفه من بينهم، فهل يسكنون؟؟

وفى مساء الليلة التالية دقت الباب أيد قوية، وخرج محمد ليرى من هناك، كانوا ثلاثة.. من أهل البلد، إنه يعرفهم استقبلهم فى ترحاب، ودعاهم إلى الدخول، فاعتذروا، وفكر أن لديهم مريضًا لم يستطيعوا نقله، لكن كيف يذهب معهم المفروض أنه ملازم للفراش، ولم يكن كافيًا أن يقدم لهم هذا العذر الذى لن يقتنعوا به ولهذا قرر بينه وبين نفسه أن يتوكل على الله ويستجيب لهم، وبعد تبادل التحيات المعهودة قال محمد:

- «خيرًا».

فقال أحدهم:

-« نريدك بعيدًا عن هنا».

- «أنا فى الخدمة- أين المريض؟».

- «نريدك فى أمر آخر.. أسرع لو تكرمت».

وفى لحظات كان قد ارتدى معطفه وأحضر الكشاف وسار بينهم وضوء الكشاف ينير الطريق الضيق الذى تقوم على جانبيه البيوت الصغيرة وتظلله الأحطاب الجافة، كانت النجوم تلمع فى السماء والحرارة قد خفت حدتها، وكلاب تنبح من آن لآخر، وتمتم محمد:

- «أراكم واجمين».

- «وأنت؟ . . » قالها أحدهم بلهجة صارمة ، فرد محمد :

- «الحمد لله» .

- «سنرى» .

وساد الصمت العاصف من جديد ، ولم يعد يسمع غير وقع الأقدام الثمانى ، وخشخشات غامضة ، وعشرات من علامات الاستفهام معلقة فى رأسه المتعب المكدود ، وقلبه ينبض فى خوف ، وأين هو من الأيام الهادئة الوادعة التى كان يقضيها فى المستشفى العام بالجيزة ، كانت الليالى تمضى بلا ضيق أو مشاكل وعشرات الأطباء يعملون فى صمت ، مشاكل تافهة تلك التى كانت تعترضه وسرعان ما تذوب ، ويعود للهدوء والأمان ويرجع لزوجه وطفليه مرتاح البال والضمير ، المسئولية كانت محدودة وبسيطة ، ورفاق العمل أغلبهم غير طامعين ، وهناك مدير مستشفى يقظ يتجنب الكوارث قبل وقوعها ، وإذا حلت عالجها بحزم ورفق ، وأما اليوم فمحمد يحمل عبئًا ضخمًا ، ويتكفل بهموم الآلاف الذين يمدون أيديهم له ويحاول فى لباقة وإيمان أن يعترض تيار الاستغلال والظلم فى هذا المجتمع الصغير ، ليقيم دعائم أفضل لبناء جديد ، وطول الفترة القاسية التى قضاها فى القرية ظل يدافع بذراعيه أمواج الأكاذيب ، والاتهامات الباطلة حتى أوشك ذراعاه أن يكلا من طول المدافعة لشد ما يؤلمه أن يقال عنه أنه زير نساء ، ويمهد طريق الفساد والغواية لكاميليا ، ويبادلها الحب الآثم ، ترى هل علم

الطيبون من أهل القرية بذلك، إنهم ذوو حساسية مرهفة لكل ما يتعلق بالنساء، إنها جريمة كبرى لا تصفح وعار دائم لا يزول.

وانبعث من خلفه صوت أجش يقول:

- لقد وصلنا.. الباب مفتوح.. تفضلوا.

جلسوا جميعًا على حصير نظيف جديد، لكنهم حرصوا على أن يضعوا خلف ظهر محمد وسادة مكتنزة كفاصل بينه وبين الحائط، وبين ثنايا عبارات الترحيب كان محمد يلمح ظلاً للأسف المرير، ومرت أقداح الشاى على رجال عشرة تحلقوا إلى جواره، واختطف محمد نظرات سريعة إلى الوجوه السمراء الجافة التى لوحتها أشعة الشمس، والطواقى الصوفية التى لا يعرف لها لونًا مميزًا، والعيون التى ينبثق منها تعبير ساخط برغم ما يتظاهر به الرجال من ابتسامات، والجلابيب الزرقاء أو الداكنة التى أصبحت صفة لازمة لهم.. وهتف أحدهم «الفاتحة للنبى على ابن الحرام والظالم» وتمتمت الشفاه، ثم عادت إلى الصمت بعد دقيقة، وعاد صاحبنا يقول:

- «ماذا تم فى التحقيق يا دكتور محمد؟».

قال محمد فى ارتباك:

- «ولماذا تشغلون أنفسكم به؟».

- «لأنه يمسنا كما يمسك، لا لأنك واحد منا فحسب، بل لأنه مرتبط بمستقبلنا ومصالحنا ومرتبط بالعدالة التى أوجبها الله..».

وخفق قلب محمد خفقات الرضا والبهجة، أصحاب الجلابيب الزرقاء يتكلمون كما يتكلم الفلاسفة، كلماتهم بسيطة شعبية، لكنها عميقة المعنى بعيدة الغور- أيستطيع أبناؤهم وإخوتهم فى المدارس أن ينطقوا بتلك الحكمة الرائعة؟

وتمتم أحدهم:

- «لقد وضح الطريق وسنسير فيه ولن نتخلى عنك وما عجز المسئولون عن إصلاحه لضعفهم أو لحيفهم، سنصلحه نحن بأيدينا..».

وصرخ أحدهم مقاطعًا:

- «بل بسلاحنا..».

وقال آخر:

- «لقد عزمنا على تأديب الخونة، بل قتلهم.. سنقتل موريس ونرمى به فى الترعة، سنقتل حامد، ولن يمر يومان حتى نكون قد دفنا الثعابين..».

وشحب وجه محمد، وداهمه خوف شديد، وانقلبت سحنته، وبان الغضب فى عينيه، وهتف محتدًا:

- «ماذا تقولون؟ أنلعب بالنار؟».

- «لأنهم يحتقروننا، يعبثون بمستقبلنا، يسخرون من إرادتنا..».

- «وكيف تقيم سعادة قريتنا على جثث الضحايا والدماء؟».

- «هم يدعوننا إلى ذلك. .».

وصمت محمد برهة ثم قال وهو يجفف عرقه:

- «القانون وحده هو الفيصل. . الزيف لا يدوم، والكذب لن يحمى الادعياء. .».

- «لكن القانون يخذلنا. .».

- «فى النهاية سينصرنا. .».

- «متى؟».

- «عندما يشاء الله. .».

وحاول أن يشعل سيجارة لكن أيدى كثيرة تسابقت بأعواد الثقاب، فجذب نفسًا عميقًا، وقال:

- «نطالب بحقوقنا وفى الوقت نفسه نبعث بحقوق الآخرين، ونزهق أرواحهم، ونحن ندعو للحب والسلام ولكننا ننوى إراقة الدماء، وتأريث الأحقاد، وننقم على خصومنا أحقادهم وحماقاتهم، ومع ذلك نحقد ونرتكب الحماقات! لا يا إخوانى، لو اتخذنا هذا الطريق فسوف نخسر كل شىء، نخسر المال والنفوس والأمان والحب والسلام، وبجرة قلم ينقلوننى من هنا وتقاسون الأهوال، ويشاع عن قريتنا أنها تقتل الأطباء، وتدوس القانون، ويقال عنى صاحب عصابة. . ثم أتعتقدون أن قتل النفس يرضى الله؟».

ونفذت كلماته الصادقة إلى أعماقهم، لم تكن طبيعتهم أن ينغمسوا فى حمأة الرذيلة والدماء والمشاكل، لكن اليأس والضياع دفعاهم إلى التفكير المنحرف، بحثوا عن حل سريع، فوكلوا أمرهم إلى القوة وهى يسيرة، لكن محمد ثار واحتج واستبشع ما يفكرون فيه، وأفهمهم أنهم ليسوا فى حاجة إلى مزيد من الدماء بل إلى تصالح وتفاهم وقلوب صافية وأخيراً جاءهم صوته هادئًا واثقًا :

- «أيها الإخوان. . لسنا برابرة. .».

وكان محمد يدرك مدى تأثير الشعور الدينى عليهم- واعتصامهم بكلمات الله وحديث رسوله؛ لأن كل ذلك يفعل فيهم فعل السحر، ولهذا قال :

- «كلكم يعرف قصة سيدنا يوسف عليه السلام. . لقد كادوا له ورموه فى بئر، لكن يد القدرة انتشلته من الهوة السحيقة لتضعه فى قصر عزيز مصر أيام الفراعنة. . ثم حاولوا أن يجبروه على الخطيئة فامتنع وخاف الله، فرموه بالخيانة وزعموا أنه قد اقترف إثمًا عظيمًا فوجد نفسه فى ظلام السجن الرهيب، وفى النهاية جاء الحق واتضح ما كان خافيًا، وخرج يوسف من سجنه ليصبح وزير الملك. . خرج عزيزًا مكرمًا تنحنى له الجباه وترمقه العيون بإعجاب، وعندما رأت زوجة العزيز موكبه الرائع ندمت على كذبها ووشايتها، وقالت: «سبحان مَنْ جعل العبيد ملوكًا بطاعتهم، وجعل الملوك عبيدًا بمعصيتهم».

وأطرق الجالسون فى خجل وبعضهم فاضت دموعه، وغمغموا: «الله.. الله.. نعوذ بك من الشيطان الرجيم.. لا حول ولا قوة إلا بالله..».

وكما جاء محمد عاد إلى مسكنه، لكنه كان هذه المرة هادئًا مرتاح الضمير، كان يحمد الله ويشكره على أن ساقه إليهم فى اللحظة الحاسمة فأوقف الجريمة قبل وقوعها بيوم واحد، وشىء آخر أبهجه كان يستطيع أن ينتقم لشرفه وكبريائه، ويقذف بشانئيه إلى جحيم الموت، ويورث أم لولا الترمل والشقاء لكنه قهر نوازعه، وتناسى جراح نفسه النازفة واستطاع أن يبقى كما هو محمد الطاهر.. الصالح.. المؤمن.. بجدوى الحب والسلام.. المعتصم بحبل الله والقانون.. قالت زوجه والقلق لم يزايلها بعد:

- «أين كنت؟؟».

- «فى رحلة بعيدة..».

- «أنوبة تصوف هى؟».

- «بل إحياء نفوس..».

- «تزيدنى غموضًا.. أمسيح أنت لتحيى الموتى؟».

- «القاتل ميت، والمقتول ميت، كلاهما ينتهى إلى الضياع سواء القبر أو السجن أو غرفة الإعدام أو الحياة الآثمة.. كله موت..».

فقالت زوجه فى دهشة :

- «إنك تخيفنى . . » .

- «الأمر بسيط . . أرادوا قتل موريس فمنعتهم ، وهكذا عاش موريس وعاشوا هم . . » .

فهزت رأسها فى شرود :

- «آه . . فهمت . . الحمد لله . . خذ . . » .

ثم قدمت له ورقة ، سرعان ما نشرها وقرأ ، كانت عيناه تجريان على السطور فى استغراب ، إنه خطاب من المحكمة التأديبية بمجلس الدولة ، تدعو «موريس» للمثول أمامها للمحاكمة ، بسبب شكاوى قديمة محولة من النيابة الإدارية ، ومدعمة بتقريرات سرية من «الرقابة الإدارية» ، وهمست زوجه فى شماتة :

- «لقد وقع موريس» .

فأردف محمد :

- «مسكين . . » .

- «يستحق . . لم ينفعه المفتش «س» ، أراد الله أن يأخذ الحق مجراه على الرغم منه . . والبقية تأتى . . » .

وقاطعها محمد قائلاً :

- «لكنه خطاب موجه إلى موريس نفسه فمن الذى أتى به إلى هنا؟؟».

- «سعيد سلطان، تسلمه ضمن البريد ورأى أن يطلعك عليه قبل موريس، كان موريس سيكتمه قطعًا . . لكن الخبر انتشر بسرعة البرق بين موظفى الوحدة . . كنت أرى الشماتة على وجوههم جميعًا حتى أصحابه . . ».

وتمتم محمد وهو يطوى الورقة:

- «أخطأ سعيد . . لكم يؤلمنى أن يقاسى موريس الألم والقلق، فيعيش هو وزوجه وطفلته فى نكد وخوف . . إنها قاسية يا زوجى . . قاسية برغم ما يرتكبه من أخطاء . . ».

ثم رمى بالخطاب وهو يغمغم:

- «إلىّ بقرص من الأسبرين . . إن رأسى يكاد ينفجر من الصداع».



الفصل الخامس والعشرون

كاد موريس يجن وهو يراقب تطورات التحقيق، فالذين قدموا شكوى بخصوص مزاولة الدكتور محمد للعمل الخارجى أنكروا جميعًا هذه التهمة، زعموا أن التومرجى حامد قد خدعهم، فوضعوه فى موضع حرج، وهددوا مسقبله وشكوى عجز عهدة الأدوية مرت بسلام، فقد استطاع محمد قبل الجرد والتحقيق أن يستكمل النقص من جيبه الخاص، أما عدم تنفيذ الانتداب فقد أبرز لهم محمد شهادة من اللجنة الطبية «القومسيون» تثبت مرضه ومنحه عطلة أسبوعين للعلاج- وبقيت بعد ذلك مسألة «كاميليا». . وقرر موريس بينه وبين نفسه أن يلصق الشبهة على الأقل بسلوك الدكتور محمد، فأوعز إلى حامد أن يكون شجاعًا ويلقى بشهادته ضده، كما استدعى سعيد سلطان وهمس فى أذنه، لكن سعيد رفض المساومة بإباء . .

وعدما دخل حامد لجنة التحقيق وطلب منه الكلام قال:

- «ربى يسألنى . . أقسم على المصحف الشريف أنى لا

أكذب . . لقد دخلت حجرة العيادة . . أعوذ بالله . . وجدت كاميليا عارية الصدر ويد الدكتور محمد على صدرها . . ربى يسألنى . . أقسم على المصحف ارتبك الدكتور محمد عندما رآنى، وشحب وجهه، وأنزل يده على الفور . . ».

وهنا قال مفتش التحقيقات :

- «أتعتقد أنه كان فى وضع يخدش الفضيلة أم كان يوقع الكشف الطبى عليها؟ . . ».

فرد حامد فى خبث :

- «ولماذا ارتبك وخاف إذن، وغطت هى صدرها على الفور؟».

-«لعل دخولك غير المرغوب فيه أثناء توقيع الكشف على امرأة هو الذى أحدث ذلك . . ».

- «لا أظن . . والدكتور موريس رأى بعينيه ما رأيت . . ».

- «كفى . . تفضل بالخروج . . ».

وهرش حامد قفاه ثم خرج مهرولاً، ليفسح الطريق للدكتور موريس الذى قال عندما طلبوا شهادته :

- «لا تحرجونى . . إنه زميلى . . وهو فى الوقت نفسه موظف جديد ولا أنكر أنه إنسان . . ومع هذا فالشيطان شاطر . . كلنا شباب وما أكثر ما نتعثر حيال النساء . . ألستم معى؟؟».

- «نحن نسـألك . . والإجـابة على قـدر السـؤال . . مـاذا رأيت . . » .

- «يعز عليَّ أن أعرض بزميل و . . وأخ . . » .

- «العدلُ أسمى من هذه الروابط . . » .

- «إذن لقد فتحت الباب الجانبى ، كنت أحسبه وحده ، لكنها هى الأخرى كانت هناك ، واقفة أمامه ، فى وضع مائع مثير . . إننى أعـذره ، مَنْ منا يضبط أعصابه أمام صدر عارٍ ناهد وابتسامة غجرية ، وجسد يفور بالرغبة؟ سامحنى يا إلهى . . بصراحة كانت يده تعبث بصدرها» .

قال المحقق فى حزم :

- «يده أم السماعة؟» .

- «بل يده ، لم يكن بينى وبينهما سوى متر ونصف . . كان الجو حارًا وخلق كثير أمام باب العيادة المغلق . . أرجوكم لا تحرجونى أكثر من هذا . . وإذا كان هناك مطلب ألح فى تحقيقه فهو أن تصفحوا عنه . . كلنا نخطئ ، من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . . ولن يستطيع أحد أن يلقتط حجرًا ويفعل ذلك ؛ لأن الخطيئة فى دم كل واحد منا . . » .

قال المحقق وقد شم بحاسته المرهفة رائحة الغدر والكذب :

- «المسألة تافهة جدًا . . » .

وامتقع وجه موريس وارتجفت أطرافه، وتمتم:

- «هذا ما أعتقده، فلا داعى للاستطراد..».

- «مع ذلك فنحن ننشد الوصول إلى الحقيقة.. الدكتور محمد نفى بكل شدة أن يده تحركت نحوها، أقسم أنه لم يلمسها.. اعترف أنها طلبت توقيع الكشف الطبى عليها فأرجأها إلى وقت آخر، لكنها ألحت، وتمسكت بحقها فى الكشف، أتعتقد أن الدكتور محمد كاذب فى قوله؟».

تمالك موريس أعصابه واستجمع قواه المنهارة، وهمس:

- «أنا لا أكذب..».

- «الجميع هنا.. الأهالى.. هيئة التمريض.. التومرجية المستخدمون أجمعوا على صدقه وبراءته ونزاهته باستثناء التومرجى حامد الذى نشك فى شهادته بعد أن ثبت لدينا أنه حرّض الأهالى على تقديم الشكاوى الكاذبة، وخدعهم وسجل توقيعاتهم وبصماتهم على شكاوى أعدها بنفسه.. وسوف ندينه ونعاقبه، ولم يبقَ إلا أنت وشهادتك لها أهميتها..».

- «قلت ما رأيك..».

- «أتستطيع مواجهة الدكتور محمد؟».

- «أنا؟ مستحيل..».

- «ليه..؟».

- «إنه زميلى . . لا تحرجونى . . ».

نظر إليه المحقق فى شك، وأطال إليه النظر، ثم قال فى نبرة لم تخلُ من الغيظ:

- «أتقسم على ما تقول . . ؟».

- «أقسم بشرفى أنى لا أقول غير الحق . . ».

- «لكنهم يزعمون أن بينك بين الدكتور محمد خلافًا يتعلق بالعمل وهذا يضعك موضع الخصومة، ويقلل من تأثير شهادتك . . فما قولك؟».

- «من قال ذلك؟ نحن إخوه . . أبناء مهنة واحدة . . ثم إنه من أهل القرية . . وأنا بمثابة ضيف . . من قال ذلك؟».

- «الأهالى . . وسعيد سلطان . . ثم التقاؤك مع التومرجى حامد فى سياسة واحدة . . ».

- «هذا زعم باطل . . وأنا أقول الحق . . ».

- «شكرًا . . ».

وبلغت أسماع كاميليا قصة الشكوى المرفوعة ضد الدكتور محمد بشأنها وشردت بذهنها بضع لحظات، ثم أشرقت ملامحها بالفرحة الغامرة، لقد اقترن اسمها باسم الدكتور محمد، ونُسِجَت خيوط قصة غرام عنيفة على الرغم منه، وتناقلتها الأفواه فى دهشة، وتلقفتها الأسماع فى غرابة . . أصبحت كاميليا بين يوم

وليلة بطلة لقصة حب مثير مع مَنْ؟ مع الرجل الذى حلمت به طويلاً، وأرادته لنفسها وهمست باسمه فى ظلام الليالى المؤرقة الخاوية، مع الرجل الذى أهدرت كبرياءها وشبابها تحت قدميه فأبى، واعتصم بالفضيلة . . وبقى شامخ الرأس، موفور الكرامة، كالجبل الأشم لا ترقى إليه الأقدام العاجزة، أو القمة الشاهقة التى يعجز البصر أن يلحق بها فى السماوات العلى، لقد فاتها تحقيق آمالها فى عالم الحقيقة والواقع، لكنها انتشرت فى جو من الشائعات والشكاوى، وغدت أسطوره، يحاول المحققون الإمساك بخيوطها، وبلوغ كنهها، وهبطت كاميليا الدرج شامخة الرأس فى كبرياء، وشعور بالانتصار يبعث فى قلبها الزهو والفخر، وتمتمت بينها وبين نفسها «الدكتور محمد وكاميليا . . روميو وجولييت . . يا جماله» وابتسمت فى سعادة، وطرقت باب الحجرة دون وجل، وأقدمت على مفتش التحقيقات فى شجاعة لم يكن يتوقعها، وعندما سألها عن حقيقة ما حدث قالت:

- «تسألوننى عن الحقيقة . . هذه الوحدة ممتلئة بالذئاب والثعابين قولوا لهم موتوا بغيظكم . . إن الدكتور محمد أشرف الشرفاء، اليد النظيفة الوحيدة هنا . . حتى هؤلاء الذين يطعنونه فى عرضه يخجلون بينهم وبين أنفسهم، فهم يعرفون أنه سيدهم . . ».

قال مفتش التحقيقات ضاحكًا:

- «يبدو أنك متيمة . . ».

- «وما شأنهم بنا؟».

- «أفهم من ذلك أن هناك حبًا قويًا..».

«واحتشدت فى قلبها مرارة الهزيمة، وذكرى الإلحاح التعس، ودموع الليل والأرق وسخريات هدى، وتعليقات زكية الوقحة، وكبرياؤها كفتاة لم يستعصِ عليها أحد، فصرخت:

- «بل أعشقه...».

- «هذا جنون..».

- «ليكن..».

- «أنكتب هذا الكلام فى المحضر..».

- «اكتبوه..».

- «لكن هذا يضر بمستقبلك، وبمستقبله..».

وطنت كلمة «مستقبل» فى رأسها، كطبول الحرب القاسية، كأجراس الخطر وهى تدق فى عنف ورعب، كزمارة الإنذار فى ليل مدلهم لايتبين أوله من آخره، أو تتضح فيه أبعاد الأشباح المتسللة وتذكرت أهلها بالإسكندرية والمسئولية الملقاة على عاتقها، وتذكرت محمد البرىء الفاضل وسمعته وخصومه الذين يكيدون له، عند ذلك آلمها اندفاعها وتهورها، وأيقنت على الفور أنها تخوض فى طريق شائك خطر، فرفعت رأسها ونظرت إلى العيون التى تنتظر كلمتها، والأقلام المشرعة التى توشك أن تجرى على

الورق لتسجل كل حرف تقوله، ورويدًا رويدًا . . غامت عيناها بالدموع، وانتفض جسدها، وصرخت :

- «إنهم يكذبون . . يكذبون . . لم تمتد يد محمد إلىّ . . . هذا الإنسان صاحب القلب الكبير لا أتصور أنه يأتى خطيئة مهما صغرت . . موريس كاذب . . حامد كاذب . . محمد صادق . . أقسم أن حذاءه برقابهم جميعًا . . » .

وانهمرت دموعها غزيرة، وامتقع وجهها، ثم ترنحت وقبل أن يفيقوا إلى ما حدث كانت ممددة على الأرض، وقد استسلمت لنوبة من الصرع قاسية تهز جسدها هزًا عنيفًا، وفى لحظات كان الجميع يقفون من حولها، المحقق والدكتور موريس ومحمد وسعيد سلطان وزكية وهدى، هذه تلك أطرافها، وتلك تعد لها حقنة، ثم نقلوها إلى حجرة الاستقبال لإسعافها، وألقى المحقق نظره على ملامحها المتشنجة وخصلات شعرها المتناثرة، وشفتيها الزرقاوين، وفمها الذى يتسرب منه الزبد، وجسدها المتصلب وصدرها الذى يعلو ويهبط، ويدها الملتوية، وعينيها المغمضتين فى عنف، وبدت أمامه كتمثال من الشقوة والأسى، فهمس : «مساكين» .

كانت زكية تبكى فى صمت، أما هدى فقد أطبقت شفتيها وخطوط ألم عميق ترتسم على وجهها الشاحب، وجمد سعيد سلطان فى مكانه كالمذهول، وعرق باد يتقاطر على جبينه الأسمر، وارتعاشة ظاهرة ترجف شفتيه، أما محمد فقد أطرق برأسه فى

خجل وحسرة، وطوفان من المشاعر العارمة يهدر فى قلبه ورأسه، وبقى موريس هادئًا باسمًا يحاول إسعافها فى اطمئنان محاولاً أن يظهر بمظهر اللامبالى، ويتمتم: «كثيرًا ما تأتيها هذه النوبة، إنها لا تستطيع الصمود أمام الانفعالات الطارئة.. مسكينة..»، وتنهدت كاميليا تنهيدة طويلة وصدر عنها زفير يشبه الأنين الممتد، ثم فتحت عينيها فوقعتا على الملتفين حولها، وما إن وقع بصرها على موريس حتى نهضت من رقدتها قاعدة، واستجمعت قواها، وبصقت نحو موريس الذى انحرف فلم تصبه البصقة، وصرخت باكية:

- «ندل.. يستغل ضعف المساكين..».

ثار موريس وانقلبت سحنته، وأخذ الضيق بنفسه كل مأخذ، وهتف مغتاظًا:

- «لا بد من إجراء تحقيق آخر معها.. لقد رأيتم بأنفسكم وقاحتها..».

وهمت كاميليا أن تفعل شيئًا آخر، ولكن الدكتور محمد خطا نحوها فى ثبات وأمسك بكتفها فى عنف رقيق:

- «كفى.. لا يصح أن تصدر عنك هذه التصرفات..»، ونظرت إليه، كانت عيناه تفضيان ألمًا ممزوجًا بالحنان، وكانت ملامحه تنبئ عن طهر وطيبة، وسرعان ما هدأت أعصابها، واستعادت وعيها وسمتها المألوف، ثم جففت دموعها، وعدلت من خصلات شعرها المتناثرة، وسوّت ملابسها، وتمتمت:

- «اعذونى . . لم أكن أدرى ما أفعل . .» .

ثم التفتت إلى المحقق قائلة :

- «أتنوى استكمال التحقيق؟؟» .

قال الرجل ضاحكًا :

- «إنه لا يستحق كل هذا العناء . .» .

- «ماذا كتبت عنى؟؟» .

- «لاتفكرى فى ذلك، أعتقد أن التحقيق سيحفظ . . عشرات الشكاوى الكيدية تصلنا كل يوم، ومعذرة يا ابنتى إن كان التحقيق قد جرّ عليك بعض الضيق . .» .

وأرادت أن تسأل عن الدكتور محمد، وتطعن فى الرزاز الذى أصابه به المرجفون، لكنها خجلت، لم تعد تخاف على هذا الرجل، إن عين الله تحرسه لسبب بسيط وهو أنه نبيل مخلص، والذين ينشرون عنه الأكاذيب لا بد وأن لهم مصيرًا رهيبًا محتومًا . .

وعندما انتصبت على قدميها واقفة قالت :

- «أتدرون لماذا حاولت أن أبصق فى . . ؟» .

قال محمد فى وداعة :

- «لا تعودى لهذا الأمر . .» .

قالت كاميليا وهى تصر على أسنانها من الغيظ :

- «طلبت منه عطلة . . فطالبني بالثمن . . أتدرون ما هو الثمن؟؟ لا شك أنكم تعرفون وخاصة أن زوجه كانت على سفر . . بالطبع فهمتم . . موريس هذا هو نفسه الذى يطعن فى شرفى . . بيته من زجاج ويقذف الناس بالأحجار ، ويرمى الشرفاء بالخطيئة . . اسألوه لماذا أحالته «النيابة الإدارية» إلى مجلس الدولة . . ؟ هكذا أراد ثمن العطلة كما يقبض الثمن دائمًا من المرضى المساكين الفقراء . . » .

ووثب سعيد سلطان نحوها فجأة ، وأمسك بذراعها فى جنون ، وقال وهو يهزها :

- «هل فعلها؟؟» .

فقالت فى ثقة :

- «يستطيع أن يجرى تحقيقًا ، أو يطلب نقلى ، أو ينتقم . . أما أن يخدعنى أو يساومنى على شرفى ، ففى إمكانى أن أوقفه عند حده . . » .

وضرب المحقق كفًا بكف ، وتلفت حواليه باستغراب ، وقال :

- «هذا جو غريب . . لا أكاد أصدق عينى . . إن أحسن حل هو أن يذهب كل منكم فى مكان بعيد عن الآخرين . . إنكم تضرون مصالح الناس بهذه التصرفات . . » .

قال سعيد ثائرًا :

- «لو خرج منها موريس لصلح الحال . . » .

وقالت كاميليا :

- «موريس هو الوباء . . » .

وقالت زكية :

- «الدنيا كلها هكذا . . » .

وقالت هدى :

- «أمر ربنا . . » .

وهمس محمد :

- «ربنا يعمل ما فيه الخير . . » .

وقال المحقق وهو يزمع الرحيل :

- «الله يخرب بيوتكم . . صدعتم رأسى ، وحيرتمونى . . » .

ثم بحث عن الدكتور موريس فوجده فى الخارج ، فهتف مناديًا بالتومرجى حامد ، فهرول مرتبكًا ، وما إن وقف أمامه حتى قال :

- «تحضر غدًا لمكتب التحقيقات . . أنت تحرض الأهالى على كتابة الشكاوى الكيدية لأغراض خبيثة . . » .

وهتف حامد متوسلاً :

- «فى عرضك يا بك . .» .

- «لا فائدة . .» .

- «هات حذاءك أقبله . .» .

- «ابعد عنى . .» .

وفكر حامد فى الاستنجاد بالدكتور موريس ، لكنه لم يعد خافيًا أنه فى وضع حرج وعلى وشك الرحيل إلى القاهرة ، إلى المحاكمة التأديبية بمجلس الدولة والأهالى ثائرون ضده ، وكاميليا حاولت البصق على وجهه ، ومن ثم التفت إلى الدكتور محمد ، وقال فى نبرة ذلة ورجاء :

- «أنت أخى . .» .

- «ما آذيتك . .» .

- «أعتذر وأقبل يديك . .» .

- «أنا متنازل عن حقى . .» .

قال المحقق فى جفاف :

- «عد إلينا يا حامد غدًا . . لا بد أن يأخذ التحقيق مجراه . .» .

- «وحياة أولادك . .» .

- «لا فائدة . .» .

- «أنا عبدك . . ارحمنى . . » .

وشعر الدكتور محمد بمزيد من الاشمئزاز ، وهو يستمع إلى عبارة حامد الأخيرة ، فحوّل وجهه بعيدًا ، وتمنى أن يسد أذنيه بأصبعيه حتى لا يستمع إلى هذه الضراعة الضالة التى لا تليق بإنسان .



الفصل السادس والعشرون

حينما عادت «أم لولا» وجدت الجو مشحونًا بالتوترات، تصطرع فى أفقه احتمالات عدة، وتغطيه سحب داكنة منذرة، حتى الخادمة الصغيرة تركتها وهربت دون مبرر، والتومرجى حامد الذى لم يكن ينقطع عن التردد عليها اعتكف فى بيته منتظرًا على أحر من الجمر مصيره الذى سيحدده التحقيق الذى تورط فيه، وزكية لزمت مسكنها قائلة: «وأنا مالى»، وهدى آثرت الصمت واكتفت بالنظرات الوجلة المشفقة، وكاميليا قاطعت الدكتور موريس كلية، ولم يعد يربطها به سوى العمل دون تبادل لأى نوع من الأحاديث، لكن المسكينة كانت خائفة مشفقة من المستقبل الغامض، فليس معقولاً أن يصفح لها موريس الإساءة، وسعيد سلطان لم يعد يفكر فى مهادنة موريس، بل أخذ ينشر على الناس نقائصه وتصرفاته المريبة، وخاصة فيما يتعلق بالأمور المالية والعلاجية وبموضوع القضية المعروضة فى مجلس الدولة، أما الدكتور محمد فقد آثر أن يرحل إلى القاهرة مع أسرته الصغيرة ليبتعد عن هذا المحيط الذى تعقدت صلاته، ولينعم ببعض الراحة فتهدأ أعصابه، ويستعيد ما

تبدد من نشاطه وقواه التى أوشكت المعركة الدائرة أن تستنفذها، ودهشت أم لولا عندما استقبلها موريس فى لهفة عارمة، وارتمى عليها وأحاطها بذراعيه فى تشبث وضمها إليه فى قوة، وأخذ يغمر وجهها بالقبلات الجائعة، لكنها أدركت بغريزتها أن هذه الحرارة ليست تعبيراً عن انفعالات عاشق يحرقه الشوق، بقدر ما هى تعبير عن الخوف والغربة والحيرة القاتلة، أجل تشبث بها كطفل طال حنينه إلى صدر أمه التى يرى لديها الحماية والمسامرة والأمان، وهمس فى نبرات جريحة:

- «كنت بدونك كالغريق..».

- «ألست رجلاً..».

- «تطورات قاسية مريعة لا تحتملها أعصابى».

-« أموريس طبيب الوحدة ورئيس المجلس وزوجى هو الذى يتكلم، أم أن ما أسمعه صادر عن شخص آخر؟؟ لا أكاد أصدق!».

وانتزعت نفسها من بين ذراعيه، وألقت بثقلها على كرسى قريب، وعينا نمرة جائعة تبرق فى وجهها، وكانت تفكر فيما جد من أمور، وكيف تواجه هذه العاصفة المدمرة لتكسر حدتها، وتنتصر على أعدائها؟ الدكتور محمد ذلك الدرويش الأبله؟؟ كاميليا تلك المجنونة المنهارة الفاجرة؟؟ سعيد سلطان ذلك الكاتب المغرور الذى تستطيع أن تسحقه بين أصبعين من أصابعها؟؟ أما

هؤلاء الفلاحون الأقذار الذين لاحول لهم ولاقوة؟؟ لكنها تذكرت زوجة الدكتور محمد، وشعرت إزاءها بحقد هائل، إنها قابعة فى بيتها مع طفليها، لا يكاد يسمع لها أحد صوتًا، نادرًا ما تقف بالشرفة أو تنزل إلى ساحة المستشفى، يقولون عنها هادئة مهذبة، لا شقاق بينها وبين زوجها، تستقبل زوارها مهما صغروا فى أدب جم، وتبادلهم زياراتهم دون تفرقة، فليس عيبًا أن تزور الممرضات فى مسكنهن، ولا يشينها أن تنتقل إلى سكن المدرسات وتجاملهن وتمرح معهن كأخوات لها، درويشة مثل زوجها تمامًا، ولا تحيط نفسها بجو الرهبة والسلطة، ولا تتصنع الكبرياء . .

قالت أم لولا :

- «وماذا يهمك؟؟» .

- «الكوارث . .» .

- «خصومك أتفه مما تصور . .» .

فنظر إليها فى شك، لم يعد يؤمن بكلماتها، وصلابتها وحزمها واحتقارها للآخرين لا يوصل إلى بر الأمان دائمًا، فى هذا الوقت بالذات لم تعد تجدى هذه السياسة، يجب أن يبحث عن مخرج من هذه الأوضاع، وقد ضاعت معه مقوماته كرجل مركز مرقوق، وقال موريس فى نبرات واهنة :

- «لكن هؤلاء التفهاء هددوا مستقبلنا» .

- «لا أظن، إنك تبالغ . .».

- «والقضية؟؟».

-«تافهة أيضًا . .».

- «إنك لا تفكرين بعقلك الآن . .».

- «بل واثقة مما أقول، هؤلاء الحفاة والعراة لن يأخذوا بكلامهم في المحكمة، والقاضى لا شك يعرف أنه فى الإمكان شراء عشرة شهود بجنيه واحد، وتستطيع أنت أن تشترى شهود نفى كما تشاء . .».

ولم يبد موريس اهتمامًا يذكر بكلماتها، كان واثقًا أن هذا الأسلوب لن يغير من الحقيقة المرة فى شيء، لن يطمس معالم جريمته، لهذا قال:

- «أتدرين ماذا تعنى إدانتى؟ . .».

- «ماذا؟؟».

- «نقل فورًا من هنا . .».

- «يستحيل أن نخرج مهزومين . .».

- «انتظرى . . ثم إقالتى من رئاسة مجلس القرية . . وتهديد مستقبلى الوظيفى كله . . يا لها من كارثة . .».

قالت وهى تثب من فوق كرسيها كمن لدغتها عقرب:

- «إنك تخرف . .».

- «الحق أقول . . » .

- «أي حق يا مجنون؟؟ لست بدعًا بين أطباء المحافظة، الجميع يكدحون ويتقاضون ثمن عرقهم، رؤساؤك يفهمون هذا، والقاضى الذى سيحاكمك يدركه تمامًا، ثم لماذا لا تذهب إلى المفتش «س»؟؟ ألم يعدك بالحماية حتى النهاية؟؟ ما معنى أن تدفع له، ثم يتركك تقع فى الفخ، لتذهب إليه غدًا ولتأخذ رأيه، وإذا لم ينقذك فلا تتركه، يجب أن تجر رجله فيدان معك وينال جزاءه . . إننى لا أتصور أن تدان وينتصر عليك هؤلاء الفلاحون الأوباش!!! أم لولا وموريس يخرجان من هنا ذليلين مهزومين، ويبقى محمد وزوجه، ويرثان كل شىء؟ مستحيل . . مستحيل لو حدث ذلك لهدمتها فوق رأسها، لأحرقت الوحدة بكل من فيها . . » .

وقطعت حديثها فجأة، ثم اعتصمت بالصمت برهة كانت تفكر خلالها فى اهتمام، وعادت إلى زوجها واقتربت منه وأمسكت بكتفه بأصابع متشنجة، وقالت :

- «كيف استدرجتنى إلى هذا الحديث؟ لقد أيأستنى معك، إنك تعبئ المستقبل الجميل بترهات وأكاذيب وكوارث موهومة . . » .

عيناها الجميلتان الغاضبتان توهنان من مقاومته، وتثيران أحاسيسه الغامضة بعد فترة من الحرمان قضاها وحيدًا أثناء سفرها، وشخصيتها القوية المسيطرة تذيب فى خضمها الهادر قلقه وحزنه وإشفاقه من المستقبل المخيف، وقال ضارعًا :

- «أم لولا . . لماذا لا نصعد إلى حجرة النوم ونستريح من عناء التعب؟؟» .

وأدركت على التو ضعفه كرجل، فقالت :

- «لا يهدأ لى بال قبل أن نسحق كل رأس ترتفع معترضة تصرفاتنا» .

فقال موريس فى انكسار :

- «سنسحقها . . سنسحقها يا عزيزتى . . هيا بنا . . » .

كانا يشعران أنهما وحيدان فى فلاة موحشة، ممتلئة بالرعب والأنياب المتوحشة، غريبان فى عالم يمقتهما وينتظر الفرصة للشماتة والسخرية والانتقام، وسؤال ملح يطن فى رأس موريس ولايستطيع أن يتفوه به أمام زوجه : لماذا البقاء هنا وسط قوم يكرهونه؟؟ أرض الله واسعة وقد يجدان الراحة والنعيم فى مكان آخر، لكن كبرياء أم لولا يأبى، وعجزه الفاضح يشده إليها، وأفاق على صوتها يقول :

- «أشعر بميل جارف إلى البكاء يا موريس . . » .

- «أنت يا أم لولا؟؟» .

- «أنا يا عزيزى . . قلبى يتقطع، لكنى أقاوم فى استماتة . . » .

- «وما الذى يضطرنا لهذا الإصرار يا عزيزتى؟ . . » .

- «لا أدرى . . » .

- «وأنا أيضًا يا أم لولا لا أجد مبررًا لهذا. . . ».

- «لكن كيف نستسلم؟؟».

- «ليس استسلامًا، ولكنه لباقة ومرونة وحسن تصرف. . ».

- «بل هزيمة وعار وجبن. . مستحيل. . مستحيل. . ».

ثم أجهشت بالبكاء. .

وفى اليوم التالى ارتدى موريس ملابسه واختطف حقيبته معولاً على السفر حتى يقابل المفتش «س»، لعله يجد له مخرجًا من الأزمات الضاربة التى تأخذ بخناقه، وتورثه القلق والضيق، وكان هذا السفر استجابة لنصيحة الست أم لولا التى قالت: «لن نسلم لهؤلاء الأعداء حتى آخر طلقة. . ».

ولم يستطع موريس طوال الطريق أن ينفى عن نفسه نوازع الخوف والإشفاق، إنه كمن يسير فى طريق مطموس المعالم معتمداً على دليل يشق به وكانت أم لولا هى الدليل الوحيد، وبرغم معارضات موريس لاتجاهاتها إلا أنه كان يرى أن التراجع فى مثل هذه الحالة لم يكسبه نصراً ذا قيمة بعد أن أصبحت قضيته بين يدى القضاء فى القاهرة، حتى ذهابه إلى المفتش «س» لم يعول عليه تعويلاً كبيراً، ومع ذلك فلا بد أن يقابله لأسباب عدة، منها الاستفادة بخبرته فى مثل هذه المآزق التى لا شك مر عليه عشرات تشابهًا، ومنها أيضًا إيجاد تسوية للمشاكل الطارئة التى تعرضت لها الوحدة بسبب موقف الدكتور محمد، وتصرفات كاميليا، وتبجح

سعيد سلطان، والتحقيقات التى لم يجف مدادها بعد، وأخيراً من أجل إنقاذ التومرجى حامد من الورطة التى انساق إليها، وكيف ينسى موريس حامد وهو ساعده الأيمن وكاتم أسراره، وواسطة الربح بينه وبين زبائنه من المرضى؟؟ إن انتقال حامد إلى مكان آخر يعنى فقدان موريس لرجل من أهم وأقوى رجاله، وأداة من أخطر أدواته؛ لأن حامد ظل طوال هذه المدة يحميه من الدسائس، وينقل إليه أدق الأنباء والشائعات، وينظم معه سياسة المقاومة والوقاية بالنسبة لكل من يناوئه أو يتآمر ضده . .

وعندما التقى موريس بالمفتش «س» فى مكتبه، صافحه الأخير فى ود، وقال:

- «أعرف أن الدكتور محمد لم يزل يشنع عليك . . ».

- «وعليكم أيضًا، إنه لا يفتأ يتهم المنطقة الطبية ورجالها بالتحيز والتستر على المخالفات، وفى الوقت نفسه يرميها بتحدى المخلصين مثله . . ».

- «جميل، ثم ماذا؟؟».

- «ليس هذا هو ما جئت من أجله . . ».

وأشار عليه المفتش بالجلوس ثم قال وهو يبتسم فى ثقة:

- «من آن لآخر تصاب المنطقة الطبية بمجنون مثله، لكن الصفعات تتوالى على قفاه حتى يسلم سلاحه ويمتثل، ويعقل . .

وأنا قرأت التحقيق الذى تم عندكم أمس، الحقيقة أنى تعجبت كيف يخرج من هذا التحقيق كالشعرة من العجين، وأنا أعزو هذا لضعفكم وعقم تفكيركم.. ومع هذا لا تيأس فلدينا من الوسائل ما يجعله يكف عن تجريح رؤسائه وزملائه..».

رفع موريس رأسه فى ألم وهمس:

- «ما جئت لهذا...».

- «أهناك شىء آخر؟».

-« أحالونى للمحكمة التأديبية بمجلس الدولة، والجلسة يوم الثلاثاء المقبل..».

قال المفتش وقد رمى بقلم فى يده ورفع رأسه فى اهتمام بالغ:

- «غير معقول!».

- «بل هذا ما حدث، لست أدرى كيف أفلتت منك..».

- «أنت تعرف يا دكتور موريس أنى كنت «أحفظ» كل الشكاوى الموجهة ضدك وأخذل خصومك، لكن هذه الشكوى سلمت إلى جهات عليا وأحيلت للنيابة الإدارية على الرغم منى..».

- «لكنك وعدتنى بالحماية..».

- «فى حدود إمكانياتى..».

- «والحل؟».

- «أن تذهب فوراً إلى القاهرة لتوكل محامياً مشهوراً. . ».

- «أيحتاج الأمر إلى محامٍ؟».

- «نيتك سليمة. . بالطبع تحتاج لمحام ممن تخصصوا فى المخالفات الإدارية. . ».

- «مصيبة يا بك! وماذا سيكون حكمهم علىّ؟».

قال المفتش فى شىء من الضيق:

- «من البراءة حتى الفصل من العمل. . »، وانتفض موريس كمن لدغته حية، وصرخ:

- «الفصل؟».

- «احتمال بعيد جداً، وهذا يعتمد على أقوالك فى التحقيق السابق، وشهادة الخصوم ويعتمد أيضاً على ذكاء المحامى. . ».

قال موريس وقد تبللت عيناه بالدموع:

- «إننى على استعداد لأن أدفع ألف جنيه وأنجو من هذه الكارثة».

- «لا تقل هذا، ليس بيدنا هنا شىء، وعدالة مجلس الدولة لا يتطرق إليها أدنى شك. . كن متماسكاً وعالج أمرك بلباقة وصبر وشجاعة، وقد لا يتعدى الأمر معاقبتك بالخصم بضعة أيام يقتطعونها من مرتبك. . ».

جفف موريس دمعه وعرقه، وحاول أن يتكلم لكن الكلمات احتبست فى حلقه، ودار رأسه بالأفكار المتلاطمة، كم يساوى هذا القلق وهذا العذاب والفضيحة التى تنتظره؟ إنه فى هذه اللحظات القاسية يتمنى أن يتنازل عن كل رصيده فى البنك، وتمحى هذه القضية من الوجود، ويعيش ناعم البال، ومرتاح الضمير مُؤمّن المستقبل، كان موريس من قبل يؤمن بهذا المفتش كإيمانه بالله، وكان يكره أهالى القرية كرهه للأصنام الحجرية، أما اليوم فالمفتش يبدو أمامه موظفًا عاديًا يتصف بالعجز والحيرة مثله تمامًا، وأصبح الأهالى الذين أعجزوا المفتش، وأقلقوا موريس، عملاقًا أسطوريًا مخيفًا لا تجدى معه مقاومة، وتمنى موريس فى هذه اللحظات أن تواتيه الشجاعة كما واتت كاميليا بالأمس، ويبصق فى وجه المفتش «س» ولكنه هكذا دائمًا لم يستطع أن يقهر ضعفه.

وجاء صوت المفتش هادئًا لا انفعال فيه:

- «أما زميلك محمد فقد هيّج علينا الجميع، وتحدثت إلينا الوزارة بشأنه، والمحافظ طلب منا أن نحل الموضوع بحيث نحقق رغبة الأهالى، والكارثة أن صحيفة صباحية كبرى نشرت شكوى الأهلين، فوضعتنا فى موضع حرج، وهكذا ألغينا انتدابه، ولكن اطمئن.. بعد أسبوعين بالتمام سوف أوجه إليه طعنة نافذة وينتهى الأمر، نقلك حتى الآن مستحيل لرئاستك المجلس القرية، وسوف تخلو إحدى الوحدات الصحية ولن يكون هناك طبيب واحد يمكن نقله غيره، وبهذا يستسلم للأمر، وتسكت الوزارة، ويكف

المحافظ عن أوامره، ثم إن الأهالى أنفسهم سيملون كثرة الشكاوى والبرقيات ويستسلمون، وباسم المصلحة العامة نستطيع أن نرغم الجميع على السكوت والانصياع للأوامر..».

لم يعد موريس يفكر كثيراً فى أمر الدكتور محمد، كل ما أصبح يشغل جل تفكيره مأساته هو، والقضية المعروضة أمام مجلس الدولة، والصورة المخيفة التى أشعره بها سيادة المفتش.

وخرج موريس من المكتب تاركًا زجاجة المشروب المثلج دون أن يمسها، ومشى فى الطريق وهبط الدرج كالأعمى، لكن ضحكات المارة وصخبهم يطرق أذنيه فى تبجح وصفاقة، وتمتم «هؤلاء الحمقى لماذا يضحكون؟ ألا يحسون بمأساتى؟».

كان قلبه يدق من الخوف كقلب صغيرته «لولا» ونظرات هائمة لا تعلق بشىء مما أمامه أو حوله، والعالم بدا فى تصوره وكأنه قمقم ضيق صغير ألقوه فيه مكتوفًا دون طعام أو شراب أو هواء وشعر أن أنفاسه تختنق، فسالت دموعه من جديد..

وبلغ الوحدة فاتخذ سمته تجاه مسكنه مباشرة، ورأته كاميليا والبنات وهو يمضى مطأطئ الرأس، فقالت ساخرة:

- «انظرن.. كأنه يسير فى مأتم.. انتهى عهد أم لولا وموريس وجاء عهد الدكتور محمد وزوجه.. وهكذا يا بنات الأيام دول.. لست أدرى لماذا لا تتعظن يا عانسات السجن!».

ودخل موريس بيته، كانت طفلته الصغيرة «لولا» تمسك بدمية جميلة وتهدهدها ممثلة دور الأم ومن آن لآخر تضمها إلى صدرها وتقلبها وتخاطبها بعبارات تدليل رقيقة غير واضحة المقاطع، وبقيت «لولا» عاكفة على دميتها، منشغلة بها عن كل ما فى الدنيا، وأقبلت «أم لولا» قائلة:

- «خيراً.. أراك متكدراً.. ماذا قال لك المفتش؟».

فقال موريس دون أن ينظر إلى وجهها:

- «زادنى كربًا على كرب..».

- « الخائن؟ كيف؟».

- «أبدى عجزه التام، لقد خرج الأمر من يده..».

- «ألم تعرض عليه مالاً؟».

- «عرضت..».

- «فرفض طبعًا.. لعله طمع فى المزيد..».

- «كلا يا عزيزتى.. لا يستطيع أحد أن يتدخل فى عمل القضاء، مجلس الدولة أعلى سلطة قضائية..».

فقالت وهى تصر على أسنانها:

- «هذا المأفون غرر بك..».

- «لا أدرى..».

- «قاسمك زرقك ثم تخلى عنك . . اسمع . . يجب أن يحتمل التبعة معك . . لماذا لا توقفه موقف الاتهام . . » .

- «هراء . . » .

- «إنك ضعيف . . عليك وعلى أعدائك . . » .

- «لو اتسعت الدائرة لنجا هو ، ولقذفوا بى إلى السجن . . » .

- والعمل؟» .

- «أن نتحمل مصيرنا بشجاعة . . ربنا يستر . . » .

ودارت بها الأرض ، كان داخلها يفور كبركان ، وعيناها ممتلئتان بالدموع ، وترنحت ، لكنه أسرع وقادها إلى حجرة النوم .

●●●

الفصل السابع والعشرون

هدأت العاصفة بعد أيام، وألغى انتداب الدكتور محمد، وخفت ثورة الأهالي ونقمتهم على موريس، وتحولت الحزازات والاحقاد بين الأفراد العاملين فى حقل العلاج بالمستشفى، لم يكن موريس بقادر على أن ينسى ما اجترأت عليه كاميليا، وليس فى استطاعته أن يمسح من ذاكرته تصرفات سعيد سلطان ومجاهرته له بالعداء، وانضمامه علانية لمعسكر الدكتور محمد والأهالى، لكنه - موريس - آثر السكوت، والتفرغ لقضيته التى باتت شغله الشاغل، لكن «أم لولا» أصرت على أن يوالى موريس الحاجة حتى نقل الدكتور محمد على وجه السرعة؛ لأن هذا لو حدث فسوف يرد لها اعتبارها وينسيها الجرح النازف الذى أحدثته القضية، ويجعلها أمام الجميع قوية قادرة، تستطيع أن تنتقم لكبريائها، وتؤدب الخارجين على إرادتها وإرادة زوجها، لكن حادثًا صغيرًا وقع فجأة فكان له دوى - القنبلة اليدوية الشديدة الانفجار، لقد جاءت للوحدة إشارة بنقل التومرجى حامد - إلى جهة أخرى وخطاب يحوى الجزاء الموقع عليه وهو خصم أربعة أيام من مرتبه،

ورأى موريس أن ما حدث لحامد يعتبر هزيمة له، انتقاصًا من سلطانه وكرامته، لكنه لم يكن قادرًا على أن يغير مجريات الأمور فى تلك الأيام الحرجة، لهذا استدعى حامد وأبلغه الأمر فى رفق وأسف، فجن جنون حامد، وصرخ:

- «كيف يحدث ذلك؟ أنا لم أفعل إلا ما أمرتنى به «أم لولا» هذا ظلم.. أترك بلدى وبيتى، وآخذ أسرتى إلى مكان آخر أعيش فيه غريبًا، وأترك أعدائى هنا يسخرون منى وينعمون بالبقاء والاستقرار، اعمل معروفًا يا دكتور موريس وأنقذنى، أنا خادمك طول عمرى، افعل المستحيل من أجلى..».

قال موريس فى يأس:

- «لا مفر..».

- «إنه اضطهاد..».

- «تستطيع أن تنفذ أوامر المنطقة، وبعدها نبحث عن حل، أنت ترى أن البقاء هنا لم يصبح ذا فائدة بعد أن تصدى لنا الدكتور محمد فخسرنا كل شىء، تصور أن إيرادى الشهرى هذه المرة لا يزيد على جنيه واحد، وأنت لم تكسب سوى عشرة قروش.. أؤكد لك أن مكانك الجديد أجدى عليك وأنفع..».

قال حامد وهو يحرك يديه فى عصبية:

- «ألا تشعر بحالى؟ نار فى قلبى يا دكتور، سوف يشيعنى الأهالى باللعنات، وستقتلنى شماتتهم.. أنا على استعداد لأن

أدفع ما يطلبونه فى المنطقة ويلغى نقلى . . فكر معى . . مستحيل أن أضحك الناس علىّ . . » .

قال موريس وهو يستعد لمغادرة المكتب :

- «ليس أمامنا حل الآن ، عندما تنجلى الأمور وينقل محمد إلى أية داهية ، وننجو من كارثة مجلس الدولة ، فسوف أعيدك إلى هنا ببساطة . . تأكد من هذا . . » .

- «وأنت؟ أتتركنى هكذا ببساطة . . » .

- «وما حيلتى . . ؟» .

قال حامد وهو يلوح بيده كالمجنون :

- «سأرتكب جريمة . . » .

فحملق فيه موريس دهشًا ، وغمغم :

- «هل جننت؟» .

- «السجن أهون . . » .

- «ماذا تقول؟» .

- «نقلى معناه أن أقتل الدكتور محمد . . » .

- «ما ذنبه؟» .

- «سبب كل المصائب . . » .

قال موريس ساخرًا :

- «لا تستطيع أن تقتل فرخة . . » .

وتركه موريس ومضى ، ووقف حامد مذهولاً لبضع دقائق ، نظر إلى المكتب فى حسرة وشمل الغرفة وأثاثها بنظرة حزينة ، وخرج إلى الممشى فى خطوات متعثرة ، كل شىء على حاله ، المبنى الكبير ، والدرج الصاعد إلى أعلى ، والزرع الأخضر الممتد فى فناء الوحدة المجمعة ، والعمال كما هم لا يزعجهم شىء ، وسعيد سلطان يجرى هنا وهناك وينشر خبر نقل حامد فى كل مكان ، وضحكات مكتومة ساخرة تتسلل إلى أذنيه المحمرتين ، وموريس يبدو فى آخر الممشى قرب مسكنه ككتلة من الثلج تذوب رويداً رويداً . كان موريس وزوجه ملكًا وملكة ، وكان حامد هو الوزير الأول ، بيده الأمر والنهى ، التومرجى المدلل ، ممسكًا بمفاتيح قلب موريس ومسكنه ، أى مجد ضاع؟ لم يكن يحسب أن أى إنسان يقدر على قهره أو قهر موريس ، لكنه الآن فقط أدرك أنه مجرد تومرجى . . مجرد أداة بَطُلَ سحرها ، ولم يعد لها فائدة تخلى عنه الجميع حتى موريس ، خسر الناس جميعًا ليكسب موريس . . ليعود كل يوم إلى بيته وفى جيبه قروش لها رنين حلو ، وها هو اليوم يعود بلا رنين ، وكلمات قاسية تطن فى أذنيه «فى ستين داهية . . إلى جهنم وبئس المركوب . . عقبال الباقى . . اكسروا خلفه قلة حتى لا يعود . . لعنة الله عليه . . كلب وخفى . . ربك يمهل ولا يهمل . . » ، هذه هى كلمات الوداع التعس التى تلاحقه فى وقاحه وهو أجبن من أن يرفع رأسه ويرد على الساخرين

والشامتين، ورأى الدكتور محمد قادمًا من بعيد فارتبك وشحب وجهه، وحاول أن ينتحى جانبًا أو يخفى وجهه بعيدًا عن طريقه، لا يصح أن يراه محمد على هذه الصورة، بالأمس كان يخاطب محمد فى صفاقة، ويغلظ فى القول، ويساومه ويحذره من التمادى فى خطته البلهاء ويحاول أن يدخل فى روعه أن موريس قوى لا يهزم، كاسح لا يصح أن يعترض أحد طريقه، لكنه اليوم لا شيء.. وحامد منقول.. والأوضاع تغيرت.. والبقاء لله.. ورآه محمد فدعاه إليه، فهرول إليه حامد فى خجل والدموع فى عينيه وقال محمد فى رفق وإشفاق:

- «ما بك؟».

- «نقلونى.. نقلونى يا بك بسببك..».

وبان الأسى فى عينى محمد، وحوقل واستغفر ثم قال:

- «وما ذنبى يا أخى؟».

- «الذنب ذنبى أنا.. كانت على بصرى غشاوة.. لقد ظلمتك، انقلبت الشكوى الموجهة ضدك وبالاً علىّ وعلى أولادى.. ماذا أعمل؟ أم لولا هى السبب، ورطتنى، لينتقم الله منها.. ارحمنى يا بك! أليس هناك طريق للخلاص؟».

ولم يخفَ على محمد ما يقاسيه التومرجى من آلام، لقد مر بالتجربة نفسها، وأدرك ما يجلبه النقل من قلق وعذاب، وذاق مرارة التشتيت وعدم الاستقرار، ولم يعد حامد فى نظره هو

التومرجي المنحرف الحاقد المتآمر، بل أصبح فى نظره مجرد إنسان تعس أوقعه سوء الطالع فى مأزق حرج.

- «سامحني يا بك.. ظلمتك كثيراً..».

- «سرعان ما أنسى الإساءة- إن ما يؤلمنى حقيقة هو وضعك السيئ..».

- «كيف أتصرف؟».

- «اضرع إلى الله..».

- «لكنى يجب أن أنفذ النقل فوراً..».

- «وغداً تعود.. وحياتنا بلا خلود..».

عاد حامد ليسير وحده فى الطريق، رائحة الزهور تنفذ إلى خياشيمه فتعافها، وأغانى العمال المنهمكين فى بناء الكوبرى الجديد تتهادى إلى أذنيه، ليتصام عنها فى إصرار، ورواد المقهى القريب مندمجين فى لعب الطاولة والشطرنج وارتشاف المشروبات ولا يلتفت إليه أحد، وعشرات من الأوز والبط تسبح فى المجرى المجاور وتلعب وتضرب بأجنحتها ومناقيرها تحت شجرة صفصاف كبيرة تتدلى أغصانها الطويلة الخضراء حتى تلامس الماء، وفتى صغير يجلس إلى جوار جاموسته، ويحاول النفخ فى الناى، فتخرج منه ألحان بدائية لكن لها صدى حزيناً فى قلب حامد، ودخان ينبعث من بعض البيوت وأطفال يجرون فرحين، وحركة الحياة دائبة نشطة،

وحامد وحده كالمنبوذ، وغداً يرحل عن هذه الديار، تلك التى تبدو جميلة وادعة حبيبة إلى نفسه لأول مرة فى حياته . .

ودخل بيته مكفهر الوجه، سيترك هذا البيت الجميل الذى دفع فيه الكثير، ويترك حجراته الواسعة النظيفة، ويودع هذه البقعة التى ارتبط بها حتى أصبحت جزءاً من كيانه . .

واستقبلته زوجه فى ذعر، كانت تحس بالكارثة قبل وقوعها، وفكرت عشرات المرات فيها، وقرأت على وجهه سطور المأساة وصاحت مشفقة: ماذا جرى؟

- «انتهى الأمر . .».

- «ماذا تقول؟؟».

- «أعدى العدة للرحيل . .».

فانفجرت صارخة بأعلى صوتها وكأنها فقدت عزيزاً لديها، ولم تعد ساقا حامد بقادرتين على أن تحملاه فاتكأ على حائط مجاور، بينما تدفق الجيران فى ذعر على صراخ زوجته التى وجدوها تقول:

- «يا خراب بيتى . . منهم لله أولاد الحرام . .».

- «آه . . أولاد الحرام . .».

وتمتم حامد وهو فى شبه غيبوبة:

- «إنا لله وإنا إليه راجعون».

الفصل الثامن والعشرون

مرت على كاميليا عدة أيام كانت خلالها غريبة التصرفات بصورة تدعو للتفكير، لكأنها ارتضت الصمت مذهبًا فأغرقت فيه، ولم تعد تفتح فمها إلا فيما ندر، كانت تجيب على ما يوجه إليها من أسئلة بلا أو نعم، وقاطعت المداعبات المألوفة التى كانت تحدث بينها وبين زميلاتها وزملائها فى العمل، ولم يخفَ على هدى وزكية أن كاميليا تقضى شطرًا طويلاً من الليل تفكر، سواء أكانت مفتوحة العينين شاردة النظرات أو مغمضة الجفون دون نوم، ولاحظ أنها تسرع إلى سريرها بعد انتهاء العمل اليومى وتقبع فيه صامتة لا تفاتح أحدًا الحديث، كانت كاميليا تستعيد ماضيها وتفاصيل تصرفاتها، فتنقبض أسارير وجهها أو تنفجر فى نشيج طويل، لكنها تكظم ألمها وتتماسك حتى تمر الأزمة، وكثيرًا ما تساءلت بينها وبين نفسها طوال هذه الفترة: أيمكن أن يبدأ الإنسان حياته من جديد؟؟ فى استطاعته أن يمحو السطور الكئيبة الدامية من سجل عمره؟ كيف تنسى؟ وكيف تبدأ مرة أخرى؟؟ وكيف تغير

نظرة الناس إليها؟ أسئلة حائرة تملأ نفسها بالرهبة أحيانًا كثيرة، وتكشف لها عن إشعاعات الأمل الحلو فى النادر من الأوقات، وخطر على بالها ذات مرة، كأن الموت حل سريع حاسم لكل مشاكل الحياة، ونهاية فاصلة للمآسى والقلق الذى تعانيه لكنها سرعان ما كانت تهرب من هذا الخاطر الأسود، فهى برغم كل شىء تقدس الحياة، وتحبها بكل ذرة فى كيانها، تعشقها عشقًا وتريد أن تعيشها بكل نقائضها، بأفراحها وأحزانها، إنها خلقت لتعيش وتقاسى، لا لتنتحر وتترك وراءها العالم الزاهى الكبير، والمليء بالمباهج والمسرات، لم تنسَ خلال هذه الفترة سعيد سلطان، كان هو الإنسان الوحيد الذى يرف خياله فى رأسها والمحور الذى تدور حوله أفكارها، طالما ماطلته، وتهربت من طريقه، وأشعلت نار حبه وتركته يحترق، فكان يحاول أن يلقى عليها استفسارات واضحة، ويطلب منها إجابات محددة، لكنها كانت تراوغ عن قصد.. لم تكن آنذاك فى حالة تسمح لها بأن تحدد رأيها، وتلقى كلمتها فى صراحة، وأنه لم يزل يقف منها موقف المنتظر تحت شرفة حبيبته برغم البرد والمطر والعواصف، وهى واقفة هناك بين السماء والأرض، ليس فى استطاعته أن تقول له اذهب أو اصعد إلىّ، موقف قلق يكوى بعذابه كليهما.. لكن إلى متى؟؟

لقد آن لها أن تقر وتستريح، لقد أصبحت فى حاجة ماسة إلى الحسم والحزم والاستقرار، ورأت بعين الخيال بيتًا صغيرًا أنيقًا، وزوجًا وزوجة ينعمان معًا فى ظل الحب والسعادة، وتمادى بها

الوهم فرأت أطفالاً صغاراً يمرحون . . أطفالها . . وأطفال سعيد . . يملئون أفق البيت بالشغب والصخب ويشغلانهما عن متعتهما الشخصية ويستنفدون جزءًا كبيرًا من وقتهما، وتصبح كاميليا ست بيت وأم أطفال، وزوجة رجل يحبها وتحبه . . أحلام وردية رائعة تستبد برأسها الساعات الطوال، وتنسيها كل ما حولها وتملأ يقظتها ومنامها . . لكن هيهات إن هنالك عقبة كبرى من العسير تخطيها . . عقبة . . يا لها من عقبة!! ليت الأيام ترجع الوراء، وليتها تملك زمام إرادتها، وتتصرف كما يحلو لها، إذن لما وقعت فى الخطأ مرة أخرى، لكن ما فائدة كل هذا الصمت والعذاب والذكريات المريرة؟؟ إن هناك أملاً واحدًا يشرق أمامها . . الحب . . إنه يصفح عن الكثير، هو الأعجوبة الوحيدة التى تستطيع أن تبدأها من جديد، وتمسح على كل آلامها وأشجانها، وتشفى جراحها الجسدية والنفسية، لو كان سعيد يحبها حقيقة فسوف تدفن أساها وأحزانها إلى النهاية، وصممت كاميليا آخر الأمر على أن تكتب إلى سعيد؛ لأنها لا تستطيع مجابهته، ستكتب إليه وتنتظر لأنه هو أملها الأخير، فإما بلغت مأربها وتحققت سعادتها، وإما انتهى كل شىء ورضيت بالقضاء المحتوم . . واستسلمت لأحزانها وشقوقها . . وتناولت كاميليا قلمًا وورقة، وكتبت:

«عزيزى سعيد . .

قد يدهشك أنى أكتب إليك وحق لك ذلك، فقد كنت أقول لك

ما أريده دائمًا فى مواجهتك لم أكن أخاف أى إنسان هنا، أسخر حين أريد السخرية، وأهزل حسبما يحلو لى، وأسافر إذا أردت السفر، كنت متحررة من الخوف إن صح هذا التعبير، لكن تبين لى بعد حين أن شجاعتى وجرأتى ستار لجبن فظيع وهروب من مواجهة أحزانى النفسية وذاتى المتمردة الحائرة. .

وقد فكرت قبل أن أبدأ الكتابة، أننى أضع بين يديك مستقبلى، وفى إمكانك أن تحمى هذا المستقبل وتحوطه بقلبك وروحك، وفى إمكانك أيضًا أن تفرط فيه، وتطعنه طعنات قاتلة. . فتقضى عليه وعلىّ، لكن إحساسًا عميقًا يؤكد لى أنك رجل. . إنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، وأنا أنصاع دائمًا لإحساسى، لم ينتصر عقلى على عاطفتى إلا نادرًا. . أقول أضع مصيرى بين يديك لأنك إنسان. . ولسبب آخر طالما انتظرته وتعذيب الليالى منتظرًا منى أن أعبر عنه. . وهو أننى أحبك. . أحبك هذه المرة بعواطفى وعقلى. . إن دموعى الآن تجرى على خدى لأن هذا حدث ضخم فى حياتى، إذ أشعر لأول مرة أنى أقول كلمة «أحبك» بكل صدق وسعادة، بعد أن كذبت على نفسى. . وعلى الناس طويلاً. . أحبك أنت يا من كنت ترانى أتعالى عليك فتصبر، وأطارد الدكتور محمد فتغمض عينيك، وأرحل إلى المدينة فى زيارات مريبة، فتكذب على نفسك، وتقتنع بأى تبرير أقدمه لك مهما كان تافهًا، ويشنعون علىّ فتقابلهم بالبرودة والسخط، فينصرفون مغتاظين منهزمين. . أجل. . أحببت احتراقك من

أجلى، وإصرارك على حبى، وانتظارك لشعورك النبيل العارم نحــوى. . ولهـــذا أتقــدم اليـــوم لأضع بين يديك قلبى. . ومستقبلى. .

إلى هذا الحد تجرى الأمور طبيعية معقولة. . فتاة تحب من يحبها وتعتذر له عن تقصيرها وتحمد له أن احتقر خصومها ولم يبالِ بالشائعات التى يطلقونها حولها. .

لكن ماذا يكون موقفك حين تعلم أننى خاطئة؟؟

أمن المعقول أن تقبلنى بعد أن أعترف لك أنى ذات يوم تعس حزين أسلمت نفسى لذئب سلبنى أعز ما تعتز به الفتاة؟

الأمر هذه المرة ليس مجرد شائعات، ولكنه حقيقة مرة أليمة، بالنسبة لى ولك. . لقد استبشعت الأمر عندما وقعت الكارثة لكنى حاولت الهروب من مأساتى بالعبث. . لم أستطع أن أقف. . أقف أمامها طويلاً وأفكر. . لكى تصغر الخطيئة الكبرى يجب أن تتكرر الخطايا. . هكذا كان منطقى آنذاك. . وانتقلت بهذا إلى مرحلة ضبابية. . مرحلة اللامبالاة. . فرأيت أن أطارد هذا ثم ألفظه، وأحب ذاك حتى أمله، وأجد لذة غريبة فى إيقاع «الطيبين» فى شراكى. ولكن الدكتور محمد صدمنى. . كان بداية عجيبة لحدث مهم فى حياتى. . كان غامضًا عندما جاء، لكن سرعان ما فهمناه وفهمناه، ارتطم بالعقبات فقابلها فى وضوح وشجاعة ونبل. . لم يحاول أن يضرب بيده، بل قاوم بنظافة منطقه المستقيم، كان

باستطاعته أن يحرق أعداءه، لكنه ابتسم ولم يغلق فى وجههم الطريق للعودة إلى الجوانب الطيبة فى نفوسهم . . وأنا حاولت إغراءه . . كانت حربى ضده من نوع خبيث . . لكنها انتهت نهاية غريبة . . انتهت بحبى لهذا الرجل . . حبًا أخويًا ساميًا مثل حبك له تمامًا . . وبدت أسرته - وهو على رأسها فى نظرى - أسرة مثالية ذات أريج رائع يضوى بالحب والسلام والجلال . . عند ذاك لمت نفسى وأنبتها، واستعرضت ما فات من ماض، وحلمت بالصفاء والطهر والحياة الكريمة، وبأسرة كأسرته، وأطفال كأطفاله، ووضوح كوضوحه، وإخلاص يشابه إخلاصه . .

عزيزى سعيد . .

أقسم أنى صادقة فى كل ما أقول..

أقسم أننى أحبك كأعظم ما يكون الحب..

لكن إليك نفسى عارية من كل زيف . . إليك أنا بقوتى وضعفى، بحسناتى وخطاياى . . فهل تقبلنى؟؟

إن وافقت فهو ميلاد جديد لحياتى وقلبى . .

وإن رفضت فيا تعاستى وشقائى الدائم، ولى رجاء واحد عند ذاك، وهو أن تحرق هذا الخطاب، وتطبق فمك عن مأساتى التى أعترف لك بها فى لحظة من لحظات أيامى الحرجة . . ولست أدرى أهى لحظة ضعف يائس، أم انتصار على جوانب الانحراف والانهيار النفسى فى أعماقى . .

وسأظل ساهرة معذبة حتى يأتينى ردك . . والسلام . . » .

وقرأ سعيد سلطان الخطاب ، اندمج فى سطوره اندماجًا أنساه كل ما حوله ، وعندما التقى بصره باعترافها القاسى المذهل ضاعت من رأسه معالم الأشياء والوجود ، لم يعد هناك شىء محدد مقنع ، تلاقت الأضداد والأشباه ، واختلط الجمال بالقبح ، ولم يعد هناك نور أو ظلام ، بل يرى من خلال دموعه دنيا من ضباب كثيف خانق ، وأطبقت أصابعه المتشنجة على الخطاب ، وكوره فى يده مهتاجًا . . وامتدت يده الأخرى لتشد شعر رأسه محاولة اقتلاعه . . ثم لهث أنفاسه . . وانفجر باكيًا . . يشهق كثكلى فقدت وحيدها نهائيًا .

● ● ●

الفصل التاسع والعشرون

اعتمرت القلوب بالنشوة، وتألقت البسمات على الشفاه، فقد شعر الأهالى أن نضالهم لم يذهب سدى، وكان لانتصار إرادتهم الشعبية معنى أعمق أثرًا من أى شىء آخر، والأيام عادت أحلى ما تكون، وامتلأت ردهات المستشفى بالرضى، وصفا الجو حتى إن موريس نفسه لم يعد يثير المشاكل، أو يتحدى رغبات الأهلين، وحاول جاهدًا أن يقلد الدكتور محمد فى أسلوبه وطريقة تعامله وخاصة بعد أن سافر حامد ولم يعد يسمع عنه شيئًا، ففقد بذلك ذراعه الأيمن، وتابعه الأمين وحلقة الاتصال بينه وبين المواطنين الراغبين فى العناية «الخاصة» ودفع الثمن، وفوجئ محمد ذات يوم بخطاب دون غلاف وهو يزاول عمله بالعيادة فى الصباح، فكر أن يستريح قليلاً أثناء عمله الشاق، ففض الخطاب، وقرأه بسرعة، فأشرقت ملامحه بالرضا، وخفق قلبه فى سعادة، وأعاد قراءته مرة أخرى، وكأنه يرتل صلاة حلوة شجية، كانت كاميليا تجلس أمامه صامتة، توزع العلاج على المرضى دون أن تفكر فى معابثته أو

استثارته، ووقع بصرها عليه أثناء قراءته للخطاب، فلفت نظرها تعبيرات وجهه التى تنطق بالسعادة، فدفعها حب الاستطلاع لأن تسأله عما يحويه الخطاب، لكنها خجلت أن تتدخل فيما لا يعنيها، فآثرت الصمت ولم تخرج عن مألوف سلوكها الذى انتهجته فى الآونة الأخيرة، وكم كانت دهشتها عندما رأته يقول فى فرحة طفلية ساذجة:

- «انظرى يا كاميليا.. إن أروع ما فى الحياة أن يقدم الإنسان الخير للآخرين، وليس أقل روعة أن يشعر الإنسان أن هناك من يقدر هذا المجهود ويدعمه ويحمى صاحبه وخاصة إذا كان وزيراً من الوزراء..».

ولم يخفَ على كاميليا أن وراء هذه الكلمات بشرى طيبة أدخلت السرور على قلبه، فقالت:

- «ترقية؟».

- «كلا يا عزيزتى.. أعظم من الترقية..».

- «إنك تشوقنى..».

- «إذن فاسمعى هذا الخطاب..».

- «السيد الدكتور محمد صادق طبيب الوحدة المجمعة بقرية..».

بعد التحية..

كلفنى السيد وزير الصحة أن أحمل إلى سيادتكم شكره العظيم وتقديره الفائق لخدمتكم الجليلة التى تقدمونها فى صدق وإخلاص للمواطنين من أهالى قريتكم والقرى المجاورة. . والسيد الوزير يشد على أيديكم بحماسة، ويعتبر نضالكم المثالى قدوة لغيركم من الأطباء، وبشائر خير لهذا المجتمع الجديد الذى نعمل جادين على أن ترفرف عليه رايات السعادة والرفاهية. والله يوفقكم. .

(إمضاء)

«مدير الشئون العامة بوزارة الصحة»

وأنهى محمد قراءة الخطاب، ثم رفع إليها وجهًا يفيض بالانفعال والحب، وغمغم: «كنت واثقًا أن صوت الحق سيصل إلى أسماعهم. . ولم يخالجنى شك قط فى أن التصرفات المنحرفة مهما كان مصدرها لن تجد قبولاً لديهم. .».

ودهمها انفعال صادق وهى تستمع إلى نبراته العميقة المؤثرة فتناسب موقف الانطواء والصمت، وهمست:

- «لو كان هناك عدالة حقيقية لكنت الآن مكان المفتش «س» وكان هو تومرجى فى وحدة ريفية. .».

فقال محمد مداعبًا:

- «لكنه يحمل البكالوريس، ونال الدرجة الثانية. . أما أنا فمجرد طبيب صغير فى الدرجة السادسة، والمعايير الخلقية يا

عزيزتى تحتل مكانًا ثانويًا فى الحكم على تقييم الموظفين، ومصلحة العمل تضع الكفاءة العلمية والأقدمية فى المقام الأول.. لكن ثقتى بأن الانهيار الخلقى قد يهبط من الدرجة الأولى بل من القمة إلى الحضيض.. إلى زنزانة حقيرة وضياع دائم، وقد تصعد الأخلاق النبيلة بصاحبها- ولو ببطء إلى المكان اللائق به.. الأخلاق شرف وانتصار وطاعة لله على أية حال..».

كانت كاميليا تشرب كلماته الرقراقة على ظمأ، وكانت تتسرب خلال روحها وقلبها فتشعر بالرى والانتعاش، إنها تحيى فيها ميت الأمل وتصلح ما أصاب شبابها من صدع وضياع، وشعرت كاميليا برغبة جارفة فى أن تلقى بين يديه بأحزانها وهمومها، وأن تجلس عند قدميه وتعترف بخطاياها كما يفعل بعض المذنبين فى المحاريب المقدسة حين يهمسون باعترافاتهم مبللة بالدموع.

لكن كلماته جاءتها قبل أن تحسم الأمر:

- «كنت متعبًا.. لكن أشعر الآن بطاقات هائلة.. أستطيع أن أواصل العمل يومين كاملين دون ملل.. إن روحى فى القمة من السعادة..».

فقالت كاميليا وهى تحاول أن تشاركه فرحه:

- «كلمة من وزير محت آلامك..».

- «بالطبع هذا يسعدنى، لكن الأمر ليس كما تتصورين، إن رضاء الله عنى أثمن من كل شىء، وثقة هؤلاء الفلاحين بى، وحسن تقبلهم لى يجعلانى أسعد أهل الأرض قاطبة، وحين يجتمع هذا كله فى صعيد واحد أشعر أنه أكثر مما أستحق.. أنا - مهما كان لم أفعل شيئًا معجزاً.. مجرد رجل يؤدى واجبه..».

وأتت كاميليا فكرة ماكرة، لم تدر كيف هبطت عليها، فقامت واختطفت الخطاب، وخرجت إلى الأهالى، فوجدت جمهرة من أنصاف المتعلمين وبعض المثقفين وموظفى الوحدة، فهرولت إليهم وقدمت لهم الخطاب، وفى دقائق كان نبأ الخطاب قد انتشر، وتخاطفته الأيدى، كانوا يترنمون بعباراته فى فخر وانبهار، وفى دقائق احتشد العشرات أمام باب العيادة، وعشرات التهانى تنصب فى أذنى الدكتور محمد، وأيد كثيرة تمتد إليه مصافحة «ألف مبروك يا دكتور.. جاء الحق وزهق الباطل.. يحيا العدل.. ربنا معاك ربنا يزيدك من نعيمه ويعلى مراتبك.. تعيش لنا ألف سنة..».

واقترح أحدهم أن يعاد كتابة الخطاب بخط كبير على مساحة كافية من الورق، وأن يصنع له برواز أنيق ويوضع فى أبرز مكان بالوحدة المجمعة، واقترح آخر أن يرسلوا برقية شكر إلى وزير الصحة، وقال أحد المشايخ بأن تقام حفلة كبرى للذاكرين والدراويش، بتلى فيها الأذكار والأوراد والصمدية ألف مرة،

وكان الدكتور موريس فى هذه الأثناء يجلس فى حجرة المكتب يسدد بعض الخانات الناقصة فى دفاتر مكتب الصحة، وجذبته الضجة المنبعثة من الخارج، وهمّ بأن يستدعى التومرجى حامد ليحمل إليه أدق الأنباء والتحركات، لكن حامد لم يعد هنا، وشعر بالفراغ الكبير الذى تركه تابعه، فآثر أن يخرج ليستقصى الخبر بنفسه، غير أنه توقف عندما دق جرس التليفون، ثم امتدت يده ورفع السماعة إلى أذنه، وأخذ يستجمع، فسحب ورقة وأخذ يدون الإشارة الواردة، وارتعشت يده وهى تكتب، وارتسم الخوف على ملامحه . . وأخيراً وضع السماعة، وأخذ يحملق فى السطور التى خطتها، وتمتم وهو يطويها، ويضعها فى جيبه «عاصفة جديدة قد تقتلع كل ما بقى لنا من أمن واستقرار . . لكنها سوف تسعد أم لولا . . يا لها من سعادة تافهة . . لن أسلمها للدكتور محمد بنفسى . . بل سأذهب إلى البيت وأطلع عليها أم لولا أولاً، ثم أرسلها له مع إحدى التومرجيات . .».

وتلك تضايق الضجة التى لم تزل منبعثة من الخارج، فعالج الباب حتى فتحه، وعندما وقعت أبصارهم على وجهه لاذوا بصمت مؤقت، ومال موريس على أحد التومرجية الذى اقترب منه، وقال:

- «ما هذه الضجة؟؟».

- «خطاب من وزير الصحة . .» .

- «ماذا . . ؟؟» .

- «يقولون إنه خطاب شكر للدكتور محمد . .» .

- «آه . . مبروك . .» .

لو لم تأتِ الإشارة منذ لحظات لكان موريس فى حالة أخرى غير التى هو فيها الآن ، ومع ذلك فهو لم يستطع أن يتجاهل الكدر الذى خالط نفسه ، محمد يأتى له خطاب شكر من الوزير ، وموريس مسافر غداً لحضور آخر جلسة بمجلس الدولة . . لسماع الحكم : أية تناقضات ومضايقات تغص بها هذه الحياة المزعجة ، وأى نحس هبط عليه منذ أن قدم الدكتور محمد صادق إلى هذا المكان؟؟ لكن موريس غالب ضيقه ، وابتسم ابتسامة شاحبة ميتة ، وصمم أن يسارع إلى البيت ثم يبعث بالإشارة الواردة لمحمد على الفور وسط هذه الضجة ، ليصفع الشامتين فيه ، والمنتصرين لمحمد وخطته صفعة قوية تزلزل كيانهم .

وبعد دقائق شقت الطريق إحدى التومرجيات وصاحت بأعلى صوتها :

- «كفى يا بهائم!!! فرحة ما تمت . . انظروا . .» .

ومدت إليهم صورة من الإشارة الورادة :

- «تقرر نقل الدكتور محمد صادق إلى الوحدة الصحية ببلدة «. . .» نظرًا لخلوها من الأطباء، على أن يتم النقل فورًا، ونحمل الطبيب المذكور كل مسئولية فى حالة تخلفه عن التنفيذ. . إمضاء. . مدير المنطقة الطبية. .».

وساد على الواقفين كآبة عميقة، ولم تعد تسمع همسة واحدة وجمدوا فى أماكنهم نهبًا لانفعالات متضاربة، وسدد الدكتور محمد نظراته صوب باب العيادة، ومضت التومرجية إليه مطأطئة رأسها فى حزن، ثم قدمت له الإشارة بيد مرتجفة، ونشرها أمامه واقتربت كاميليا برأسها لتقرأ، وما إن انتهى حتى كان الضيق قد أخذ منه كل مأخذ، وعشرات العيون ترمقه، والصمت يغلف المكان وصاح رجل بالخارج:

- «أيهما نصدق. . خطاب الشكر أم إشارة النقل؟؟».

وقال محمد فى صوت جريح:

- «كلامك صحيح. . كلاهما ذو دلالة. . خطاب الشكر كلمة حق ووسام شرف، وإشارة النقل انتقام رخيص، وحقد أسود. .».

وقال حاج ذو لحية بيضاء وهو يلوح بيده:

- «والحل؟؟؟».

وانبعث صوت سعيد سلطان من خلفه قائلاً:

- «أن تنزعوا الثقة من الرجل الذى استغلكم، وأثار الفتن، وحارب رغبتكم، ، أقيلوا موريس، وستكون حجتكم ماضيه الأسود، والقضية التى سيحكم فيها القضاء غدًا . . ».

ووثب الدكتور محمد من فوق كرسيه:

- «إنى أرفض هذا المنطق الانتقامى . . إن تعسف المنطقة لا يصح أن يكون ردكم عليه إقالة موريس . . إنه يؤدى واجبه بينكم الآن مثلى تمامًا . . ».

وانطلق الرجل الملتحى يقول:

- «الرأى رأينا يا دكتور . . قد ينقلونك وقد تبقى . . ونحن لن نجامل أو نتسامح مع من يظلمنا بعد اليوم . . ».

وساد الصمت من جديد، والتفت الدكتور محمد إلى كاميليا قائلاً:

- «لنكمل باقى العيادة . . هيا . . ».

لكنه لم يكن هذه المرة يتفجر حيوية ونشاطًا، بل كان كمسافر طال ترحاله وأرهقه المسير فى طريق ممتلئ بالهول والشوك . .

وعندما عاد إلى زوجه قال لها فى ألم:

- «آن لنا يا عزيزتى أن نرحل . . » .

قالت وقد ألمت بكل ما حدث :

- «إلى حيث يشاءون . . » .

- «لكن أتضمن أننا سنستقر هناك؟؟» .

- «أملى فى الله كبير . . ومع ذلك فعلينا أن نعد أنفسنا لأسوأ الاحتمالات . . لقد عزمت على ألا أعارض فى النقل هذه المرة . . مللت الاعتراض على الانتداب . . وليس فى ذلك أدنى هزيمة . . بل عين الانتصار . . هناك فى مكاننا الجديد سوف نحاول أن نخطط لحياة جديدة . . لقد عاهدنا الله أن نقول للناس الكلمة الشريفة بأمانة . . ونمشى فى الطريق حتى النهاية . . وليكن ما يكون . . إنها رحلة قصيرة ، وستنتهى على أى وجه . . ولن أقبل المذلة والتراجع مهما كلفنى . . ولو دفعت حياتى . . أتذكرين ذلك الرجل الذى كان أول من اكتشف أن الأرض تدور . . وذلك الذى اكتشف قانون الجاذبية وعشرات غيرهم طلعوا على الناس بالحقائق الأولية . . هؤلاء واجهوا الاضطهاد والمفاهيم الدينية السقيمة ، وخيروهم بين الموت أو إنكار الحقيقة فاستقبلوا الموت بشجاعة . . وبهذه الشجاعة غيروا وجه العالم ، وأثروا فى حياة الإنسان ، وزرعوا النور والسعادة والرخاء . . إننى سعيد . . أقسم إننى سعيد يا زوجتى . . » .

قالت الزوجة وقد حبست دموعها:

- «فى الغد نستعد للرحيل..».

- «على بركة الله..».

واعتصم محمد صادق فى منزله، وآثر ألا يقابل أحدًا، لكنه كان يتابع الأمور من بعيد، محاولاً عن طريق أقربائه وأبيه أن يكف الأيدى عن العنف، وظل هكذا طوال يومين كاملين ولم يكن هذا يمانع أهالى القرية من عقد الاجتماعات واتخاذ القرارات بإرسال وفود منهم إلى المسئولين وتجديد المساعى لإبقاء الدكتور محمد، وفى أصيل اليوم الثالث، دق سعيد سلطان الباب بعنف وعجلة، وعندما استقبله الدكتور محمد، قال سعيد:

- «لأول مرة فى حياتى أؤمن بإنسان..».

- «ماذا تعنى؟؟».

- «انتهت المعركة.. وغدًا يشرق على القرية فجر جديد.. وتولد قيم جديدة..».

وتوقف سعيد عن الاستطراد فى لهجته الخطابية ثم قال:

- «عدت لتوى من المدينة.. آخر الأنباء الحاسمة.. هنا فى رأسى.. لقد أدانت المحكمة موريس وأوقفته عن العمل..».

قال محمد مقاطعًا :

- «تطور مؤسف . . » .

- «لا تقاطعنى . . لم ينته شريط الأنباء بعد . . وقد علم المحافظ بالنبأ وقابل وفدًا من الأهالى اليوم ، وأعطاهم وعدًا قاطعًا ببقائك فى القرية وتعيينك رئيسًا لمجلس القرية . . بعد إخلاء طرف موريس . . » .

- «طبعًا . . والآن أين الحلوى . . » .

قال الدكتور محمد فى شبه ذهول :

- «الحلوى؟ لكم يؤسفنى أن نشيّد هناءنا على أنقاض من تعاسة الآخرين» .

- «وماذا كنت تأمل ؟ ؟» .

- «أن يعود الشاردون إلى الطريق ويشفى المرضى ، فلا تترسب أحقاد أو تعاسات . . » .

قال سعيد وقد تذكر خطاب كاميليا إليه ، ذلك الخطاب الذى لم يرد عليه بعد :

- «لن تكون هناك لذة خالصة إذ لا بد أن يشوبها الألم ؛ لأن الألم يعطيها مفهومها الأصيل ولن نحيا بدون قلق وأحزان . . أنا

مثلاً أحب كاميليا وهى تحبنى لكن لن أتزوجها . . أتدرى لماذا؟ لأنها خاطئة . . حاولت أن أرغم نفسى على التسامح لكنى لم أستطع ؛ لأن خطيئتها ستظل تؤرق سعادتنا المقبلة ، وتهدد مستقبلنا ومستقبل أولادنا . . لن أستطيع أن أغفر هذا الذنب الأكبر . . لأنى لست إلهًا . . ».

وانفجر سعيد باكيًا ، وألقى برأسه على صدر محمد يبلله بالدموع ، وكأنه طفل صغير يلجأ إلى صدر أمه الحنون ليحميه من المخاوف والأشباح المجهولة ، وربت محمد على رأسه فى عطف ، وهو يقول :

- «هوّن على نفسك . . لم تزل صغيراً . . وستجد فى مستقبل حياتك فرصًا أروع وأمتع . . كنت أتمنى أن أواسيك فى محنتك ، وأشير عليك بالرأى ، لكنك فى موقف خاص . . أنت وحدك الذى تستطيع أن تصدر فيه رأيك النابع من تربيتك وظروفك وبيئتك . . ».

وتمتم سعيد وهو يجفف دموعه :

- «أنت وحدك الذى تفهمنى . . فكرت أن أهرب من هذا المكان بعيدًا عنها حتى كبريائى وآمالى الجريحة ، لكن عزّ علىّ أن أفارقك لأنك أخ وصديق ومربٍّ . . » ، وانبعث صوت المؤذن لصلاة العشاء . وكان صوته نديًا رقرقًا ذا أثر عميق فى نفس كل

منهما، وظلاً صامتين، ونبرات المؤذن الحنونة تتغلغل إلى أعماقها، وتمتم سعيد وهو يغتصب ابتسامة مرتعشة:

- «الآن أذان العشاء وبعد ساعات ثمان ينطلق صوت المؤذن فى الفجر معلنًا بدء يوم جديد.. يوم رائق طلق الأسارير..».

●●●

الفصل الثلاثون

الليل قد انتصف، والقرية نائمة، والوحدة المجمعة لا تسمع فيها حركة أو صوتًا، ثم خفير الليل وحده هو الذى يحمل بندقيته ويتجول كذئب يقظ، وفى هذا الوقت المظلم الصامت دخلت الوحدة عربة نقل كبيرة، واقتربت من مسكن موريس، ثم توقفت أمامه، ونزل منها موريس، وسرعان ما دس المفتاح فى الباب ففتحه. كانت أم لولا تجلس قلقة حزينة، محمرة العينين، زائغة النظرات، وتمتم موريس فى عجلة:

«هيا.. سنرحل حالاً.. قبل أن تطلع الشمس، لو بقينا حتى الصباح لخرجنا فى زفة من الشماتة والسخريات.. يجب ألا يرانا أحد..».

قالت أم لولا بصوت باكٍ جريح:

– «هل أحضرت العربة والحمّالين؟؟

- «ألا تسمعين الضجة بالخارج؟».

- «تمنيت أن أموت ولا أرى هذا اليوم».

فأردف في ضيق:

- «لا وقت للتفكير في شيء سوى أن نرحل قبل أن تشرق الشمس..».

وبعد ساعة كانت العربة غاصة بالأثاث، بينما أصبحت فيلا الدكتور موريس خاوية، عارية من كل شيء، ورمقت أم لولا الصالة والحجرات المفتوحة الأبواب، والسلم الملتوي الصاعد إلى ظلام الطابق العلوي بعين دامعة، كان جسدها كله يرتجف، وأمسك موريس بيدها قائلاً:

- «هيا يا عزيزتي.. لم يعد لنا شيء..».

وردت عليه بصوت كالفحيح:

- «تمنيت أن أحرق الوحدة بمن فيها.. بل القرية كلها..».

ولم يكن لديه وقت كي يعلق على عبارتها، لقد كان يخاف مطلع الفجر، وبعد دقيقتين كانت أم لولا تجلس إلى جوار السائق، وابنتها على كتفها تغط في نوم عميق، وانحشر زوجها جوارها قال السائق في صوت يخالطه النعاس:

- «هل آن لنا أن نسير؟».

قال موريس فى حشرجة :

- «أسرع . . » .

وانتفض من شدة الخوف عندما سمع صوتًا يقول :

- «مع السلامة يا سعادة البك» .

فصرخ دون وعى :

- «مَنْ؟» .

- «أنا عبد الواحد . . الخفير . . » .

فلم يرد عليه موريس بكلمة ، لكن زوجته صرخت فى عصبية :

- «امشِ يا كلب . . » .

وغطى على عبارتها ضجيج محرك العربة ، وشق نورها خضم الظلام الضافى ، وتحركت العربة نحو الطريق المترب المتعرج ، وفى دقائق معدودة لفها الظلام ، وعاد الصمت ، وبقى الخفير وحده يتمتم :

- «إلى جهنم . . قولى ما شئت . . فقد رأيتكما وأنتما تخرجان ذليلين . . تتسللون فى الظلام كاللصوص . . » .

ثم أخذ يدندن بموال الأدهم الشرقاوى حتى لا يغلبه النعاس .

***